

عقيدة السلف أصحاب الحديث
للصابوني
شرح
فضيلة الشيخ
عبد العزيز بن مرزوق الطريفي

تفريغ الدرس الأول

جعل الله تعالى للعلم الشرعي منزلة عظيمة, ورتب على طلبه الفضائل الكثيرة؛ لأن به يتميز الطريق المستقيم عن الطريق المعوج, ومن أعظم ما ينبغي الاهتمام به من العلم هو علم أصول الدين والعقائد؛ لكون الخطأ فيه كبيراً وعظيماً, ومن أهم الكتب التي اعتنت بهذا العلم كتاب عقيدة السلف الصالح للإمام الصابوني, والذي تميز بمعاصرة مؤلفه لأهل البدع, ونقل عقيدة السلف بالأسانيد, وجمع أصول مسائل العقائد.

منزلة العلم وشرفه

الحمد لله رب العالمين, وصلى الله وسلم وبارك على نبينا مُحَمَّد, وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإنه مما لا يخفى أن الله عز وجل قد جعل للعلم منزلة رفيعة؛ وذلك أن الإنسان لا يمكن أن يتحقق له سبيل من سبل الخير إلا بواسطة العلم, ولا يمكن أن يتقي ضرراً أو جهالة إلا وقد تحقق لديه شيء من العلم, والعلم كلٌّ يتمناه, ويتبرأ من ضده كل عاقل, وهذا من أظهر وجوه الشرف فيه, والله عز وجل لم يأمر نبيه عليه الصلاة والسلام أن يسأله زيادة في شيء من أمر الدين والدنيا إلا في العلم, فقد قال الله عز وجل في كتابه العظيم: ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه:114], فأمره الله عز وجل أن يسأله زيادة في ذلك, ولذلك ينبغي للإنسان أن يستزيد في تحصيله للعلم مهما بلغ مرتبة وعلواً, وألا يتوقف عند شيء من مراتبه, بل يكون طالباً له في كل حين, وفي كل زمن، وفي كل مكان؛ وذلك أن علم الله عز وجل الذي جعله للناس علماً عظيماً وافراً, ومع ذلك لا يؤتى الإنسان من ذلك العلم إلا شيئاً قليلاً.

وقد وردت أحاديث عن رسول الله ﷺ في فضل العلم ومنزلته, وفضل المتعلمين, وكذلك المعلمين, وبيان منزلة مراتب العلم والعلماء عند الله سبحانه وتعالى, وكلما كان الإنسان أوفق إلى معرفة العلم, وأكثر حرصاً وعناية بمعرفة مراتبه, وأن يأخذ أولى العلوم حظاً له، وأوجب عليه عند الله سبحانه وتعالى؛ كان أكثر سداداً وتوفيقاً.

ومما ينبغي أن نعلم أن الله عز وجل حينما جعل الصراط المستقيم مستقيماً إليه سبحانه وتعالى قد جعل أسهل ما يدل الإنسان إلى هذا الصراط هو العلم, ولهذا يقول النبي ﷺ -كما جاء في حديث أبي هريرة في الصحيح-: (من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة), فلدينا صراط مستقيم، ولدينا صراط معوج, والصراط المستقيم واحد, وأما المعوج فهي متعددة, والصراط المستقيم إذا قلنا: إن الإنسان أراد أن يسلك طريقاً واحداً مستقيماً فإن المستقيم لا يستطيع الإنسان أن يعدده باعتبار أن الاستقامة واحدة, أما الاعوجاج فهو على صور، وعلى أشكال متعددة، فيستطيع الإنسان أن يشكل طرقاً من الغواية متعددة, ولهذا وصف الله عز وجل طريق الحق والنور والهداية بأنه واحد, وأما بالنسبة للظلمات وطرق الغي فوصفها

بأنها متعددة؛ يقول الله جل وعلا في كتابه العظيم: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [البقرة:257], فجعل الله عز وجل طرق الظلمات متعددة, وأما بالنسبة لطريق النور فهو واحد؛ وهو الصراط المستقيم, ولهذا قال الله عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف:108], وهذا الصراط المستقيم هو الذي خطه رسول الله ﷺ, كما جاء في حديث عبد الله بن مسعود: (وخط عن يمينه وعن شماله خطوطاً), فهذا الصراط المستقيم الذي رسمه الله عز وجل للناس.

تنبيهات وضوابط في طلب العلم

وقد يكون هذا الصراط المستقيم فيه شيء من الصعوبة, فليس كل طريق مستقيم يكون سهلاً للإنسان, وذلك أن الإنسان ربما يسلك باباً من أبواب العلم، ويكون هذا الباب مفضولاً, وهذا من الفتنة التي ينبغي للإنسان أن يحذر منها, وذلك أن العلوم يدخلها التشهي وحظ النفس كغيرها, ولو كانت علوماً شرعية, فيطلب الإنسان من العلوم المفضولة ويدع العلم الفاضل مما أوجبه الله عز وجل عليه.

فبعض طلاب العلم يلتفت إلى العلوم, ويكثر منها بحسب رغبة النفس، وكذلك ربما حظوظها التي يميل الإنسان إلى شيء منها, فيميل الإنسان إلى بعض دقائق العلم من علوم الآلة ونحو ذلك، وهو من أهل الجهل بعلوم العقائد، وأصول الدين وأحكامه الظاهرة, وهذا من الفتنة التي ينبغي للإنسان أن يحذر منها, فالعلم الشرعي تدخله الفتنة، ويدخله أيضاً حظوظ النفس والهوى وغير ذلك, لهذا حذر الله عز وجل من طلب العلم لغيره, وجعل الله عز وجل العلم من أظهر العبادات, وقد حذر النبي ﷺ من سلوك غاية من يطلب العلم لغير الله عز وجل؛ فقد جاء في حديث أبي هريرة عند مسلم من حديث سليمان بن يسار: أن أبا هريرة عليه رضوان الله قال: قال رسول الله ﷺ: (أول من تسعر بهم النار ثلاثة: وذكر منهم عليه الصلاة والسلام: رجلاً طلب العلم ليقال: عالم, فيؤمر به في النار), ومعلوم أن العالم إذا طلب العلم وأخلص لله عز وجل سهل الله له طريقه إلى الجنة, ويقابل ذلك أن الإنسان إذا طلب العلم لغير الله سهل الله له به طريقاً إلى النار, وهذا أمر متلازم, والدليل العكس؛ أن الله عز وجل إذا أثاب الإنسان ثواباً عظيماً على عمل معين فإن عقابه بنحوه إذا انتقضت النية أو انتقض المقصد في ذلك.

لهذا ينبغي للإنسان أن يعلم أن الله عز وجل قد جعل العلوم متنوعة, وهي على مراتب, ثمة ما يتعلق بعلوم الأصول؛ وهي مسائل الدين الظاهر, ومسائل الدين الكلية من مسائل العقائد, مثل: الإيمان بالله, وبملائكته, وبكتبه, وبرسله, وباليوم الآخر, وبالقدر خيره وشره, وغير ذلك مما يتبع هذه المسائل من الإيمان بأركان الإسلام, وكذلك أيضاً صفتها الواردة في كلام الله وكلام رسول الله ﷺ, وغير ذلك من أحكام الدين الذي ينبغي للإنسان أن يتبصر بها, وألا يلتفت الإنسان إلى علم مفضول –مع عدم إدراكه– إلى علم فاضل, فإنه إن انصرف إلى غير ذلك كان ممن يطلب العلم لغير الله, فقد يطلبه لحظ نفسه لإشباع نزواتها ورغبتها, أو حباً للبروز والظهور؛ باعتبار أن الناس يرغبون بحاجة الإنسان لعلم من العلوم, أو ربما يجد الإنسان وظيفة أو نحو ذلك.

فنقول: إن العلم لا يطلبه الإنسان إلا بالقدر الذي أمر الله عز وجل به، والمرتبة التي وضعه الله عز وجل عليها, ولهذا نقول: إن العلم لا يوكل إلى الإنسان, بل ينظر إلى حاجة الناس, ولهذا كثير من الآباء حينما يسأله ابنه عن تخصص في علم معين ليدرسه يقول له: انظر إلى مستقبلك, فهذا قد ربط العلم بمستقبل ابنه، ولم يربط العلم بحاجة الناس, وهذا لا شك أنه من الأخطاء العظيمة الجسيمة التي تحيد بنية الإنسان إلى غير مراد الله سبحانه وتعالى.

إذاً: ينبغي للإنسان أن يعلم أن العلم بجميع أنواعه –سواء كان علم الأبدان أو علم الأديان– لا ينظر فيه إلى حظ الشخص ورغبته, وإنما ينظر فيه إلى حاجة الناس, فإذا كان الناس في انحراف في مسائل أصول الدين, أو كثرت فيهم البدع والضلال والزيغ ونحو ذلك، فينبغي للإنسان أن يتفقه بذلك, وأن يكون داعية إلى الله عز وجل على هذا النحو, وإذا كان الناس أهل استقامة في مسائل العقائد، واستقرار في هذا الباب, وثمة باب من مسائل الدين يجهله الناس فعليه أن يضرب بسهم في ذلك, ويدعو الناس إلى تحقيق ما جهلوه في هذا الباب, فالإنسان إنما يتعلم لينشر الحق, ويقيم أيضاً ما في نفسه, ويقيم ذلك الاعوجاج الذي ربما يطرأ عليه, أو ربما يدفع ذلك اللبس من الافتتان بشيء من الأقوال الظاهرة؛ من أقوال أهل الزيغ والبدع والضلال والانحراف وغير هذا, والذي ينبغي للإنسان أن يزيله، ولا يزيله الإنسان إلا بالعلم, ونحن إنما نتكلم على أمثال هذه المسائل؛ أنه ينبغي للإنسان ألا يحضر الدروس بحسب رغبة نفسه المجردة، أو حظها أو نحو ذلك, وإنما يتعلق أو يحضر الدروس ومجالس العلم إخلاصاً لله عز وجل, وتحقيقاً أيضاً للحق الذي أراد الله عز وجل إحقاقه, وكذلك بياناً لما أراد الله عز وجل له أن يبين؛ من بيان معالم الخير، وطمس معالم الشر والتحذير من أهلها.

أهمية علم أصول الدين وضرورة أخذه عن السلف الصالح

وإنما جعلنا الكلام في هذا المجلس –وكذلك المجالس التالية– على نوعين من هذه العلوم:

النوع الأول: ما يتعلق بمسائل العقائد؛ باعتبار أن الإنسان لا يتحقق إيمانه إلا بذلك, فلا ينبغي للإنسان أن ينصرف إلى شيء من العلوم المفضولة وهو مقصر في علم الأصول, والمراد بعلم الأصول: أصول الديانة مما يتعلق بالإيمان بالله سبحانه وتعالى؛ بتوحيد الله عز وجل بجميع أنواعه, لهذا ينبغي للإنسان ألا يخلي نفسه من كل مجلس، ومن كل قراءة, من قراءة في هذه المسائل؛ باعتبار أنها أعظم ما يسأل عنها الإنسان عند الله سبحانه وتعالى, ولهذا الإنسان إذا كان من أهل الكفر والإعراض عن الله عز وجل لا ينفعه العلم الآخر مهما توسع وأطنب، وأكثر من الحفظ والدراسة، والنظر ومعرفة الأدلة، وكذلك القياس, ومعرفة علوم الآلة الموصلة إلى ذلك العلم, ومهما عرف أقوال العلماء وتنوع وتشعب في الأخذ في ذلك عن المدارس, فإنه لا ينفعه ذلك ولا يغنيه من الله سبحانه وتعالى شيئاً, حتى يكون الإنسان متبصراً بالعلم الذي يقيم دينه الأصل, وهو توحيد الله سبحانه وتعالى, فإذا كان مشركاً أو ملحداً أو واقعاً في شيء من نواقض الإيمان ثم يطلب فضول العلم الأخرى فلا شك أن هذا من أعظم الفتنة التي يفتن بها الإنسان, وغالب أولئك أنهم ينصرفون إلى غير مرضاة الله سبحانه وتعالى.

ونحن دائماً نحرص على أنه ينبغي لطالب العلم أن يتعلق بمسائل العقائد، المروية عن أجلة هذه الأمة من السلف الصالح، الذين

حثنا الله عز وجل على الاقتداء بهم، والتأسي بمنهجهم, وهم أطهر الناس أفئدة، وكذلك أزكاهم قلوباً وأصفاهم أذهاناً من جهة معرفة الحق, وأبعد عن حظوظ النفس وشوائبها بعدما تمكنت من الناس، وأوجدت في نفوسهم ملاذاً في أمر الدنيا من شهوات وغير ذلك, ولهذا النبي ﷺ يقول -كما جاء في الصحيحين وغيرهما-: (خير القرون قرني, ثم الذين يلونهم, ثم الذين يلونهم), فجعل النبي ﷺ الخيرية في قرنه, ثم الذين يلونهم, ثم الذين يلونهم, ثم بعد ذلك يزيد الخير والشر ويتغالبان في ذلك, والغلبة في ذلك لما يقدره الله عز وجل, ولكن الله عز وجل قد قضى وقدر أن الخيرية الأعظم هي للقرن الأول, ثم الخيرية الثانية هي للقرن الثاني, ثم الثالثة للقرن الثالث, ثم بعد ذلك يتغالب أهل الزمان بحسب دعوة الحق فيه, لهذا ينبغي للإنسان أن يحرص أن يأخذ مسائل الدين عن الصدر الأول.

صفاء الوحي المنزل على رسول الله ﷺ

والله عز وجل قد شبه العلم الذي أنزله على رسوله عليه الصلاة والسلام بالغيث, وجعل الله عز وجل أولئك الذين يتلقون ذلك العلم أنهم كحال الأواني الذين يأخذون الغيث ويحملونه, ولهذا نقول: إن الوحي من كلام الله عز وجل، وكلام رسول الله ﷺ؛ أنزله الله عز وجل على نبيه عليه الصلاة والسلام عذباً زلالاً ليس فيه شيء من الشائبة, وأفرغه النبي ﷺ في الصحابة, وأفرغه الصحابة في التابعين, وأفرغه التابعون في أتباع التابعين, وأفرغه أتباع التابعين في أتباعهم, وهكذا, وكلما زاد إفراغاً زاد كدراً, وينبغي للإنسان أن يأخذ الماء نقياً من منبعه الأول, ولهذا يقول النبي ﷺ مبيناً التباين بين طبقتين؛ وهي: طبقة النبوة ومقامها, وبين طبقة خير القرون بعده عليه الصلاة والسلام؛ وهي طبقة الصحابة, كما جاء في مسلم من حديث أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: (النجوم أمنة للسماء, فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد, وأنا أمنة لأصحابي فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون, وأصحابي أمنة لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون).

والعلم أمان للإنسان, والإنسان إذا أخذ الأمان ممن يحميه ويقيه كان من أهل الطمأنينة والسكينة, ومن أهل الحق, والاعتصام والاستمساك بحبل الله عز وجل, وما كل أحد تمسك بالحق كان تمسكه قوياً, والله عز وجل يقول في كتابه العظيم: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ [آل عمران:103], ونعمة الله عز وجل المراد بذلك هي دينه سبحانه وتعالى, لهذا قال الله عز وجل في كتابه العظيم: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة:3], فسمى الله عز وجل دينه نعمة منه سبحانه وتعالى, وهي التي أمرنا الله عز وجل بالاعتصام بها, فالله عز وجل قد أمر بالتمسك بكتابه بقوله: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا ﴾ [آل عمران:103], فمن الناس من يتمسك بيد, ومنهم من يتمسك بيدين, ومنهم من يتمسك بإصبع, ومنهم من يتمسك بشخص آخر قد تمسك بذلك الحبل, فهو كحال المقلد؛ إن انفلت ذلك الأصل انفلت معه, ولهذا ينبغي للإنسان أن يعظم طلباً وقصداً وتحرياً معرفة للحق, فإنه كلما كان أكثر تمحيصاً كان أكثر إصابة، وأدق استمساكاً واعتصاماً, وأعظم هداية ووقاية عند وجود الفتن والامتحان فيها, وهذا من المواضع التي ينبغي للإنسان أن يطيل تأملاً فيها من جهة التمسك بالحق ومواضع التمسك, وكذلك ما ينبغي للإنسان أن يستمسك به من

وجوه الحق, وذلك بحسب تقلب الزمان, وكذلك أيضاً أحوال الناس وكثرة الفتن.

ونحن في هذا الزمن قد كثرت الفتن، وتنوعت المشارب والمذاهب والآراء, وتنوعت الأهواء, فقذفت بأصحابها يمنة ويسرة عن طرق الحق حتى أشكل على كثير من المنتسبين إلى العلم فضلاً عن العامة معرفة الحق من الصواب؛ وذلك لكثرة أدعيائه, والتباس كثير من الناس وتسترهم بالأدلة من كلام الله، وكلام رسول الله ﷺ, والحق أحق أن يتبع, وهو الذي ينبغي للإنسان أن يسير إليه, وألا يتهيب قولاً, وألا يتهيب بلداً ما اتضح له الدليل، وسلمت له النفس، وطهرها من شوائب الحظ والهوى, وكان له سلف في ذلك من خير القرون من الصحابة عليهم رضوان الله تعالى وكذلك التابعين, وكلما كان الإنسان أكثر اتباعاً لأكثر الأمة عدداً من الصحابة كان أقرب إلى الصواب, وكذلك أيضاً من التابعين.

خطورة الخطأ في باب العقائد

وعلم العقائد هو الذي يسأل عنه كل أحد, وهو الذنب الذي إذا خالف الإنسان فيه كان أعظم سؤالاً عند الله عز وجل من غيره, ولهذا يقول الله عز وجل في كتابه العظيم: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء:48], فالله عز وجل لا يغفر للإنسان إذا وقع في شيء من الشرك, وقد نص غير واحد من العلماء أن الإنسان إذا وقع في شيء من الشرك ولو كان من الشرك الأصغر أن الله عز وجل لا يغفره لصاحبه؛ وذلك أن الشرك في مرتبة بين الكفر الأكبر والشرك الأكبر وبين الكبائر, فهذه المرتبة قد جعلها الله عز وجل لهذا النوع من الذنوب باعتبار أن فيه ظلم للإنسان لنفسه فيما يتعلق بحق الله عز وجل.

وأعظم الظلم هو: الإشراك بالله عز وجل, ولهذا ينبغي للإنسان أن يحتاط في أمثال هذا الخطأ, فالخطأ في مسائل العقائد يختلف عن الخطأ في غيره, والصواب فيه يختلف توفيقاً وتسديداً وأجراً عن الصواب في غيره, وكثير من طلاب العلم يلتذ ويجد أنساً إذا أصاب في مسألة جزئية, أو حرر مسألة أو موضعاً من مواضع العلم, أو اسم راو من الرواة, أو حقق صواباً في مخطوط أو نحو ذلك, وهذا من المسائل الجزئية التي إذا وجد الإنسان فيها أنساً وفرحاً، ولم يجد ذلك في تصويبه لمسألة من مسائل العقائد فليعلم أن النفس قد دخلها داخل, وأنها إنما مالت إلى شيء من إشباع رغبة النفس باتباع علم من العلوم قبل غيره.

والكلام على مسائل العقائد وأهميته وجلالة قدره يأتي في ثنايا ومدراج الكلام على هذه العقيدة الجليلة؛ وهي: عقيدة الإمام الصابوني رحمه الله.

سبب اختيار كتاب عقيدة السلف للإمام الصابوني وبعض مميزاته

وإنما كان الاختيار والانتقاء لهذا الكتاب لقدم ذلك الإمام, وكذلك لأن كثيراً من البدع وتشعب الأقوال كانت في زمنه, فأراد كثير من الأئمة أن يردوا تلك البدع بالأدلة الظاهرة من كلام الله عز وجل، وكلام رسول الله ﷺ، وهدي خير القرون من الصحابة عليهم رضوان الله تعالى، وكذلك أيضاً من التابعين وغيرهم من أئمة الإسلام, وهذا يدل على أن الأقوال التي جاءت بعد ذلك إنما هي أقوال قد تصدى لها أهل العلم.

كذلك أيضاً أنه ينبغي للمؤمن أن يعلم أن العقائد الحقة إنما نأخذها من الأسلاف, وأن الإنسان ينبغي له أن يأخذ الحق من منبعه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً, وأن العقيدة التي يأخذها الإنسان في الأزمنة المتأخرة إن وافقت الحق يستأنس الإنسان ويطمئن أنها هي التي كان عليها أصحاب القرون المفضلة من القرون الثلاثة ومن جاء بعدهم.

وهذا الكتاب –كما تقدم الإشارة إليه– هو من الكتب المهمة الجليلة القدر, والتي اعتنى بها الأئمة, وأيضاً هو من الكتب التي تعتني برواية المرويات بالأسانيد, والعناية بنقل ما ثبت وصح واستقر عليه العمل اعتقاداً في ذلك الزمن, وكذلك أيضاً قد جمع أصول المسائل التي وقع فيها الخلاف في زمنه من أقوال أهل الضلال من الجهمية، وكذلك من المعتزلة، وغيرهم ممن ضل في هذا الباب, سواء ما يتعلق في مسائل الإيمان، أو كذلك في مسائل الصحابة من الرافضة، أو غيرهم ممن وقعوا بأصحاب رسول الله ﷺ, وكذلك أيضاً البدع المكفرة في هذا الباب, ويأتي الكلام عليها في كلام المصنف رحمه الله تعالى.

نقف عند هذا الحد, وصلى الله وسلم على نبينا مُحَمَّد, وعلى آله وصحبه أجمعين.

الدرس الثاني

ألف الإمام الصابوني كتابه عقيدة السلف لما انشرت البدع في زمنه بسبب دخول العجم في الإسلام, وبعدهم عن اللغة العربية, فاشتدت حاجة الناس إلى كتاب مثله, فبدأ كتابه بحمد الله, سائلاً منه التوفيق والإعانة, مبيناً عقيدة أهل الحديث؛ فذكر شهادتهم لله بالوحدانية, ولرسوله بالنبوة والرسالة.

توضيح بأن عقيدة أئمة المذاهب الفقهية هي عقيدة السلف

بسم الله، والحمد لله, والصلاة والسلام على رسول الله, وعلى آله وصحبه ومن والاه. أما بعد:

قال المؤلف رحمه الله: [بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

رب يسر وأعن بفضلك ورحمتك, أخبرنا قاضي القضاة بدمشق نظام الدين عمر بن إبراهيم بن مُحَمَّد بن مفلح الصالحي الحنبلي

إجازة مشافهة, أخبرنا الحافظ أبو عبد الله مُحَّد بن عبد الله بن أحمد بن محب المقدسي إجازة إن لم يكن سماعاً, أخبرنا الشيخان جمال الدين عبد الرحمن بن أحمد بن عمر بن شكر و أبو عبد الله مُحَّد بن المحب عبد الله بن أحمد بن مُحَّد المقدسيين قال الأول: أخبرنا إسماعيل بن أحمد بن الحسين بن مُحَّد العراقي، سماعاً، أخبرنا أبو الفتح عبد الله بن أحمد الخرقي إجازة، وقال الثاني: أخبرنا أحمد بن عبد الدائم.

وأخبرنا المحدث تاج الدين مُحَّد ابن الحافظ عماد الدين إسماعيل بن مُحَّد بن بردس البعلي في كتابه، أخبرنا أبو عبد الله مُحَّد بن إسماعيل بن الخباز شفاهاً، أخبرنا أحمد بن عبد الدائم إجازة إن لم يكن سماعاً، أخبرنا الحافظ عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي، أخبرنا الخرقي سماعاً، أخبرنا أبو بكر عبد الرحمن بن إسماعيل الصابوني، حدثنا والدي شيخ الإسلام أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن فذكره.

وأخبرنا قاضي القضاة عز الدين عبد الرحيم بن مُحَّد بن الفرات الحنفي إجازة مشافهة، أخبرنا محمود بن خليفة بن مُحَّد بن خلف المنبجي إجازة, أخبرنا جمال عبد الرحمن بن أحمد بن عمر بن شكر بسنده قال: الحمد لله رب العالمين, والعاقبة للمتقين, وصلى الله على مُحَّد وآله وصحبه أجمعين].

المصنف رحمه الله هو: إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني رحمه الله, وقد عاش ثلاثاً وسبعين سنة في القرن الرابع, وهو من أئمة أهل السنة، ومن أئمة الشافعية, وهنا ينبغي لطالب العلم أن يعلم أن أئمة السنة من سائر المذاهب سواء كانوا من الحنابلة أو من الحنفية أو من الشافعية أو من المالكية كانوا على عقيدة سواء, حتى جاءت الكثير من الأقوال الدخيلة في هذا الباب, فتنوعت المشارب، وتنوعت الأقوال، وظهرت كثير من الطوائف البدعية ونحو ذلك, حتى غلب على كثير من المذاهب شيء من العقائد الغالبة على غير هدي السلف الصالح, لهذا ينبغي أن نعلم أن الأئمة عليهم رحمة الله من أئمة المذاهب الأربعة، وكذلك أيضاً من تلامذتهم, وكذلك أيضاً من أتباعهم من المتقدمين أنهم كانوا على عقيدة سواء غالباً, وسواء كانوا من الشافعية أو من المالكية أو الحنابلة أو الحنفية, وهذا ما ينازع فيه كثير من المقلدين الذين يظنون أن الأئمة الكبار من الشافعية المتقدمين والمالكية وغيرهم أنهم كانوا على عقيدة تخالف عقيدة السلف الصالح, فيما يتعلق بتأويل الصفات أو تعطيلها أو غير ذلك, لهذا ينبغي لطالب العلم أن يأخذ بعقائد الأئمة عليهم رحمة الله تعالى من المتقدمين حتى يعرف تلك المشارب، ويعرف زمن الحيدة التي طرأت على كثير من الأئمة, وانفصلوا عن عقائد أئمتهم الأربعة عليهم رحمة الله, وأن الأئمة الأربعة عليهم رحمة الله إنما كانوا غالباً ممن يسلك منهج خير القرون من الصحابة، وكذلك أيضاً من التابعين.

البدء بالبسملة والحمدلة في المصنفات والمكاتبات

ابتدأ المصنف رحمه الله بالحمدلة, (وكل أمر ذي بال لا يبتدئ فيه بباسم الله أو بذكر الله أو بالحمد لله فهو أبتر), وينبغي أن نعلم أن النبي ﷺ (كان من هديه إذا كتب كتاباً أن يبتدئ بباسم الله), كما جاء ذلك في الصحيح من حديث عبد الله بن عباس أنه قال: (كتب رسول الله ﷺ فقال: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. من مُحَّد بن عبد الله), وينبغي أن نعلم أن النبي ﷺ كان إذا

ابتدأ أمراً ذا بال من خطب ونحو ذلك ابتدأه بالحمدلة.

ولهذا نقول: إذا كان الإنسان يكاتب أحداً بعينه فليكتب (باسم الله)، ويكتفي بذلك, وأن البدء بالحمدلة في المكاتبات التي تكون بين الناس ونحو ذلك ليس من سنة النبي ﷺ, والسنة أن يبتدئ ببسم الله الرحمن الرحيم, ويكتفي بذلك, هذا بالنسبة للمراسلات الخاصة ونحو ذلك.

أما المؤلفات التي تشابه الخطب فإنه يبتدئ في ذلك بالحمد لله رب العالمين، والصلاة على رسول الله ﷺ؛ كحال خطب الجمعة ونحو ذلك, وبالنسبة للمقالات والرسائل التي يكتبها الإنسان إلى أحد بعينه أو إلى عموم المسلمين مما تكون على سبيل الاختصار، نقول: يبتدئ فيها الإنسان ببسم الله الرحمن الرحيم, وهذا هو الأقرب لهدي النبي ﷺ.

وأما ما عدا ذلك من أحوال الناس من كلامهم مما لا يعد له البال فنقول حينئذ: إن الإنسان لا حرج عليه ألا يبتدئ فيه بذكر الله؛ وذلك كحديث الإنسان مع صاحبه, أو حديث الإنسان مع زوجه وولده ونحو ذلك, فهذا من الأمور العامة التي تندرج تحت كلام الناس العام, فينبغي للإنسان أن يكون حاضراً في ذكر الله عز وجل بلسانه على سبيل الدوام من غير تخصيص لأمثال هذه المواضع, فإنها لم تكن معهودة عن رسول الله ﷺ.

والابتداء بالحمدلة فيه البركة واليمن بذكر الله عز وجل, وفيه أيضاً إظهار الافتقار، وضعف العبد بين يدي ربه سبحانه وتعالى, وكذلك أيضاً إعلان الفاقة والعجز في قول الإنسان، وكذلك أيضاً عمله وتصنيفه, وأنه إذا لم يكن له معين من الله سبحانه وتعالى فإنه ليس إلى تسديد, ولهذا المصنف رحمه الله ابتدأ هذا الكتاب بالحمدلة؛ باعتبار أن هذا الكتاب هو كتاب يشابه الخطب التي تتضمن جملة من مسائل العلم, والإنسان في هذه الأحوال يأخذ بذلك هدي رسول الله ﷺ, والأئمة في ذلك متنوعون؛ منهم من يبتدئ بالبسملة مجردة, ومنهم من يبتدئ بالحمدلة حتى في أبواب المصنفات, ولهذا من نظر إلى طرائق الأئمة عليهم رحمة الله؛ كالإمام البخاري , والإمام أحمدو عبد الرزاق في كتابه المصنف يجد أن أمثال هؤلاء ابتدءوا بالبسملة وما ابتدءوا بشيء من الخطب في مصنفاتهم. والذي يظهر والله أعلم أن هذه المصنفات إنما هي سنة النبي ﷺ, وهي وحي في ذاتها, وأن مثلها غني عن أن يبتدأ بغيره سوى البسملة التي اعتاد عليها رسول الله ﷺ في مكاتباته.

ومن العلماء من يفتتح في مقدمة مصنفاته بالبسملة والحمدلة, وهذا يشتهر كثيراً؛ كطريقة الإمام مسلم رحمه الله في افتتاح كتابه, وكذلك أيضاً أبي داود رحمه الله في رسالته, وغيرهم من أئمة الإسلام, وهذا كما تقدم الإشارة إليه للتماس اليمن والبركة والمدد من الله، والعون والتسديد منه سبحانه وتعالى.

سبب تأليف الإمام الصابوني لكتاب عقيدة السلف

قال المؤلف رحمه الله: [أما بعد:

فإني لما وردت آمد طبرستان, وبلاد جيلان؛ متوجهاً إلى بيت الله الحرام، وزيارة قبر نبيه محمد صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الكرام, سألني إخواني في الدين أن أجمع لهم فصولاً في أصول الدين التي استمسك بها الذين مضوا من أئمة الدين، وعلماء المسلمين، والسلف الصالحين, وهدوا ودعوا الناس إليها في كل حين, ونهوا عما يضادها وينافيها جملة المؤمنين المصدقين المتقين, ووالوا في اتباعها وعادوا فيها, وبدعوا وكفروا من اعتقد غيرها, وأحرزوا لأنفسهم ولمن دعوه إليها بركتها وخيرها, وأفضوا إلى ما قدموه من ثواب اعتقادهم لها, واستمساكهم بها، وإرشاد العباد إليها, وحملهم إياهم عليها, فاستخرت الله تعالى وأثبت في هذا الجزء ما تيسر منها على سبيل الاختصار].

حاجة الناس في زمنه لكتاب مثله

الكثير من الأئمة يشيرون إلى أسباب تصنيفهم لهذه المؤلفات, ولهم في ذلك مقاصد متعددة, من هذه المقاصد: أنهم يريدون أن يبينوا أنهم ما عمدوا إلى التصنيف مجرداً لحظ التصنيف وحظ النفس, أو أنهم أرادوا بذلك تدويناً ينسب إليهم, وإنما أرادوا بذلك أنهم ما عمدوا إلى هذا التصنيف إلا لحاجة الناس إلى الكتابة في ذلك, وهذا ما يظهر في كثير من مصنفات أهل العلم, منها ما يذكرونه في مقدمة مصنفاتهم, ومنها ما يذكرونه في ثناياه, أو ربما ما يذكر عنهم في غير ذلك المصنف, أو يشير إليه ذلك الإمام في موضع آخر من مصنفاته, إشارة إلى أن التصنيف إنما هو لحاجة الناس لا لحظ النفس المجرد, وكأنهم يريدون من ذلك دفعاً لتزكية النفس, وأن الإنسان ما قصد إلى هذا التصنيف في هذا الباب إشباعاً للرغبة الذاتية, وإنما للحاجة التي وجدت لدى كثير من الناس, ولهذا المصنف رحمه الله قد أشار إلى أنه إنما صنف هذه الرسالة بعد أن سئل التصنيف فيها, فعمد إلى جمع كلام الأئمة عليهم رحمة الله تعالى في مسائل العقائد، ومسائل السنة, وهدي رسول الله ﷺ في ذلك, وكذلك أيضاً معرفة الفرق المخالفة في هذه المسائل, وطريقة الرد عليهم.

ظهور البدع وانتشارها

ومما لا يخفى أن ذلك الزمن قد ظهرت فيه أقوال أهل البدع، وتشعبت وتنوعت، وكثر فيه أدعياء الحق, والمتسترين بالحجج من كلام الله، وكلام رسول الله ﷺ, والسبب الأصلي في ذلك: أن في بعض القلوب زيغاً, ولهذا يقول الله عز وجل في كتابه العظيم: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ [آل عمران:7], أي: يسلكون الطريق في معرفة كلام الله عز وجل بالتشبث بالمتشابه، وترك المحكم من كلام الله عز وجل ليقرروا مسائل لم تكن مقررة, أو

يخالفوا في ذلك الأصول المحكمة اتباعاً للأهواء, فيطوون المحكم وينشرون المتشابه.

العجمة وأثرها في ظهور البدع

وربما أيضاً السبب في ذلك هو الضعف والقصور العلمي, ويظهر هذا لدى العجم, ونحن إذا أردنا أن ننظر في البدع التي ظهرت في الإسلام نجد أن جلها وراءها عجم, إما أن يكونوا بحسن قصد، أو بسوء قصد, ومرد ذلك هو إما إلى الجهل، وإما إلى إرادة الفتنة، والتأويل لكلام الله سبحانه وتعالى.

ولهذا نقول: إنه ينبغي لطالب العلم أن يعلم أن النبي ﷺ إنما أنزل الله عز وجل عليه الوحي في معاقل الإيمان والوحي؛ وهي مكة والمدينة، وشيء فيما بينها، وقليل فيما خرج عن ذلك, وأنه ينبغي للإنسان أن يستكثر مما كان عليه العرب الفصحاء من خير القرون, من الصحابة عليهم رضوان الله تعالى، وكذلك أيضاً من التابعين, وأما مجرد الإمامة في باب من الأبواب ونحو ذلك فهذا لا يعني معرفة للحق.

ولهذا نقول: إن البدع التي ظهرت في الإسلام سواء كانت بدعة القدر, أو فيما يتعلق بالبدع التي وقعت في حال أصحاب رسول الله ﷺ, وغير ذلك من البدع المتنوعة في الجهمية وغيرهم, بل حتى ما يتعلق في الصوفية الخرافية, هذا إنما نشأ عند العجم من جهة أول منبته, وتشبثوا في تفصيل ذلك وتقعيده لما رد عليهم كثير من الناس, فتشبثوا ببعض الأدلة من كلام الله، وكلام رسول الله ﷺ, وأصلوا في ذلك تلك المذاهب, وكان دافعها في ابتداء ذلك الجهل, ولهذا تجد أن أكثر أهل العربية وقعوا في البدع؛ لأنهم ليسوا عرباً, إنما أخذوا العربية تعلماً, وما أخذوها سليقة, يعني: لم يكونوا أخذوها وراثة، واستقامت على ألسنتهم كما استقامت لدى كثير من العرب الذين ورثوها من آبائهم وأمهاتهم، وكذلك ممن حولهم, فوقعوا في كثير من البدع, لهذا ينبغي ألا يلتفت الإنسان مثلاً إلى إمامة فلان في العربية ونحو ذلك؛ لكثرة مصنفاته ونحو ذلك؛ بل نقول: إنه ينبغي أن نعلم أن الصحابي الذي لم يرد عنه شيء من العربية –يعني: لاستدلاله بأشعار العرب ونحو ذلك– أنه أبصر من جميع ممن يأتي بعده بالعربية؛ لأن عربيته سليقية, ولهذا يقول الإمام الشافعي رحمه الله عن الإمام مالك : إن الإمام مالك يتكلم العربية سليقية, يعني: أنه لا يتكلم بقواعد وضوابط ونحو ذلك, وإنما يقيم اللسان سليقة.

ولهذا الأعراب الذين يرد إليهم النص من كلام الله عز وجل، وكلام رسول الله ﷺ في الصدر الأول من الصحابة, وكذلك من التابعين من أهل المدينة ومن حولها, الذين لم تدخلهم العجمة, يفهمون كلام الله عز وجل أكثر من سيبويه و الخليل بن أحمد ، وغيرهم من أئمة العربية؛ لأنهم أصحاب سليقة, وليسوا بأصحاب عجمة, وهؤلاء إنما توغلوا في هذا الباب، وأكثروا من الكلام في العربية ومعرفة الأدلة والشواهد ونحو ذلك, وإنما أخذوا ذلك بالقواعد, والقواعد في ذلك لا تسلم للإنسان في كل حين وفي كل موضع.

فالإنسان لا يفهم ذلك النص حتى يفهم الوضع الذي نزل عليه الدليل, فما كل من رجع إلى القواميس العربية يفهم الدليل,

ولهذا ينبغي أن نفهم الوضع الذي جاء فيه النص في كلام الله عز وجل، وكلام رسول الله ﷺ, وقد جاء في الصحيح وغيره من حديث عدي بن حاتم عليه رضوان الله تعالى (أن الله عز وجل لما أنزل قوله جل وعلا: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ [البقرة:187], قال عدي بن حاتم عليه رضوان الله: عمدت إلى عقالين فوضعتهما تحت وسادتي.. إلى آخر الخبر, فذكر ذلك للنبي عليه الصلاة والسلام, فقال النبي ﷺ: إن ليلك لطويل, إنما هو سواد الليل وبياض النهار), فعدي بن حاتم عربي, ولكنه ليس من أهل المدينة.

فالوضع الذي نزل عليه النص ينبغي للإنسان أن يعرف السياق المعروف في المدينة, وأما من جهة اللغة العربية فحجة عدي صحيحة؛ لأنك حتى لو رجعت مثلاً إلى القاموس تجد أن البياض المراد بذلك هو اللون المعين, وتجد أيضاً أن السواد هو اللون المعين, وتجد أيضاً أن الحبل هي الحبال المفتولة، وكذلك الخيط, فيجد الإنسان هذا التعريف, ولكن نقول: إن العربية في ذلك أعم, وتنزل على أجزاء متعددة, ويغلب النص نزولاً على أحدها, فيأتي في ذلك شيء من الفهم المخالف لظاهر الدليل, وهذا وقع يسيراً في أصحاب رسول الله ﷺ، فكيف في التابعين, فكيف في العجم من الكوفيين والبصريين وغيرهم, بل أيضاً ممن أبعد من ذلك من أهل فارس, وغيرهم ممن دخل في الإسلام من الروم وغيرها.

لهذا نقول: ينبغي للإنسان إذا أراد أن يفهم مسائل الدين أصولاً وفروعاً أن يرجع إلى أقوال أهل العربية من أهل العلم والفضل, وصدر ذلك هم الصحابة عليهم رضوان الله تعالى في المدينة ومكة, وكذلك أيضاً الأجلة من فقهاء التابعين في المدينة ومكة, فينبغي له أن يعرف أقوالهم، وأن يتبصر بها, ولهذا النبي ﷺ إنما فضل أصحابه لهذا الباب, وكذلك أيضاً إنما جاء تفضيل المدينة وأهلها وفضل سكناها؛ باعتبار أن البدع فيها أقل من غيرها.

وما ذكره المصنف رحمه الله أنه سئل ذلك وهو في طريقه؛ في هذا إشارة إلى أن العالم والداعي إلى الله عز وجل سواء كان في حله وترحاله ينبغي أن يعرف أحوال الناس, ويتفقد حاجتهم أيضاً, ويعرف مواضع الجهل والخلل فيهم, وألا يكون منكفئاً على نفسه, بل يتبصر بأحوالهم, ويعرف ما يحتاجونه وما يجهلونه, فيسأل عن حاجتهم, وعن قصورهم في باب من الأبواب, فالمؤلف رحمه الله لما عمد إلى بعض البلدان قاصداً المدينة النبوية سألوه التصنيف في هذا الباب, فعمد إلى تصنيف هذه الرسالة في مسائل العقائد.

- **توجيه حديث: (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد)**

ومما ينبغي التنبيه له أن الإنسان إنما يقصد المدينة النبوية قصداً لمسجد رسول الله ﷺ لا لقبره, ولهذا يقول النبي ﷺ: (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد), وفي هذا إشارة إلى أن الإنسان لا يشد رحله تعبداً إلا إليها, وقوله: (لا تشد الرحال), يعني: تعبداً لله سبحانه وتعالى؛ وذلك كقولنا: لا إله أي: لا معبود بحق إلا الله سبحانه وتعالى.

فقوله: (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد) يعني: تعبداً لله سبحانه وتعالى, أما إذا شد الإنسان الرحال لكونه أراد أن يسافر

نزهة أو يسافر لأي موضع من مواضع الأرض فله أن يسافر في ذلك, ما دام الأمر ليس للعبادة, وأما ما كان للتعبد في موضع معين فإنه لا يكون إلا لهذه المساجد الثلاثة.

وأما الإنسان إذا أراد أن يرتحل إلى طلب علم ونحو ذلك, فنقول: إن الرحلة في ذلك ليست لبقعة معينة, وإنما هي للعلم, فلو تغير معقل ذلك العلم لتغيرت معه وجهته, فيتحول إليه بحسب تحول ذلك العلم, فيرتحل إلى اليمن, ويرتحل إلى العراق, ويرتحل إلى مصر، وإلى مكة، وإلى المدينة, وإلى غيرها من المواضع, فهو لم يقصد المكان، وإنما قصد الحال التي هي عليها، وهي العلم الذي أراده الإنسان.

كذلك أيضاً إذا قصد الإنسان السفر لصلة الرحم, فهو ما قصد بقعة وإنما قصد الرحم, فهو يرتحل لأمه وأبيه, وكذلك لقرابته, فإذا تحول أبوه من مكة إلى المدينة تحول هو إلى مكة, وإذا تحول من مكة إلى اليمن تحول إلى اليمن, فهو لم يقصد بقعة وإنما قصد رحمه, فلهذا نقول: إن النص الذي قد جاء هنا عن النبي ﷺ في قوله: (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد) أن المراد بذلك هي المواضع, والمساجد هي ما يسجد فيها لله سبحانه وتعالى.

ضرورة سؤال العبد ربه التوفيق والإعانة في أعماله وأقواله

قال المؤلف رحمه الله: [وأثبت في هذا الجزء ما تيسر منها على سبيل الاختصار, رجاء أن ينتفع به أولو الألباب والأبصار، والله سبحانه يحقق الظن، ويجزل علينا المن بالتوفيق والاستقامة على سبيل الرشد والحق بمنه وفضله].

وفي هذا أنه ينبغي للإنسان إذا عمد لشيء من الأعمال والأقوال, سواء كان ذلك تصنيفاً أو كان ذلك دعوة وتعليماً أو كان دلالة وإرشاداً أو كان ذلك شيئاً من أمور الدنيا؛ ألا يخلي نفسه من سؤال الله عز وجل التسديد والهداية والإعانة والتوفيق, ولهذا رسول الله ﷺ كان يسأل الله عز وجل ذلك، وهو المؤيد بتأييد الله عز وجل وتسديده.

وقد جاء في صحيح الإمام مسلم من حديث أبي سلمة عن عائشة عليها رضوان الله تعالى: (أن النبي ﷺ كان يستفتح صلاة الليل: اللهم رب السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة, اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل, فاطر السموات والأرض, أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون, اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم), وهذا التضرع الليلي في موضع السحر من النبي ﷺ سؤال لله عز وجل بالاستقامة والتسديد ومعرفة مواضع الخلاف, وكذلك مواضع الفضل في مسائل التفاضل في مواضع الخلاف.

لهذا نقول: إنه ينبغي للإنسان أن يستكثر من سؤال الله عز وجل معرفة الهداية والحق, ولهذا النبي ﷺ لما أرشد السائل قال: (قل: اللهم اهدني وسددني, وتذكر بالهداية هداية الطريق, وبالسداد سداد السهم), لهذا ينبغي للإنسان أن يسأل الله عز وجل التسديد فيما يأتي ويذر, وهذا يتأكد إذا عمد الإنسان إلى شيء من الأعمال، أو عمد إلى شيء من الأقوال, وهذا ظهر في

كلام المصنف رحمه الله أنه سأل الله عز وجل تحقيق الظن, وسأل الله عز وجل الإعانة والسداد فيما يعمد إليه من تصنيفه لهذا الكتاب, فإن من توكل على الله عز وجل فهو حسبه, ومن اعتمد عليه كفاه جل وعلا, وهذا من المواضع الباطنة التي لها أثر كبير على الأمور الظاهرة, وأن الإنسان كلما كان أكثر توكلاً وتعبداً قلبياً في الباطن لله سبحانه وتعالى كفاه الله عز وجل ذلك, لهذا يقول الله جل وعلا في كتابه العظيم: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ [الزمر:36], يعني: أن الله عز وجل يكفي عبده بقدر عبوديته له, ولهذا يقول النبي ﷺ كما جاء في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة: (قال الله عز وجل: من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة, يقول الله عز وجل: فلا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه, فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به, وبصره الذي يبصر به, ويده التي يبطش بها, ورجله التي يمشي بها, ولئن سألني لأعطينه, ولئن استعاذني لأعيذنه), وجاء في رواية وهي خارج الصحيح: (قال: فبي يبطش, وبي يمشي, وبي يسمع, وبي يبصر), فهذا تسديد من الله عز وجل, أي: أنك إذا كتبت سددت, وإذا توقفت سددت حتى في التوقف, فيسدده الله عز وجل في سمعه فلا يسمع إلا حقاً, ويسدده في بصره فلا يبصر إلا حقاً, وكذلك في مسيره, وكذلك أيضاً في بطشه وضربه فيسدد فيما يأتي ويذر, ولهذا نقول: إنه ينبغي للإنسان أن يعتمد على الله عز وجل, وأن يكثر من ذلك, فهذا من أجل مواضع العبادة.

التعريف بأصحاب الحديث

قال المؤلف رحمه الله: [قلت وبالله التوفيق: أصحاب الحديث حفظ الله أحياءهم ورحم أمواتهم!].

هنا يقول المصنف رحمه الله: (أصحاب الحديث), والمراد بذلك هو حديث النبي ﷺ, وهنا عمد المؤلف إلى الكلام على أصحاب الحديث ولم يقل: أهل القرآن أو أصحاب القرآن؛ لأن سنة النبي ﷺ وحديثه المروي عنه هو أكثر تفصيلاً، وهو بيان لكلام الله سبحانه وتعالى، وهو وحي, وسنة النبي ﷺ وحي من الله عز وجل أنزله على نبيه عليه الصلاة والسلام, ولهذا يقول الله جل وعلا في كتابه العظيم: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ [النجم:3-4]، فالسنة وحي أنزله الله عز وجل على رسوله صلى الله وسلم كما أنزل الله عز وجل بواسطة جبريل القرآن, ولهذا يقول حسان بن عطية : إن جبريل نزل على رسول الله ﷺ بالسنة كما نزل عليه بالقرآن. وقد روى الخطيب البغدادي في كتابه الكفاية من حديث أحمد بن زيد بن هارون قال: إنما هي -يعني: سنة النبي ﷺ- صالح عن صالح, وصالح عن تابع, وتابع عن صاحب, وصاحب عن رسول الله, ورسول الله عن جبريل, وجبريل عن الله.

ولهذا يقول الله جل وعلا في كتابه العظيم: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ [المائدة:67], يعني: رسول الله ﷺ إنما هو حامل رسالة, ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ ﴾ [النور:54], يعني: مبلغ رسالة وحاملها إلى الناس.

ولهذا نقول: إن كلام الله عز وجل وحي, وسنة النبي ﷺ وحي, ولهذا يقول الإمام الشافعي رحمه الله: السنة وحي يتلى. وقد قال ذلك أيضاً ابن حزم الأندلسي رحمه الله كما في كتابه الإحكام؛ أن سنة النبي ﷺ وحي, وكذلك أيضاً وحي يتلى كما يتلى القرآن, إلا أن أجر قراءة وتلاوة سنة النبي ﷺ تختلف عن كلام الله سبحانه وتعالى؛ باعتبار أن اللفظ والمعنى من الله عز وجل في

القرآن، وأن اللفظ من رسول الله ﷺ, والمعنى من الله جل وعلا في السنة, والهيبة في ذلك للحق ينبغي أن تكون سواء, والسنة هي قسيمة للقرآن.

ولهذا جعل الله عز وجل من أدب سماع سنة النبي ﷺ من الكمال ما ينبغي أن يكون كالكمال الذي يكون لكلام الله عز وجل, ولهذا يقول الله جل وعلا في كتابه العظيم: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات:2], يعني: أنه ينبغي للإنسان أن يتأدب عند سماع كلام رسول الله ﷺ وأن ينصت؛ لأن كلام النبي ﷺ وحي, والدليل على أن النبي ﷺ لا يقول كلاماً من تلقاء نفسه: أنه كان إذا سئل عن مسألة وكان لديه علم سابق أجاب, وإذا لم يكن لديه علم سابق من الله عز وجل أمسك حتى ينزل عليه الوحي, وقد أمسك النبي ﷺ عن جملة من المواضع ولم يجب السائل, وقد جاء في ذلك في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة و زيد بن خالد الجهني عليهما رضوان الله تعالى: (أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! إن ابني كان عسيفاً على هذا -يعني: أجيراً يرعى له غنمه- وإنه زنى بامرأته، فقيل لي: على ابنك القتل, ففديت ابني بمائة من الغنم ووليدة, فاقض بيننا بكتاب الله, فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله, فقضى رسول الله ﷺ، قال: أما الغنم والوليدة فرد عليك. وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام, واغد يا أنيس! إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها), فقال النبي عليه الصلاة والسلام: (لأقضين بينكما بكتاب الله), ومعلوم أن التغريب ليس في كلام الله عز وجل من القرآن, وإنما هو من سنة النبي ﷺ.

وقد جاء في الصحيح من حديث يعلى بن أمية : (أن النبي ﷺ لما كان بالجعرانة، وجاءه رجل عليه جبة، وقد تضمخ بالخلوق, فقال ذلك الرجل للنبي عليه الصلاة والسلام: يا رسول الله! ما تقول في رجل أهل بعمرة وتضمخ بخلوق وعليه جبة؟ فقال النبي ﷺ: وصوب نظره إليه ثم أطرق, فلما أطال خرج ذلك الرجل ثم رفع رسول الله ﷺ فقال: أين الرجل السائل عن العمرة؟ فأتي به, فقال النبي ﷺ: أما الجبة فانزعها, واغسل عنك أثر الخلوق, واصنع في عمرتك ما تصنع في حجك), فالنبي ﷺ ما أجابه؛ لأنه ليس لديه علم من الله عز وجل في ذلك الموضع, ثم انتظر فلما طال الأمر بذلك السائل ذهب ذلك السائل إلى سبيله, ثم ناداه النبي ﷺ لما نزل عليه الوحي, وهذا مصداق قول الله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ [المائدة:67]، وقوله: ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ ﴾ [النور:54], يعني: أنت حامل رسالة إلى الأمم, وهذا إذا كان حال النبي ﷺ, فينبغي للإنسان أن يعلم أنه ليس نائباً عن الله سبحانه وتعالى في كل شيء, بل هو مبلغ لرسالة الله عز وجل وليس له منة في ذلك, وأنه حامل وحي، والمنة في ذلك لله عز وجل على عبده أن سدده إلى شيء من معرفة الوحي, فكان مبلغاً ووريثاً لكلام رسول الله ﷺ.

ولهذا نقول: إن القرآن غائي, والمراد بغائي أي: يهتم بالغايات وألفاظ العموم, وما يسمى بالألفاظ الكلية وجوامع الكلم, وأما سنة النبي ﷺ فهي شاملة لهذا وشاملة لهذا, فهي غائية وكلية في كثير من المواضع, والأكثر في ذلك أنها تفصيلية.

وكلما كان الإنسان بسنة النبي ﷺ أبصر كان بمعرفة الحق أظهر وأبين, ولهذا يقول العلماء: إن الطائفة المنصورة والفرقة الناجية هم أهل الحديث؛ كما نص على ذلك غير واحد من العلماء؛ كعلي بن المدينيوالإمام أحمد رحمهما الله كما نقله عنهما الإمام الحاكم رحمه الله في معرفة علوم الحديث, فإن الإمام أحمد رحمه الله يقول: إذا لم يكونوا أهل الحديث هم فلا أدري من هم؟! باعتبار أنهم أعرف الناس بسنة النبي ﷺ، وأعرف الناس بالتفصيليات, ولهذا إنما ظهرت البدع لأن أهلها استدلوا بشيء من المجملات في كلام الله عز وجل فضلوا في أصول الإيمان, وكذلك في فروعه.

وفي قوله رحمه الله: (أصحاب الحديث حفظ الله تعالى أحياءهم ورحم أمواتهم), فهو هنا ذكر الأموات وذكر الأحياء؛ باعتبار أن أهل الحديث ليسوا في هذا الجيل فقط الذين هم على هذا المنهج, بل أيضاً حتى في الجيل الغابر؛ أن منهجهم في ذلك على حد سواء, وأهل الحديث هم الذين يتبعون سنة النبي ﷺ, وكذلك أيضاً يميزون صحيحها من ضعيفها, أما الذي يأخذ الحديث ولا يدري الصحيح من الضعيف فإن هذا ليس من أهل الحديث, فهذا إنما يتلفظ ما يأتي إليه, وربما وقع إليه شيء من الأدلة الواهية فعمد إليها, فاستخرج منها حكماً مخالفاً لأمر الله سبحانه وتعالى.

عقيدة أهل الحديث في الشهادة لله بالوحدانية

قال المؤلف رحمه الله: [يشهدون لله تعالى بالوحدانية].

قوله: (يشهدون لله بالوحدانية), المراد بالشهادة هنا هو الإخبار عما في القلب, فيقول فلان: أشهد على كذا, أي: أخبر عما في قلبي على لساني, فهو يجري ما في قلبه على لسانه, وهذا معنى الشهادة, ولهذا يقال: ائت بشاهد يشهد على هذا, أي: يوجد الأمر في قلبه ثم يجريه على لسانه, فيقول: شهدت بكذا, ولهذا العلماء يقولون: إن الإنسان إذا عاين شيئاً لابد أن يخبر عما في قلبه حتى لا يظن أنه فهمه على غير مراده, وذلك إما بتلفظه فيقول: أشهد على كذا، أو بكتابته بالإخبار عما في قلبه.

يقول هنا: (يشهدون لله بالوحدانية), فالله سبحانه وتعالى واحد فرد, كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص:1]، ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن:18], والله سبحانه وتعالى واحد في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته, ومن ذلك اشتق لفظ التوحيد, ولفظ التوحيد على هذا التركيب لم يرد في كلام الله، ولا كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم, وإنما جاءت مصادره في ذلك, وجاء في كلام رسول الله ﷺ كما جاء في الصحيح من حديث أبي معبد عن عبد الله بن عباس: (أن النبي ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن قال: إنك تأتي قوماً أهل كتاب, فليكن أول ما تدعوهم إليه إلى أن يوحدوا الله).

ويظهر لي –والله أعلم– أن هذه الرواية رويت بالمعنى, وأن الأرجح في هذا هو ما جاء أيضاً في حديث أبي معبد عن عبد الله بن عباس : (أن النبي ﷺ قال: إنك تأتي قوماً أهل كتاب, فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله, وأن محمداً رسول الله), فاختصر هذه الرواية بالشهادة بالتوحيد, وهذا أيضاً من فقه الإمام البخاري رحمه الله أنه أتى بهذه الرواية في كتابه

الصحيح، وقد ذكر هذا الحديث في عدة مواضع من كتابه الصحيح، منها في كتاب التوحيد في كتابه الصحيح, إذاً فالمراد بالتوحيد هو الشهادتان: شهادة أن لا إله إلا الله, وأن محمَّداً رسول الله.

ولا إله إلا الله معناها: لا معبود بحق إلا الله, وذكر هذا المعنى ابن جرير الطبري رحمه الله؛ أن معنى لا إله إلا الله أي: لا معبود بحق إلا الله, وقوله: (إله), الإله أي: المعبود, على أحد المعاني, وقيل: إن الله لفظ الجلالة سبحانه وتعالى هو اسم الله عز وجل الأعظم, وهذا هو الأشهر, وإن كان لا يثبت في ذلك شيء، إلا أن الثابت في ذلك عن جماعة من السلف كمجاهد بن جبر وغيره أن هذا هو اسم الله الأعظم؛ باعتبار أنه يتضمن جملة من المعاني لا تقع في غيره, فقولنا: يشهدون لله عز وجل بالوحدانية, والله سبحانه وتعالى هو المعبود جل في علاه سبحانه وتعالى.

واختلف في اشتقاق هذا اللفظ؛ منهم من قال: إنه مشتق في ذلك, وهذا هو الأشهر, واختلف في اشتقاقه, وأشهر وجوه الاشتقاق أنهم يقولون: إنه مشتق من أله أي: عبد, ولهذا يقول الشاعر:

لله در الغانيات المدَّهِ سبحن واسترجعن من تأله

يعني: من تعبد.

ومنهم من قال: إنه مشتق من العلو والارتفاع, يقال: لاه كذا أي: ارتفع, وكانت العرب تسمي الشمس: آلهة, يعني: مرتفعة, ولهذا يقول الشاعر العربي:

تروحنا من الدهناء عصراً وأعجلنا الإلهة أن تغيب

يعني: استعجلنا قبل غروب الشمس أن نصل إلى مقصدنا, ومنهم من قال: هو البقاء والدوام وعدم التغير, ولهذا يقول الشاعر:

ألهت بدار لا تبين رسومها كأن بقاياها وشام على اليد

ومنهم من قال: هو الاستتار والخفاء؛ وذلك أن الإنسان يخفى عليه من علم الله عز وجل أكثر مما يعلمه, والله سبحانه وتعالى قد حجب نفسه عن عباده في هذه الدنيا، وجعل رؤيته سبحانه وتعالى في الآخرة, ويستدلون أيضاً بقول الشاعر في معشوقته:

لاهت فما عرفت يوماً بخارجة يا ليتها خرجت حتى رأيناها

لاهت يعني: اختفت, ويريد من معشوقته أن تظهر له, يقول:

لاهت فما عرفت يوماً بخارجة يا ليتها برزت حتى رأيناها

ومنهم من قال: إن الاشتقاق بلفظ الجلالة الله أنه من أَلِه أي: التجأ, وهو من الالتجاء لله سبحانه وتعالى, ولهذا يقول الشاعر:

ألهت إليكم في أمور تنوبني فألفيتكم منها كراماً أماجدا

ألهت إليكم أي: التجأت إليكم, والذي يظهر لي والله أعلم: أن لفظ الجلالة الله يشتق من مجموع هذه المعاني الجليلة, وأظهرها هو العبودية لله سبحانه وتعالى, وهذا ظاهر في قول الشاعر:

لله در الغانيات المدَّهِ سبحن واسترجعن من تأله

يعني: من تعبد, ولهذا نقول: إنه ينبغي للإنسان أن يعلم أن الله سبحانه وتعالى إنما جعل تحقق توحيده جل وعلا لا يجري على ما في القلب مجرداً, وإنما لابد أن يكون على ما في اللسان وعمل الجوارح, ولهذا قال: (يشهدون) أي: يجري على ألسنتهم ما يجري في بواطنهم من أعمال القلوب بالوحدانية, أي: أنه سبحانه وتعالى فرد جل وعلا في الربوبية والألوهية، وكذلك أيضاً في أسمائه وصفاته, والذين يثبتون حق الله عز وجل في العبادة هم عامة أهل الأرض, ولكن وحدانيته بهذا الحق هو الذي يضل فيه كثير من الناس, يقولون: الله عز وجل معبود, لكنه معبود وحده أو معبود مع غيره.

ولهذا يقول: يشهدون لله بالوحدانية أي: بالتفرد بحقه سبحانه وتعالى, ولهذا يقول النبي ﷺ كما جاء في حديث معاذ: (قال: ما حق العباد على الله؟ وما حق الله على العباد؟ قال: حق الله على العباد أن يعبدوه, -هل هو مجرداً؟ لا- لا يشركون به شيئاً), ولهذا نقول: إن قول النبي ﷺ: شهادة أن لا إله إلا الله وأن مُحَمَّداً رسول الله -في حديث معاذ بن جبل - إشارة إلى نفي كل شريك له سبحانه وتعالى في عبوديته جل في علاه في أنواع الشراكة, فإذا تحقق ذلك تحقق حينئذ توحيد الإنسان لربه جل وعلا.

عقيدة أهل الحديث في الشهادة للنبي ﷺ بالنبوة والرسالة

قال المؤلف رحمه الله: [وللرسول ﷺ بالرسالة والنبوة].

قوله: (ولرسول الله ﷺ بالرسالة والنبوة), هذا جامعه قوله ﷺ كما جاء في حديث معاذ بن جبل ؛ (قال: أن يشهدوا أن لا إله إلا الله, وأن مُحَمَّداً رسول الله), أي: أن يشهدوا بهاتين الشهادتين؛ إفراد الله عز وجل بالعبودية, وكذلك أيضاً أن مُحَمَّداً رسول الله ﷺ هو صاحب الرسالة.

وهنا سؤال: لماذا نقول: لابد من الشهادتين, وأن الإنسان لا يكتفي أن يشهد بأن الله عز وجل واحد في عبوديته؛ بل لابد أن يشهد أن مُحَمَّداً رسول الله؟ نقول: إن الإنسان إذا أفرد الله عز وجل بعبوديته وحده؛ فكيف تتحقق له تلك العبودية إلا بمعرفة

الرسالة, وهذه الرسالة جاء بها رسول الله ﷺ, فإنه إذا أفرد الله سبحانه وتعالى بالعبادة، ولم يكن عارفاً لهذه العبادة التي يفرد الله عز وجل بها؛ فإنه سيأتي بعبادة لم ينزل الله عز وجل بها من سلطان, ولهذا أفرد الله عز وجل بالعبادة، وأفرد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرسالة, لا يشاركه في زمنه، وما جاء بعده أحد من الأنبياء بالنبوة في ذلك, ولهذا نقول: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم رسول من الله أرسله الله عز وجل.

وجعل للنبي ﷺ جملة من الخصائص.

من هذه الخصائص: أن الله عز وجل أرسله إلى الناس كافة, ولهذا يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ:28].

وكذلك أيضاً من خصائص رسول الله ﷺ أنه لا نبي بعده, كما جاء في الخبر قال: (لا نبي بعدي).

وأرسله الله عز وجل إلى جميع الأجناس, ويخاطب الله عز وجل فيه الثقلين الإنس والجن, يقول الله جل وعلا: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:56], وغير ذلك من خصائص النبي ﷺ مما يتعلق بماهية الرسالة.

وثمة أيضاً من خصائص النبي ﷺ في ذاته، وكذلك في بعض أحكام شريعته من أن الله عز وجل جعل له الأرض مسجداً وطهوراً, وخصه الله عز وجل بجملة من الخصائص في ذاته, منها لواء الحمد والوسيلة, وغير ذلك من خصائص النبي ﷺ التي ليس هذا موضع بسطها, ولكن نقول: إنه ينبغي للإنسان أن يعلم أن الله سبحانه وتعالى أمره بأن يشهد أن لا إله إلا الله، وأن مُحَمَّداً رسول الله, أي: لا تتحقق الشهادة الأولى، وهو إفراد الله عز وجل بالعبودية إلا بالإقرار برسالة مُحَمَّد ﷺ, أي: أن العبادة التي تفرد الله عز وجل بها يأتيك بها مُحَمَّد ﷺ, لا تبتدع عبادة من عندك فتقع حينئذ في التشريع من دون الله عز وجل, فتقع في الكفر بعد أن أفردت الله عز وجل في هذا الباب.

نقف عند هذا الحد, وصلى الله وسلم على نبينا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلم.

الدرس الثالث

أصحاب الحديث يؤمنون بأسماء الله وصفاته، كما وردت في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ, سواء صفاته الذاتية كالوجه والساق واليدين, أو صفاته الفعلية كالغضب والرضا, ويجرونها على ظواهرها من غير تحريف، ولا تمثيل، ولا تكييف, ولا تعطيل.

إثبات أسماء الله وصفاته مردها إلى الوحي

قال المؤلف رحمه الله: [ويعرفون ربهم عز وجل بصفاته التي نطق بها وحيه وتنزيله، أو شهد له بها رسوله ﷺ, على ما وردت الأخبار الصحاح به، ونقلت العدول الثقات عنه].

هنا يبين المؤلف أن ما يتعلق بأسماء الله عز وجل وصفاته أن مردها في ذلك إلى الوحي أي: إلى كلام الله سبحانه وتعالى وكلام رسول الله ﷺ؛ باعتبار أن الأسماء والصفات من أمور الغيب, وليست من أمور المشاهدة التي يكتسبها الإنسان بحواسه, ومن المعلوم أن حواس الإنسان ست؛ وهي: السمع، والبصر، والشم، والذوق، واللمس، والإدراك؛ فالإنسان يعلم أنه حزين أو فرحان بنفسه القائمة في ذاته, إذاً فهي مصدر من مصادر المعرفة, فالإنسان يعرف الحزن والخوف والحب من معنى قائم في نفسه, فهي من مصادر العلم.

وهل الإنسان في ذلك يعرف أسماء الله عز وجل وصفاته بمجرد هذه الحواس أم لابد من إخبار صاحب غيب؟ نقول: لابد من إخبار صاحب غيب, ولهذا نقول: إن معرفة أسماء الله عز وجل وصفاته لابد فيها من وحي, ولهذا ينبغي للإنسان أن يعلم أن الله عز وجل إنما خلق الإنسان، وجعل له هذه الحواس، وهي منافذ إلى العلم وليست بعلم بذاتها, وإنما هي منافذ إلى الإنسان, تعطي قلب الإنسان علم الخارج عنه, وأما في ذاتها فهي ليست من مواضع العلم, وأما ما يجعله الله عز وجل في نفس الإنسان، وكذلك في قلبه وعقله من تحليل المعلومات وتركيبها فهذه موهبة يجعلها الله عز وجل في الإنسان, ويتباين فيها الناس.

ولهذا نقول: إن الأسماء والصفات مردها إلى السمع, أي: أنه لابد أن يرد في ذلك وحي؛ والعلماء يقولون: إن مردها إلى السمع باعتبار أنها لا يمكن أن ترى في الدنيا؛ لأن الله عز وجل جعل ذلك لأهل الإيمان في الآخرة, فمردها إلى سماع الإنسان, فيستوعب الإنسان من ذلك حكماً ثم يجريه على ما سمعه من غير زيادة ولا نقصان.

قال المؤلف رحمه الله: [ويثبتون له ﷻ ما أثبت لنفسه في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ].

ولا يخرجون عن هذين, فيثبتون ما أثبته الله عز وجل لنفسه في كتابه, ورسوله ﷺ في سنته, ولا يخرجون عن شيء من هذا, ولكن ثمة كلام لبعض العلماء فيما يتعلق فيما يروى عن الصحابة عليهم رضوان الله تعالى في الأسماء والصفات؛ فهل يجرى مجرى السنة أو لا يجرى عليه؟

من العلماء من يقول: إنه ينظر في ذلك بحسب حال الصحابي, فإذا كان الصحابي ممن يأخذ عن أهل الكتاب فإنه لا يجري مجرى السنة, وإذا كان لا يأخذ عن أهل الكتاب فإنه يجري مجرى السنة, ونقول في ذلك: إنه بحسب منزلة ذلك الصحابي؛ لأن الصحابة عليهم رضوان الله تعالى يجتهدون، واجتهادهم في ذلك محتمل للأمرين, وإن كانوا للصواب أكثر حظاً ممن يأتي بعدهم من غيرهم, إلا أن الأسماء والصفات مردها إلى الدليل من كلام الله عز وجل, وكلام رسول الله ﷺ.

نفي اعتقاد التشبيه لصفات الله تعالى

قال المؤلف رحمه الله: [ولا يعتقدون تشبيهاً لصفاته بصفات خلقه].

لأن التشبيه لابد فيه من معرفة الأصل وشبيهه, والله عز وجل قد نفى لنفسه المثيل والشبيه, ولهذا الله عز وجل يقول: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ [الشورى:11], وهذه فيها إثبات ونفي؛ نفي للمثيل والشبيه له جل وعلا, وإثبات لصفات خاصة به سبحانه وتعالى, فقال: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى:11], ومن هذا الشيء السمع والبصر, أي: أن سمع الله عز وجل وبصره وغير ذلك من صفاته أنها صفات خاصة بالله عز وجل, وينبغي أن نعلم أن ذهن الإنسان إنما يحكي مشابهة لما يعلمه من أحوال الناس مما يراه, ولهذا الله عز وجل إنما نفى التشبيه حتى لا يتسلسل الأمر في أذهان الناس, ولهذا نقول: إذا كان الإنسان لم ير الله عز وجل فكيف يوجد له شبيه وهو لم يره, والله عز وجل ليس له مثيل.

ولهذا الإنسان إذا سمع شيئاً تذكر حادثة نظير تلك الحادثة, فإذا قيل: إن فلاناً جرح في يده, تخيل الإنسان نوع جرح قد مر عليه, أو إذا قيل له: إن فلاناً قد أصيب بحادث؛ تخيل نوعاً من الحوادث، فإذا عاين الحادثة أو عاين ذلك الجرح وجد أن الأمر على خلافه؛ لأنه يحكي على أمره الذي هو عليه, فمثلاً: إذا كنت تحدث أناساً من العرب متنوعين: مثلاً: عربي من أهل اليمن، وعربي من أهل العراق, وعربي من أهل الحجاز, وعربي من أهل مصر؛ تحدثهم بشيء من الحوادث وقلت لهم: إني دخلت على فلان، وعنده ثلاثة نفر، وهم يأكلون الطعام, ستجد رجلاً يتخيل أولئك الذين يأكلون أنهم على الأرض, ورجلاً يتخيل أنهم على طاولة, وشخصاً يتخيل أنهم يأكلون بملعقة, وشخصاً يتخيل أنهم يأكلون بأيديهم, فكلٌ على ما يجري مما اعتاد عليه, فهو شبه تلك الحال على أمر قد انقدح سابقاً في ذهنه, ولهذا الله عز وجل حينما يقول: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى:11], يعني: لا يوجد مثال قد رأيته قبل ذلك.

ولهذا نقول: إن الإنسان كلما خطر في باله أن الله كذلك فالله غير ذلك؛ لأن عقل الإنسان مرآة تحفظ صوراً, فإذا سمعت حوادثاً فإن أقرب الصور حضوراً هي أقربها تشبيهاً, ولهذا نقول: إنه ينبغي للإنسان أن يثبت أسماء الله عز وجل وصفاته له من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تكييف, والتكييف في ذلك أن الإنسان لا يعرف المثال أصلاً؛ فكيف يكيفها وهو لم يعرف حقيقتها.

أقسام صفات الله سبحانه وتعالى

قال المؤلف رحمه الله: [ولا يعتقدون تشبيهاً لصفاته بصفات خلقه, فيقولون: إنه خلق آدم بيده، كما نص سبحانه عليه في قوله عز من قائل: ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص:75], قال: ولا يحرفون الكلام عن مواضعه].

يثبتون لله سبحانه وتعالى صفاته جل وعلا, وصفات الله سبحانه وتعالى على نوعين: صفات ذاتية, وصفات فعلية.

فالصفات الذاتية هي: اللازمة له سبحانه وتعالى, والصفات الفعلية هي: التي يفعلها الله عز وجل متى شاء.

والصفات الذاتية كالسمع, والبصر, واليد, والساق, والقدم, والإصبع له سبحانه وتعالى, فنثبتها كما وردت, ولا نشبه ولا نكيف ولا نمثل.

وأما الفعلية فهي التي يفعلها الله عز وجل متى شاء, وهذه كثيرة, مثل: الغضب، والرضا، والمحبة، والسخط, وغير ذلك من صفات الله سبحانه وتعالى, وهي صفات فعلية, وكذلك بطش الله عز وجل وغير ذلك.

سبب ضلال أهل البدع في أسماء الله وصفاته

قال المؤلف رحمه الله: [ولا يحرفون الكلم عن مواضعه, بحمل اليدين على النعمتين أو القوتين].

أصل التحريف عن المواضع التي أرادها الله سبحانه وتعالى: أن الإنسان في ظاهر أمره أنه يريد من ذلك تنزيهاً لله جل وعلا, وينبغي أن نعلم أن الإنسان إذا حل عقدة التشبيه والتمثيل الواردة في ذهن الإنسان فطرة في مسألة الأسماء والصفات انحلت كل مشاكل البدع الواردة عنده, وعند كثير من الطوائف أيضاً, فنقول: الإنسان لا يمكن أن يوجد علماً غائباً, وإنما هو يركب بين العلوم الموجودة في الكون, ويركب بين هذه الموجودات؛ وذلك كحال المادة الموجودة التي يوجدها الإنسان, فالإنسان مثلاً في الكأس؛ وهذه المادة هي موجودة في الأرض، ولكن الإنسان ركب بينها ثم ألف بينها، كذلك أيضاً المعلومات لا يمكن للإنسان أن يوجد علماً معدوماً, وإنما معلومات يجمع بينها, وكلما كثرت الأجزاء أوجد شكلاً، وظن أنه بديعاً، ولم يسبق إليه، ولم يسبق إلى هذا الشكل, ولكن سبق إلى إيجاد أجزائه.

وأما ما يتعلق بأسماء الله عز وجل وصفاته فقد نفى الله عز جل إمكان علم الإنسان كله, ولهذا الله عز وجل يقول: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ [الشورى:11].

إذاً: إنما ضل من ضل في مسألة تعطيل أسماء الله عز وجل؛ لأنه قد انقدح في أذهانهم معان سيئة, أو يلزم منها معنى سيئاً مناقضاً أو لا يستقر, ولهذا تجد مثلاً الذين ينفون نزول الله عز وجل إلى السماء الدنيا، يتساءلون في أذهانهم قبل, ويقولون: إذا نزل إلى السماء الدنيا خلا عرشه، والله مستو على عرشه, وإذا نزل إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل، فإن الثلث الأخير يتقلب من بلد إلى بلد فيبقى نازلاً, وهذا ينفي الاستواء, وهذا الذي دفعه إلى ذلك, وهو أنه ينظر إلى الإنسان إذا نزل من الدور الثاني إلى الأول خلا منه الدور الثاني, وهذا تشبيه.

إذاً: العقدة هذه هي مرحلة الانعطاف في الضلال, ولهذا إذا طرأ في ذهن الإنسان شيء من هذه اللوازم فإن عليه أن ينفيها؛ لأن الإنسان داخل إطار من المعلومات، وهو في هذا الكون لا يؤمن بغيره, ولهذا على سبيل المثال في الكأس يقول: إنه إذا رماه الإنسان فإنه يسقط إلى أسفل, هذا يتبادر إلى ذهنه, ولا يخطر في بال الإنسان أنه إذا وضع شيئاً أنه لا يسقط، وإنما يستمر ويمضي؛ لأنه داخل عجلة, ولكن اكتشف أنه إذا كان خارج الجاذبية ووضع شيئاً مضى إلى غير هذا الاتجاه.

لهذا نقول: إن ذات الإنسان في نفسه مما يكسبه الإنسان من معلومات، وما يعرفه في حال الناس فيستنكر ما غيره, والمعلومة التي بين يديه يقوم بحرفها, لهذا إنما كفر من كفر من الأمم؛ بسبب أن ما وجدوه من النصوص يخالف ما في أذهانهم فجحدوا, فكفار قريش مثلاً لما أخبرهم النبي ﷺ أنه أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثم رجع في ليلته كفروا بذلك؛ لأن هذا الأمر محال, ولكنه في زماننا هذا ليس بمحال، ولكن الإنسان ليس كل ما يشاهده في ذاته أنه كل القدرة التي جعلها الله عز وجل للإنسان، فكيف بالقدرة الغائبة التي هي ليست للإنسان, لهذا نقول: إن سبب ضلال الإنسان في تعطيله لأسماء الله عز وجل وصفاته أنه يضل في هذا الباب في مسألة التشبيه, فيمر في باب التشبيه، ثم يقع في شيء من الابتداع في دين الله سبحانه وتعالى, ولهذا عليه أنه إذا تفكر أو خطر في باله أن الله عز وجل على هذا النحو، أو على هذه الصفة فليعلم أن الله عز وجل على خلاف ذلك؛ لأنه لا يرتسم في ذهنك إلا صورة قد جربتها، أو سمعت عنها، أو رأيتها, فالله عز وجل على خلاف هذا سبحانه وتعالى.

ضلال الفرق المنحرفة في صفة معية الله عز وجل لعباده

وكذلك أيضاً ما يتعلق بمعية الله عز وجل مع عباده، منهم من غلا في هذا الباب, فمنهم من نفى علو الله سبحانه وتعالى؛ لأنه رأى بزعمه أن الله عز وجل إذا كان معنا أينما كنا، وإذا كان ينزل إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل، فهذا ينفي الاستواء الذي هو علو الله سبحانه وتعالى على عرشه, واستواؤه جل وعلا عليه, فقالوا: إن الله عز وجل في كل مكان, والتزموا بلوازم في ذلك باطلة, منها ما كان بإحسان ظن، وإن خالفوا الحق في ذلك حتى غلب عليهم الباطل المحض، والتزموا ذلك الطريق, حتى إنهم لما سئلوا: أين الله عز وجل؟ قالوا: في كل مكان, وإذا قيل: في كل مكان هل يستثنى منه مكان أم لا يستثنى؟ قالوا: لا يستثنى منه مكان, وإذا قالوا: لا يستثنى منه مكان فالحشوش التي هي مواضع النجاسات هل تستثنى من الله عز وجل؟ قالوا: لا تستثنى؛ لأنهم لابد أن يلتزموا في ذلك, فإذا قالوا: إنها لا تستثنى؛ فهل مواضع النجاسات العينية كالجيف وغير

ذلك هل الله عز وجل يوجد فيها –عافانا الله عز وجل من أمثال هذه الأقوال–؟ يقولون: إن الله عز وجل في كل مكان حتى في أمثال هذه المواضع, فالتزموا بكثير من اللوازم حتى جاءت عقيدة الحلول؛ وهي: أن الله حال في كل مكان, فكل عقيدة تنتج عقيدة؛ والسبب في ذلك هو عقيدة الضلال, ولهذا نقول: إن عقائد الضلال إذا كانت بوابتها خاطئة فإنها تفضي إلى أنواع من الضلال, والذي يسير على عقيدة حق في ذلك يغلق منافذ تسلسل الضلال.

والرافضة إنما كان ابتداع ضلالهم في ذلك هي عصمة الأئمة, وأن ما يقولونه وحي عن الله سبحانه وتعالى, فكان الإمام الأول, ثم الثاني, ثم الثالث, ثم تفاجئوا أن آخر الأئمة لم يولد له ولد, واصطدموا, فإما أن يرجعوا عن تلك العقيدة الباطلة التي مرت على قرون أو يمضوا عليها, فمضوا عناداً على ذلك, وابتكروا مسألة الغيبة, فجعلوا المهدي في السرداب, وأخذوا يأخذون عن مسألة الغيبة, والأصل في ذلك هي عقيدة فاسدة, ولهذا لا أسلم من العقيدة التي يأخذها الإنسان من كلام الله، وكلام رسول الله ﷺ، ويتوقف عن مزيد في ذلك من تشبيه أو تمثيل أو تكييف أو غير ذلك, ولهذا نقول: هذا هو الحق الذي أمر الله عز وجل باتباعه وسلوكه.

إثبات الوجه واليدين لله عز وجل

قال المؤلف رحمه الله: [ولا يحرفون الكلم عن مواضعه بحمل اليدين على النعمتين أو القوتين].

فيثبتون صفة اليد لله سبحانه وتعالى ولا يقولون: هي النعمة، أو الرحمة، أو القدرة، أو غير ذلك, بل نجريها على ما هي عليه, فهي يد حقيقة, أما كيفيتها وصفتها فهي إلى الله سبحانه وتعالى؛ لأننا لا نشبه ولا نكيف إلا ما رأينا, ولم نر الله سبحانه وتعالى, والله عز وجل يقول عن نفسه: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى:11], ولا أعلم بالله عز وجل منه سبحانه وتعالى, ولهذا نقول: إن بعض المواضع في كلام الله عز وجل حملها بعضهم على أنها تأويل وليست بتأويل.

وبعض الذين يؤولون يقولون: إن بعض السلف أوَّلوا بعض الصفات؛ وذلك كقول الله عز وجل: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ [البقرة:115], وفي قول الله عز وجل: ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ ﴾ [الذاريات:47], قالوا: هذا جاء بقوة عن عبد الله بن عباس وغيره, قال: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ [البقرة:115], قال: جهته وناحيته, فهل هذا تأويل أم ليس بتأويل؟ نقول: هذا ليس بتأويل؛ لأنهم لا يرون أن هذه الآية من الصفات, كذلك أيضاً في قول الله عز وجل: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ ﴾ [القلم:42], قالوا: إن هذه الآية ليست من آيات الصفات عند عامة المفسرين من السلف, ولكن صفة الساق لها موضع آخر، وقد جاء في ذلك بعض الأحاديث عن النبي ﷺ, جاء من حديث عبد الله بن مسعود , وجاء أيضاً من حديث أبي سعيد الخدري وغيرها من الأحاديث عن رسول الله ﷺ, ولهذا نقول: إن ما يرد في قول الله عز وجل مثلاً: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ [البقرة:115], أن المراد بذلك هي الجهة, وليس المراد بذلك هي صفة الوجه له سبحانه وتعالى؛ فهذا ليس بتأويل؛ لأن وجه الله عز وجل يثبته السلف في آيات أخر, مثل قوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [القصص:88], فصفة الوجه له سبحانه وتعالى ثابتة، وفي الحديث: (لا يسأل بوجه الله إلا الجنة), فصفة الوجه لله

سبحانه وتعالى ثابتة, ويثبتها السلف, ولكن في مثل هذا الموضع لا يرون أن هذه الآية من آيات الصفات, وإن كانوا يقولون: إن الناحية أو الجهة إذا جاءت في مثل هذا السياق لا تكون إلا لمن له صفة الوجه, وهذا لازم للصفة وليس هو الصفة بذاته.

أنواع تحريف الكلم عن مواضعه

وقول المؤلف رحمه الله: (ولا يحرفون الكلم عن مواضعه). تحريف الكلم عن مواضعه على نوعين: تحريف حروف, وتحريف معاني, فتحريف الحروف: أن يقوم الإنسان بتغيير اللفظ, وهذا ما غلب على النصارى, أما تحريف المعاني فهذا ما غلب على اليهود, ولهذا نقول: إن التوراة هي أصح لفظاً من الإنجيل, ولكن التوراة أبعد بصحة المعنى الثابت لليهود من الإنجيل, والإنجيل وإن كان فيه الألفاظ محرفة أكثر من التوراة إلا أنه من جهة المعاني أصح من التوراة, ولهذا من حرف اللفظ ففيه شبه من النصارى, ومن حرف المعاني ففيه شبه من اليهود, والذي يحرف المعنى مع ثبوت اللفظ أشد خطراً وأعظم ممن يحرف اللفظ؛ لأن الحجة في اللفظ قائمة على الأمم, ثم يقومون بالمكابرة, أما الذي غير اللفظ الأول وبقيت الأمم بعد ذلك معتمدة على لفظ محرف, فالحقيقة غائبة ولا يمكن الوصول إليها, ولهذا كان العناد في اليهود أكثر من النصارى؛ لأن الحرف عند اليهود أصح من النصارى ومع ذلك يكابرون بقلب معناه, بخلاف النصارى فإن اللفظ لديهم حرف وتبعه في ذلك المعنى فكانت الحجة, وكذلك المعاني عند المتأخرين أكثر بعداً من أتباع اليهود.

نقف عند هذا الحد, وصلى الله وسلم على نبينا مُحَمَّد, وعلى آله وصحبه أجمعين.

الدرس الرابع

أهل السنة يثبتون لله ما أثبته لنفسه أو أثبته له رسوله من أسماء وصفات, إثباتاً لا يتضمن تكييفاً ولا تشبيهاً ولا تمثيلاً ولا تعطيلاً, بل يجرونها على ظواهرها, ومن تلك الصفات: صفة الكلام, فهو سبحانه لم يزل متكلماً, والقرآن الكريم هو كلامه وقوله غير مخلوق؛ لأنه صفته, والصفة تابعة للموصوف, فمن اعتقد أنه مخلوق فهو كافر, لا يصلى عليه ولا يدفن في مقابر المسلمين.

مسائل متعلقة بتوحيد الأسماء والصفات

تقدم معنا عقيدة أهل السنة والجماعة في مسائل الأسماء والصفات أنهم يثبتونها لله سبحانه وتعالى, وهذا الإثبات لا يتضمن تكييفاً ولا تشبيهاً ولا تمثيلاً, وكذلك فإنهم لا يجعلون الصفات معطلة من جهة المعنى بلا حقيقة, بل يثبتونها ويثبتون لها حقيقة, وكذلك يثبتون أثرها, ولكن لا يكون ذلك بتكييف, ولا بتمثيل, ولا بسؤال عن كيفية, ولهذا اتفق السلف الصالح من الصحابة والتابعين وأئمة الإسلام عن النهي عن ذلك؛ أي: عن السؤال عن الكيفية, وقد جاء ذلك عن جماعة؛ كما جاء عن أسماء عليها رضوان الله, وجاء أيضاً عن ربيعة الرأي , وجاء عن الإمام مالكعليه رحمة الله: أن الاستواء معلوم, والكيف مجهول, والسؤال عنده بدعة. وإنما كان السؤال عنه بدعة باعتبار أن السبيل الموصل إلى معرفته معدوم؛ وذلك أن الله عز وجل نفاه, فهو يسأل

عن شيء من العلم معدوم قد نفاه الله جل وعلا, ولا تحقق للإنسان بالوصول إليه, ولهذا قال الله عز وجل: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ [الشورى:11], فالله سبحانه وتعالى لا يرى في الدنيا وإنما يرى في الآخرة, وإذا كان لا يرى في الدنيا, وقد نفى الشبيه له؛ فحينئذ لا يمكن أن يتحقق للإنسان معرفة الصفة على الكيفية التي هي عليها.

مناهج أهل البدع في أسماء الله وصفاته

وأما مناهج أهل البدع والضلال في ذلك فإنهم على طوائف:

الطائفة الأولى: المعطلة, وهذه الطائفة هي التي عطلت صفات الله عز وجل؛ وذلك لأنه انقدح في أذهانهم شيء من المعاني الفاسدة من لوازم التشبيه أو التشبيه في ذاته, فنفوا صفات الله عز وجل, وعطلوها عن حقيقتها.

الطائفة الثانية: المثبتة, ولكنهم يشبهون الخالق بالمخلوق, فيجعلون لله عز وجل يداً, ولكنهم يقولون: كأيدينا, ويجعلون لله عز وجل سمعاً؛ ولكنهم يقولون: كسمعنا, ويجعلون لله عز وجل بصراً كبصرنا, وقدماً كقدمنا, وأصبعاً كأصبعنا, وغير ذلك من الصفات.

ولا شك أن الطائفتين هم من أهل الضلال في هذا؛ لمخالفتهم لظاهر كلام الله سبحانه وتعالى, فالله عز وجل في قوله: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ [الشورى:11], نفى وأثبت؛ فنفى الشبيه والمثيل, وأثبت الصفة له سبحانه وتعالى, فأثبت له جل وعلا السمع, وهو مشتق من اسمه جل وعلا السميع, وكذلك أيضاً اسمه البصير, اشتق لله عز وجل منه صفة البصر, ولهذا نقول: إن أهل السنة في ذلك يثبتون هذا ولا يكيفون, فيخالفون المعطلين من جهة الإثبات, ويخالفون ويفارقون أيضاً المشبهين من جهة التشبيه, فينفون تشبيه الله عز وجل بغيره من المخلوقين.

وتقدم الإشارة معنا أيضاً: أن الإنسان إذا حل مسألة التشبيه وما ينقدح في ذهنه, وأن إدراك الإنسان إنما يدور حول المحسوسات فإن التشبيه تابع لذلك, فإذا حل ذلك الأمر فإن لوازم تلك الصفات في ذلك منتفية عند الإنسان؛ وحينئذ لا يقوم بنفي الصفة أو جعل الله عز وجل شبيهاً لخلقه تعالى الله عز وجل عن ذلك علواً كبيراً.

منهج أهل السنة في مسألة اللوازم في إثبات صفات الله سبحانه وتعالى

ونجد طوائف من المنتسبين لأهل السنة من يجعل لوازم الصفة في ذلك لازماً لها, فيقوم بإثبات اللازم, لكننا نقول: إن الصفة تثبت على ما هي عليه, ويثبت لها الحقيقة, ويثبت لها الأثر, فنقول: إن لله عز وجل عيناً وسمعاً وبصراً ويداً وأصبعاً, وغير ذلك, ونثبت لها حقيقة, لكن هذه الحقيقة لا يعلمها إلا الله, ونثبت لها أثراً, وهذا الأثر لا نحيط به بجميعه وإنما ببعضه, فالله عز وجل بعينه يرى ويرعى ويحفظ ويكفي عباده سبحانه وتعالى, وكذلك فإن صفة الله عز وجل من جهة سمعه يسمع الله جل وعلا الأصوات على اختلافها, فهذا من آثار تلك الصفة, ولكن هذه الصفة لا نحيط بجميع آثارها, فنثبت ما بلغنا منها,

ونتوقف عن اللوازم الواردة في ذلك لكل صفة يدل الدليل عليها.

وأما ما جاء عن بعض الأئمة من المبالغة في مثل هذه الصفات, وجعل الصفة إذا ثبتت أنها تلزم لصفة أخرى ونحو ذلك, فنقول: هذا فيه نظر, فمثلاً: ما جاء في كلام بعض أهل العلم فيما يتعلق بالجسم لله سبحانه وتعالى, قالوا: وذلك أننا إذا أثبتنا صفة اليد لله عز وجل, وكذلك القدم والساق والأصبع وغير ذلك؛ فإنه يلزم من ذلك الجسم, فنقول: هذا قدر زائد, وحينئذ نتوقف عن إثباته ونفيه؛ لأن الإثبات والنفي يلزم من ذلك السمع, ولا دليل في هذا.

كذلك أيضاً إثبات صفة الشم كما في قوله عليه الصلاة والسلام: (لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من رائحة المسك), هل يلزم من ذلك إثبات صفة الشم؟ قال بهذا بعض أهل العلم, ولكننا نقول: إن هذا ليس بلازم؛ لأن الله عز وجل لم يذكر في كتابه ولا نبيه ﷺ هذه الصفة, وحينئذ لا نثبتها ولا ننفيها؛ باعتبار عدم ورود الدليل في ذلك, فلا ننفيها باعتبار أنها ليست بصفة نقص, ولا نثبتها لعدم وجود الدليل في ذلك.

وكذلك أيضاً ما يذكره بعض الأئمة من المنتسبين لأهل السنة, وهم ما يسمون بغلاة المثبتة -كالقاضي أبي يعلى وغيره- الذين يلتزمون ببعض اللوازم؛ فمثلاً: إثبات صفة الفم لله سبحانه وتعالى, وذلك أن الله عز وجل تكلم, فيلزم من ذلك إثبات صفة الفم وصفة الضرس وغير ذلك, فنقول: إنه ينبغي للإنسان أن يثبت الصفة إذا جاءت عن الله عز وجل, فالله متكلم سبحانه وتعالى كما شاء, وهل لنا أن نقول: إنه يلزم من إثبات صفة الكلام إثبات صفة الفم؟ نقول: إن هذا قدر زائد عن الإثبات, فلا نثبته لعدم وجود الدليل, ولا ننفيه لأنه ليس بصفة نقص, ولهذا نقول: إنه ينبغي للإنسان عند ورود دليل من كلام الله أو كلام رسوله ﷺ في إثبات صفة من الصفات أن يثبتها ولا يأخذ بلوازمها؛ لأن لكل لازم لازماً, ويتسلسل الإنسان في ذلك في مسألة الإثبات, ولهذا نقول: إنه ينبغي للإنسان أن يثبت ما أثبته الله عز وجل لنفسه من غير مقدار زائد في هذا.

وأما بالنسبة لما يتعلق باللوازم ومنهج أهل السنة في ذلك, نقول: إن أهل السنة يأخذون باللوازم عند النظر في كلام من يثبت اللوازم في مسائل الأسماء والصفات, ويلتزمون بذلك, ثم يقومون بالرد عليهم على هذا اللازم, فيثبتون اللازم ثم يثبتون ما يبطل هذا اللازم, ولهذا يرد في كلام كثير من الأئمة الأخذ باللازم في مواضع, ونفي اللوازم في مواضع أخرى, فيثبتونها في موضع إذا كان هناك من يأخذ بهذا اللازم, فيأتون بذاك اللازم ثم يبينون فيما يخالف ذلك الدليل, أو ربما أوردوا لازماً مخالفاً لدليل آخر من كلام الله عز وجل وكلام رسول الله ﷺ, وإلا فالأصل في مسائل الإثبات أنهم يتوقفون, وكذلك النفي فإنهم لا ينفون كل صفة لا تتضمن نقصاً.

تفهيم وتقريب المعنى في صفات الله سبحانه وتعالى

قال المؤلف رحمه الله: [وقد أعاذ الله تعالى أهل السنة من التحريف والتشبيه والتكييف، ومنَّ عليهم بالتعريف والتفهيم، حتى

سلكوا سبل التوحيد والتنزيه].

أهل السنة لا يحرفون الكلم عن مواضعه؛ ولكنهم يعرفون ويُفهِّمون ويقربون الدليل بما يستطيع الإنسان أن يفهمه, وهذا الإفهام ما لم يتضمن تشبيهاً فإنه لا حرج على الإنسان أن يأتي بشيء من المعاني والألفاظ التي يقرب بها الفهم إلى المتلقي, وأما إذا كان التفهيم والتعريف يتضمن تشبيهاً لله سبحانه وتعالى للمخلوقين أو ربما تضمن تعطيلاً فإنهم يتنزهون عن ذلك؛ لأنه يلزم منه حكم فاسد, ولهذا نقول: إن أهل العلم والمعرفة من أهل الحديث والسنة يلتزمون بالصفات الواردة بكلام الله وكلام رسول الله ﷺ, فيعرفونها ويفهمونها ولكن لا يشبهون, بخلاف أهل البدع فإنهم إذا أرادوا أن يفهموا شبهوا, فإذا أرادوا أن يبينوا لجاهل صفة اليد أشاروا إلى أيديهم, وأشاروا إلى أصابعهم, وإذا أرادوا أن يبينوا نزول الله عز وجل أو استوائه أشاروا إلى قعود على عروش أو نزول الإنسان من عتبات ونحو ذلك, وهذا يلزم منه تشبيه الخالق بالمخلوق, تعالى الله عز وجل عن ذلك علواً كبيراً.

التوحيد في أسماء الله وصفاته

قال المؤلف رحمه الله: [ومنَّ عليهم بالتعريف والتفهيم, حتى سلكوا سبيل التوحيد والتنزيه, وتركوا القول بالتعطيل والتشبيه, واتبعوا قول الله عز وجل: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ [الشورى:11]].

قوله هنا: (سلكوا طريق التوحيد والتنزيه), التوحيد هو: أن نعتقد أن الله سبحانه وتعالى واحد في أسمائه وصفاته, ومعنى واحد في أسمائه وصفاته: أن الله سبحانه وتعالى لا يشاركه في هذه الصفة أحد, وهذا مقتضى نفي التشبيه والتمثيل, وذلك أننا إذا نفينا الشبيه والمثيل لله عز وجل فهذا دليل أن الله عز وجل واحد لا يشاركه في صفته أحد من عباده سبحانه وتعالى.

وقوله: (التنزيه) أي: أن ينزه عن شيء من النقائص ولو لم يرها الإنسان, فما كان لازماً لنقيصة أو كان نقيصة في ذاته فإنه ينفى عن الله سبحانه وتعالى, ولهذا يقول العلماء: إن التوحيد هو إفراد الله عز وجل في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته, ومعنى إفراد الله في أسمائه وصفاته: أن تثبت هذه الصفة وذلك الاسم لله عز وجل وحده لا شرك له أي: لا يشاركه في هذه الصفة أو هذا الاسم أحد من خلقه سبحانه وتعالى, فسمعه يختلف عن سمع المخلوقين, وبصره يختلف عن بصر المخلوقين, وسائر صفاته كذلك.

توجيه الصيغ الواردة في صفة اليد لله سبحانه وتعالى

قال المؤلف رحمه الله: [وكما ورد القرآن بذكر اليدين بقوله: ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص:75], وقوله: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ [المائدة:64]].

وقد جاءت صفة اليد عن الله سبحانه وتعالى بصفة الإفراد, وبصفة التثنية, وبصفة الجمع, ولله عز وجل يدان, فيحمل الإفراد

على الجنس, ويحمل الجمع على أن أقل الجمع اثنين, فالله سبحانه وتعالى له يدان, وهي على الحقيقة, ونثبت لها أثراً, ومن هذا الأثر: القبض والبسط والخلق؛ فالله سبحانه وتعالى خلق آدم بيده, وهو أيضاً يبسط الرزق, ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة:64], فهذا من آثار هذه الصفة, وليس لنا أن نأتي من آثارها ما لم يأت به النص, وكلما توقف الإنسان على ما ورد إلى مسامعه من الوحي كان أكثر هداية وصواباً.

قال المؤلف رحمه الله: [ووردت الأخبار الصحاح عن رسول الله ﷺ بذكر اليد؛ كخبر محاجة موسى وآدم, وقوله له: (خلقك الله بيده, وأسجد لك ملائكته), ومثل قوله ﷺ: (لا أجعل صالح ذرية من خلقته بيدي كما قلت له: كن, فكان), وقوله ﷺ: (خلق الله الفردوس بيده)].

وقوله: (خلقك الله بيده), ذكر هنا على سبيل الإفراد, والمراد بذلك هو جنس اليد, وإذا ذكر العدد مثنى فإنه لا يحتمل حصره بالإفراد ولا بأكثر من ذلك, بخلاف الإفراد والجمع فإنه يحمل على المثنى, ولهذا نقول: إن المثنى أوسع, فيسوغ للإنسان أن يطلقه بلفظ الإفراد, ويسوغ للإنسان أن يذكره بلفظ الجمع, فهو يحتوي الإفراد ويحتوي الجمع, والإفراد لا يحتمل التثنية بكل حال, والجمع كذلك لا يحتمل التثنية بكل حال, فربما يكون أكثر من ذلك؛ ولكن إذا جاءت التثنية في موضع – كما في قوله: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة:64]– فالمراد بذلك هو هذا العدد.

تقدمت الإشارة معنا أن البدع إنما ظهرت في مسائل العقائد –وكذلك أيضاً في أبواب الفقه– عند أهل العجمة لما انتشر الإسلام, ولهذا نجد أن الصحابة لما كانوا في المدينة, ولم يكن ثمة امتداد للفتوحات الإسلامية كان أهل المدينة على مذهب واحد, وعلى قول واحد, ولهذا تجد أن الخلاف لدى المدنيين قليل –حتى في مسائل الفقه– بخلاف غيرهم, وحينما اتسعت رقعة الإسلام ودخل في ذلك العجم تبنى كثير منهم بعض مسائل العقائد –وكذلك في الفروع– المخالفة لظواهر الأدلة, ولهذا تجد أن بدعة القدرية, وما يتعلق أيضاً بمسائل الجهمية والرافضة والخوارج أن أصول هذه العقائد إنما كانت من عجم, فأخذوا الأدلة وخالفوا أمر الله سبحانه وتعالى.

كذلك أيضاً تجد أن الإجماع عند المدنيين أكثر من غيرهم؛ لكون العرب فيهم أكثر, ولهذا حتى الأقوال الشاذة في مخالفة الإجماع تجدها في غير المدينة, فتجدها عند الكوفيين, وعند البصريين, وعند البغداديين, وعند الشاميين, وعند المصريين, وهكذا, أما في أهل المدينة فتجد أن الخلاف في مخالفة الإجماع نادر, وقد يكون معدوماً, وأنه لا يكاد يصح عن فقيه مدني في التابعين وكذلك أتباع التابعين أنه خرق الإجماع, وأما المخالفات لغيرهم من أهل البلدان فهذا يرد وإن كان ليس بكثير.

إثبات صفات الله سبحانه وتعالى ونفي لازم النقص في ذلك

قال المؤلف رحمه الله: [وكذلك يقولون في جميع الصفات التي نزل بذكرها القرآن، ووردت به الأخبار الصحاح من السمع, والبصر, والعين, والوجه, والعلم, والقوة, والقدرة، والعزة, والعظمة, والإرادة، والمشيئة, والقول, والكلام، والرضا, والسخط,

والحب, والبغض, والفرح, والضحك, وغيرها, من غير تشبيه لشيء من ذلك بصفات المربوبين المخلوقين].

وهذه نثبتها لله سبحانه وتعالى, وننفي عنها النقص, فنقول: إن الله عز جل يغضب ويسخط, والنقص الذي ننفيه هو التألم والأذى, فالتألم والأذى ننفيه, وكذلك يفرح, وننفي لازم النقص في ذلك وهو اللذة, فننفي عنه ذلك, وكذلك أيضاً ما يتعلق بالسخط فننفي في ذلك الألم؛ لأن هذه صفة نقص, لهذا نقول: إن هذا من اللوازم التي ينفيها الإنسان ويثبتها بعض المبتدعة, فبعض أهل البدع يثبتون أمثال هذه المعاني, ولهذا نقول: إن أمثال هذه الصفات نثبتها لله سبحانه وتعالى, ونجعلها على كمالها المطلق له جل وعلا, وننفي من ذلك ما يرد في الأذان من معاني النقص على سبيل الإجمال, وإذا ورد من قال بها فإننا ننفيها على سبيل التفصيل, ولنا أن نثبت من آثارها ما دل عليه الحس أو دل عليه الدليل, فلكل صفة من صفات الله عز وجل أثر في الناس دل عليه الدليل, ومنها ما يعرف بالحس؛ كغضب الله سبحانه وتعالى وبطشه, من تغيير أمور الكون, وكذلك أيضاً ما يطرأ من عقوبة الله عز وجل على الناس, وقدرته جل وعلا من إنزال العقوبة على الظالم, هناك من العقوبات ما ليس لها مثيل في الأزمنة السابقة, فنقول: هذا من آثار تلك الصفة لله سبحانه وتعالى.

قال المؤلف رحمه الله: [من غير تشبيه لشيء من ذلك بصفات المربوبين المخلوقين, بل ينتهون فيها إلى ما قاله الله تعالى, وقاله رسوله ﷺ من غير زيادة].

كثير من أهل البدع –كما تقدم الإشارة إليه– ينفون بعض الصفات لله جل وعلا؛ لأنه انقدح في أذهانهم بعض المعاني السيئة, ولهذا يقولون: إن الله عز وجل لا يفرح؛ قالوا: لأن الفرح في ذلك يلزم منه الالتذاذ, وأن الغضب يلزم منه الألم, وهذه اللوازم هم أوجدوها ولم تكن موجودة في الدليل, ثم نفوا ما دل الدليل عليه على لازم في أذهانهم, وهذا اللازم إنما وجد في أذهانهم؛ لأنهم يجدون في أنفسهم أنه إذا فرح أحدهم التذ, وإذا غضب تألم, ونحن نقول: أنت شبهت ثم رجعت إلى الأمر فنقضته, فأنت شبهت الخالق بالمخلوق الذي هو أنت, ثم رجعت إلى ذلك الأمر فنفيته, فنقول: تشبيهك خطأ ولا ترجع إلى الصفة فتنفيها, بل نثبتها وننفي معنى النقص الذي قام في نفسك؛ لأن الله عز وجل يقول: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:11].

وأما بالنسبة للأذى فنقول: إن المخلوق يؤذي الخالق؛ لكن لا يضره, فالأذى في كلام العرب على نوعين: أذى يضر, وأذى لا يضر, فالأذى الذي يضر هو ما يكون من المخلوقين؛ كفلان يؤذي فلاناً فضره, وأذى لا يضر وهو أذى المخلوق للخالق, ولهذا يقول الله جل وعلا: (يؤذيني ابن آدم؛ يسب الدهر وأنا الدهر), لكن أذى المخلوق للخالق لا يضره؛ لأن الله عز وجل يقول: (لن تبلغوا ضري فتضروني), إذاً: نقول: إن هذا المعنى من الأذى هو مما لا يضر به المخلوق الخالق سبحانه وتعالى, ولهذا نقول: يجرى ما جاء في ذلك من الأدلة على ما ورد به النص, ونقول أيضاً: كل ضرر أذى, وليس كل أذى ضرراً.

قال المؤلف رحمه الله: [من غير زيادة عليه, ولا إضافة إليه، ولا تكييف له ولا تشبيه، ولا تحريف ولا تبديل ولا تغيير].

الزيادة في ذلك ما يجده الإنسان من لوازم الصفة, فمثلاً: الله سبحانه وتعالى يرى, وهذه صفة لله سبحانه وتعالى, وله عين وهذه صفة, والله عز وجل يسمع, فهل للإنسان أن يثبت صفة الأذن لله عز وجل؟ نقول: لا؛ لأنه قدر زائد, لكن هل يقول الإنسان: كيف يسمع بلا أذن, لابد أن نثبته؟ نقول: إنك شبهت الخالق بنفسك ثم قمت بإثباتها على ذلك اللازم, والله عز وجل ليس كمثله شيء وهو السميع البصير, وإنما أثبتنا الرؤية وأثبتنا العين؛ لأن العين ثبتت بدليل مستقل كما أن الرؤية ثبتت بدليل مستقل, وكذلك أيضاً السمع نثبته لله سبحانه وتعالى بدليل مستقل, ولا نثبت ما زاد عن ذلك من الأذن؛ باعتبار أنه لم يرد دليل مستقل في هذا.

صفات الله سبحانه وتعالى الخبرية

قال المؤلف رحمه الله: [ولا إزالة للفظ الخبر عما تعرفه العرب وتضعه عليه بتأويل منكر يستنكر, ويجرونه على الظاهر، ويكلون علمه إلى الله تعالى].

نقول: إن ثمة صفات خبرية, ويتجوز في الخبر ما لا يتجوز في غيره, ولهذا الله سبحانه وتعالى يقول في كتابه العظيم: ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ﴾ [الأنفال:30]، ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ ﴾ [البقرة:15], وهذا الاستهزاء والمكر والكيد من الله سبحانه وتعالى على سبيل الإخبار, لكن لا يجعله الإنسان صفة لله سبحانه وتعالى على سبيل الاستقلال, وإنما يحمل على سياقه, أي: إن كاد أحد كاد الله به, وإن مكر أحد مكر الله به؛ لأن هذه الصفات جاءت على هذا السياق, فنقول: إنها صفات خبرية, والصفات الخبرية لا يثبتها الإنسان على سبيل اللزوم فيجعلها كالصفات الذاتية لله سبحانه وتعالى, فهي جاءت في سياق المقابلة, وهذا أيضاً كما في قول النبي ﷺ كما جاء في الصحيح قال: (مه, عليكم من العمل ما تطيقون, فإن الله لا يمل حتى تملوا), فجاء ذلك في سياق الأمر بمثله فنثبته بمثل هذه الحال, ولا نجعله صفة لازمة لله سبحانه وتعالى, وإنما نجعله خبراً جاء عنه سبحانه وتعالى بمثل هذا السياق من غير زيادة ولا نقصان, فإذا زدنا عليه فجعلناه صفة لله عز وجل لازمة أخرجناه عن سياقه؛ لأن الله عز وجل أثبت المكر في حال وجود المكر, وأثبت الاستهزاء في حال وجود الاستهزاء, وأثبت الكيد في حال وجود الكيد, وليس لأحد أن يسمي الله الكائد أو الماكر أو المستهزئ أو غير ذلك؛ لأن مثل هذه الأسماء لله سبحانه وتعالى تكون أسماء لازمة وصفات له سبحانه وتعالى, بخلاف مثل هذه الأمور التي تكون أخباراً إنما جاءت عنه سبحانه وتعالى على سبيل المقابلة بالمثل, وما جاء من الأخبار التي ترد في كلام الناس ويندرج في مثل هذا الأمر فنقول: هذا من المعاني السائغة إذا كان ذلك اللفظ لا يتضمن معنى قبيحاً؛ كأن يقول الإنسان مثلاً: إن كسرتني كسرك الله, أو يقول الإنسان: اعتديت علي اعتدى الله عليك أو غير ذلك, ومثل هذه المعاني التي تجري في كلام الناس, ولا تثبت على سبيل الاستقلال له سبحانه وتعالى.

صفات الله سبحانه وتعالى بين كونها من المحكم أم من المتشابه

قال المؤلف رحمه الله: [ويقرون بأن تأويله لا يعلمه إلا الله، كما أخبر الله عن الراسخين في العلم أنهم يقولونه في قوله تعالى: ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ﴾ [آل عمران:7]].

وهذا ظاهر في قول الله سبحاته وتعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾ [آل عمران:7], يعني: صدقنا بما جاء في كلام الله سبحانه وتعالى من غير زيادة ولا نقصان.

وبعض العلماء يجعلون صفات الله عز وجل من المتشابه, لكن هل هي من المتشابه أم من المحكم؟ نقول: هي محكمة من جهة, ومتشابهة من جهة, فهي متشابهة من جهة كيفيتها أي: من جهة الكيفية, فنكل أمرها إلى الله سبحانه وتعالى, وهي محكمة من جهة حقيقتها, فنقول: إن الله عز جل سميع بسمع, وبصير ببصر على الحقيقة, وأن لله عز وجل يداً على الحقيقة, وأما الكيفية فهي إلى الله سبحانه وتعالى.

وهذا من مواضع الخلاف عند المفسرين من أهل السنة في هل كلام الله سبحانه وتعالى فيه متشابه مطلق أو لا متشابه مطلق فيه؟ فمن قال: إنه لا متشابه فيه فإنهم يجعلون صفات الله سبحانه وتعالى محكمات, ويجعلون حتى تفويض ذلك الأمر هو إحكام من الله سبحانه وتعالى, والذي يظهر والله أعلم أن مجموع القرآن محكم, ولكن يوجد متشابه نادر, وهذا المتشابه منه مطلق ومنه مقيد, فالمطلق أي: ما هو مطلق على سبيل الخلق لا يعلمه إلا الله جل وعلا؛ وذلك كبعض المعاني التي ترد في كلام الله عز وجل لا يعلمها إلا الله؛ كعدد أصحاب أهل الكهف, فهذا موكول إلى الله سبحانه وتعالى, وهو من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى, وكذلك أعمار كثير من الأنبياء الذين قصهم الله عز وجل والذين لم يقصصهم الله عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام, وكذلك أيضاً الحروف المقطعة في كلام الله عز وجل منهم من يجعلها في المتشابه المطلق الذي لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى, ومنهم من يخرج هذا من المتشابه المطلق, فيقول: إنه قد جاء في كلام بعض السلف تفسير في هذا, يعني: أنها عنده ليست متشابهة, ولو كانت متشابهة لما أولها؛ لأنه لا يتكلم في تأويل القرآن بغير علم.

وأما المقيد فهو متشابه على قوم دون قوم, وهذا ظاهر في حديث النعمان بن بشير –كما هو في الصحيحين وغيرهما– أن رسول الله ﷺ قال: (الحلال بين والحرام بين, وبينهما أمور مشبهات لا يعلمهن كثير من الناس), فلم يقل: كل الناس, بل قال: (لا يعلمهن كثير من الناس), فالتشابه هنا نسبي, وليس مطلقاً, ولهذا قالوا: إن كلام الله سبحانه وتعالى ما أنزله الله عز وجل إلا وهو محكم, وأما التشابه فإنه يقع في بعض أذهان الناس, وفي قلوب بعض الناس, فيجهل هذه المسألة فتكون متشابهة بالنسبة له, ولكنها معلومة عند غيره, وهي نسبية, فمن العلم من كلام الله ما يعلمه القليل النادر, ومنهم ما يعلمه الكثير, ومنهم ما يعلمه الأكثر, والله أعلم.

عقيدة أهل الحديث في القرآن الكريم ومسائل متعلقة بها

قال المؤلف رحمه الله: [ويشهد أهل الحديث ويعتقدون أن القرآن كلام الله وكتابه ووحيه].

قوله: (ويشهد أهل الحديث) معنى (يشهد) أي: أنهم يبينون بألسنتهم ما يعتقدونه في قلوبهم من جهة كلام الله سبحانه وتعالى, والقرآن هو كلام الله جل وعلا, وهو المتلو بالألسن, والمكتوب في الصحف, والمقروء فيها, وكلام الله سبحانه وتعالى نثبته على الحقيقة, وقد سماه الله عز وجل بجملة من الأسماء؛ لعظمته وجلالة قدره, فسماه الله عز وجل القرآن, والكتاب, والفرقان, وغير ذلك من أسمائه التي تدل على عظمته وجلالة قدره.

خلاف العلماء في اشتقاق القرآن الكريم من عدمه

وكذلك أيضاً فإن القرآن اختلف العلماء فيه هل هو مشتق أم لا؟ فمن العلماء من قال: إنه مشتق من قرأ يقرأ قراءة, فسمي القرآن كذلك, وهذا قول الأكثر, سواء كانوا من أهل اللغة أو من أهل السنة, فيقولون: إن الله عز وجل أول ما أنزل على رسوله ﷺ: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ [العلق:1], والمراد من ذلك هي قراءة القرآن, ومن العلماء من قال: إنه جامد, وليس بمشتق من قرأ يقرأ قراءة, وهذا قال به إسماعيل بن قسطنطين وهو شيخ الإمام الشافعي رحمه الله, وقال به الإمام الشافعي رحمه الله, ودافعهم في ذلك قالوا: إنه يلزم من هذا أن نجعل كل كتاب قرآناً, فنجعل السنة قرآناً, ونجعل الكتب العربية قرآناً, وكتب الشعر قرآناً باعتبار أنها تقرأ, لكننا نقول: إن هذا اللفظ قد غلب على هذا الاستعمال؛ كقولنا مثلاً: (الكافرون) على من خرج عن دين الإسلام, مع أنها تدخل في أبواب اللغة في معاني أخرى, ومثل ذلك: لفظ (المؤمنون) فهو يدخل فيه كل من صدق بشيء وآمن بوجوده, كمن آمن بوجود مادة أو دينار أو درهم أو آمن بوجود شخص أو أرض أو غير ذلك, فهذا مؤمن, لكن غلب اصطلاحاً على من آمن بالله وبرسله وملائكته وكتبه وبيوم البعث وبالقدر خيره وشره, فهذا هو المؤمن, فهو إذاً قد غلب هذا الاستعمال, وأما من جهة أصل اللغة فهو يدخل فيما هو أوسع من ذلك, وكذلك أيضاً لفظ (القرآن) فنقول: إنه مشتق من هذا المعنى.

وكذلك من علل القائلين بأن القرآن غير مشتق أنهم يقولون: لا يهمز في لغة مكة, ونقول: إن هذا الهمز يرد أيضاً في غيرها من الألفاظ؛ كلفظ أيضاً (المؤمنون), فأهل مكة يقولون: المومنون والمؤمنون, وكذلك القران والقرآن, وكلها نطق صحيح, فهل ننفي ونقول: إن لفظ (المؤمنون) ليست بمشتقة باعتبار أنها تجري على هذا الوجه؟ نقول: بل هي مشتقة من آمن يؤمن, أي: صدق بما علم.

الكتابة والقراءة والحفظ للقرآن الكريم لا يخرجه عن كونه كلام الله

قال المؤلف رحمه الله: [ويعتقدون أن القرآن كلام الله وكتابه ووحيه وتنزيله غير مخلوق].

أي: أن القرآن كلام الله, والله عز وجل تكلم سبحانه وتعالى على الحقيقة, وقوله: (وهو كتابه) أي: وهو المكتوب في اللوح عنده سبحانه وتعالى, وهو المتلو بالألسن, وهو المحفوظ في الصدور, ولهذا الله عز وجل يقول عن تلاوته: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾ [الأعراف:204], فسمى المقروء قرآناً وهو كلامه جل وعلا, وكذلك أيضاً المحفوظ في الصدور هو قرآن, لهذا يقول الله عز وجل في كتابه العظيم: ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ [العنكبوت:49], يعني: هو قرآن وإن كان محفوظاً, وقرآن ولو كان مكتوباً, وقرآن ولو كان متكلماً بها, فنقول: هذا كلام الله سبحانه وتعالى, وأن تكلم القارئ به لا يجعله ليس بكلام الله عز وجل, وكتابته لا تجعله ليس بكلام الله عز وجل, وحفظه في الصدور لا يجعله ليس بكلامه سبحانه وتعالى.

حكم القول بخلق القرآن

قال المؤلف رحمه الله: [ومن قال بخلقه واعتقده فهو كافر عندهم].

وذلك لأن القرآن صفة من صفات الله سبحانه وتعالى, ومن قال بخلق الصفة فإنه يقول بخلق الموصوف, تعالى الله عز وجل عن ذلك, وإذا كان الإنسان إذا قلت: إن يده مخلوقة فيلزم من ذلك أنه مخلوق, وإذا قلت: إن يده ليست مخلوقة, وعينه ليست مخلوقة, وبصره ليس بمخلوق يلزم أنه خالق, تعالى الله عز وجل أن يشاركه أحد من خلقه أو من الناس في ذلك, ولهذا نقول: إن كلام الله سبحانه وتعالى تكلم الله عز وجل به على الحقيقة, وهو كلامه وليس بمخلوق.

وجه قول السلف بأن القرآن الكريم كلام الله غير مخلوق

وهنا لدينا مسألة: وهي أن نفي الخلق عن صفة الله سبحانه وتعالى في قول أهل السنة والأئمة من السلف: إن كلام الله عز وجل على الحقيقة وليس بمخلوق هذا النفي هو نفي نقيصة؛ فالإنسان المخلوق صفة خلقه هذا نقصان له وكمال لخالقه, إنما نفاه أهل السنة في هذا لما ورد كلام المبتدعة في هذا, والذي دفع المبتدعة في هذا اللوازم؛ فهم قالوا: إنه كلام الله, وكلام الله انتقل منه إلى الصحف, ثم دون بالأحبار على الأوراق, وكذلك أيضاً حملناه في الصدور فهل يلزم من ذلك أن في أجوافنا صفة الله سبحانه وتعالى؟ تكلمنا ونطقنا بهذا الكلام بألسنتنا وشفاهنا وما تخلل ذلك من لعابنا هل هذا كلام الله سبحانه وتعالى؟ فجرى من اللوازم الذي نفوا أن يكون ذلك صفة له سبحانه وتعالى, بل قالوا: هو مخلوق, وأن الله عز وجل خلق القرآن كما خلق الجبال والأنهار والسحاب وغير ذلك, وجعلها آيات, فدفعهم في هذا ما يروه من تحوله, فحينما يرون الجبال تتغير وتنقلب قالوا حينئذ: هذه مخلوقة, ويلزم من ذلك أيضاً أن القرآن حينما يتغير من حال إلى حال يلزم من ذلك أن يكون مخلوقاً, وإنما نفى أهل السنة والسلف الصالح في ذلك أن القرآن ليس بمخلوق لما أظهروا الخلق, وإلا فهذه المسألة مسكوت

عنها؛ وهي مسكوت عنها حتى في زمن الصحابة؛ فهم يثبتون مثلاً صفة اليد ويكتفون, ولا يقولون: ليست مخلوقة؛ لأنه يلزم من الصفة أن تكون من الموصوف ولا يخاض فيما عدا ذلك, ولكن لما بعد الناس عن لغة العرب وطرأت مثل هذه الأقوال من كلام المبتدعة جاء العلماء بنفي تلك الألفاظ, فإذا وجد أحد من الناس يثبت صفة لله عز وجل أو ينفي عنه صفة من صفاته نأتي وننقضها ولو لم نكن قبل ذلك قد أوردناها؛ لماذا؟ لأننا لا ننفي على سبيل التفصيل وإنما على سبيل الإجمال؛ لأن النفي على سبيل التفصيل نقصان, ولهذا إذا أردت أن تمدح شخصاً فإنك تنفي النقائص عنه على سبيل الإجمال, فمثلاً: إذا ذهب رجل إلى رجل, وأراد أن يسأل عنه؛ لأنه قد خطب منه ابنته, وذهب يسأل عنه جيرانه, فإذا أردت أن تمدحه تقول: هذا الرجل لا يضرب أمه, لم أره مرة ضرب أمه, وما رأيته قتل أحداً, وما رأيته سرق أبداً, ولا يزني, فهذا مدح أو ذم؟ هذا ذم, فتنفي عنه النقائص على سبيل الإجمال, وتثبت على سبيل التفصيل المحامد, فتقول: هو كريم, طيب, سخي, وغير ذلك من الصفات التي يثبتها الإنسان, ولهذا نقول: إن السلف الصالح إنما نفوا خلق القرآن ولم تكن واردة في كلامهم في ذلك إلا بعد ما جاء هذا القول, وأول من تكلم في هذه المسألة فيما أعلم هو ما جاء عن عبد الله بن عباس و عبد الله بن مسعود عليهما رضوان الله في هذه المسألة, وفي الأسانيد في النفس منها شيء, فقد جاء عند قول الله عز وجل: ﴿ قُرآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾ [الزمر:28], قال: غير مخلوق, جاء ذلك عن عبد الله بن عباس كما رواه ابن جرير الطبري و ابن أبي حاتم في كتابه التفسير من حديث علي بن أبي طلحة عن عبد الله بن عباس قال: ﴿ غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾ [الزمر:28], قال: غير مخلوق, وذلك أن هذه المسألة لم تكن قد ظهرت في زمن عبد الله بن عباس عليه رضوان الله تعالى, وإنما ظهرت بعد ذلك.

إذاً: الله سبحانه وتعالى متكلم, وهذا القرآن هو كلام الله, وهو قول الله, ونصفه كذلك بأنه نبأ, وقول, وكلام, قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ﴾ [آل عمران:55], وقال: ﴿ وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ [الأعراف:143], فنقول: هو كلام الله جل وعلا, وقوله سبحانه وتعالى, وإنما ينفي أهل السنة أنه ليس بمخلوق لظهور هذه المسألة في كلام بعض المبتدعة في هذا الباب, فنفوا هذه المسألة وقالوا: من قال: كلام الله عز وجل مخلوق فهو كافر؛ لمخالفته ما استقر وتواتر واستفاض, ولأنه يلزم من ذلك خلق الموصوف, تعالى الله عز وجل عن ذلك علواً كبيراً, وقد نشأ بعد ذلك جملة من المسائل في هذا الباب يأتي الكلام عليها.

القرآن الكريم هو كلام الله المنزل على جبريل عليه السلام

قال المؤلف رحمه الله: [والقرآن الذي هو كلام الله ووحيه هو الذي نزل به جبريل على الرسول ﷺ ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [فصلت:3-4]].

أراد المؤلف أن يبين هنا أن القرآن الذي نتكلم عليه, وأنه كلام الله وليس بمخلوق؛ هو الذي نزل به جبريل على رسوله صلى الله عليه وسلم, وإنما خص جبريل هنا؛ لأن جبريل هو الموكول بالوحي, وما عدا ذلك فإنه ليس بكلام الله سبحانه وتعالى, وإنما هو حكم الله عز وجل وقضاؤه, ولهذا نقول: إن الله سبحانه وتعالى له الأمر, وأمره في ذلك ما يتعلق بالأوامر, وكذلك

أيضاً ما يتعلق بالمنهيات, ولله سبحانه وتعالى تسخير وتدبير, فتدبيره وتسخيره في السموات والكواكب والأفلاك وتسييرها ونحو ذلك, وهذه مخلوقات لله سبحانه وتعالى, وأما كلامه جل وعلا وأمره ونهيه فهو منه سبحانه وتعالى منه بدأ وإليه يعود.

قال المؤلف رحمه الله: [كما قال عز وجل: ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ [الشعراء:192-195]].

وهذا ظاهر أيضاً في قول الله عز وجل: ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ [البقرة:97], يعني: نزل الكتاب أي: القرآن الكريم على رسول الله ﷺ هدى ونوراً.

الجواب على شبهات في خلق القرآن

قال المؤلف رحمه الله: [وهو الذي بلغه الرسول ﷺ أمته، كما أمر به في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ [المائدة:67], فكان الذي بلغهم بأمر الله تعالى كلامه عز وجل].

وهنا جعل المنزل من الله سبحانه وتعالى وهو كلامه لم يتغير ولم يستحل, وإنما أمره بأن يبلغه كما جاء: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ [المائدة:67], ما أنزل إليك من غير زيادة أو نقصان؛ لأنه لا يتحكم بكلام الله عز وجل, فالله عز وجل حفظ كلامه.

وهنا في قول الله عز وجل: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر:9], حفظ الله عز وجل ذكره -وهو كلامه سبحانه وتعالى- من التغيير والتبديل, وأما ما طرأ في كلام الله عز وجل في التوراة والإنجيل وغيرها من التحريف فليس هذا تغييراً لكلام, وهذا أيضاً مما ينقدح في كلام بعض المبتدعة, فهم يقولون: إن كلام الله عز وجل يغير؛ كما تغيرت التوراة والإنجيل, فنقول: إن هذا لا يلزم منه تغيير الصفة؛ فهم غيروا وغيبوا الحروف المكتوبة بالأحبار ودونوا حروفاً أخرى, وأما كلام الله سبحانه وتعالى فهو لا يحول ولا يزول, وهو محفوظ عنده سبحانه وتعالى, ولا يغيره شيء.

وهم حملوا هذا التغيير الذي طرأ على الكتب السماوية السابقة -وهي كلام الله سبحانه وتعالى- جعلوها كتصرفات الإنسان في الكون وفي المخلوقات حينما يغير الإنسان الحجر ويكسره أو الرمل ينقله ويتحول ونحو ذلك؛ نقول: هذه مخلوقات, وذاك كلام الخالق سبحانه وتعالى, فالإنسان إنما غير المخلوق, وهي الأحبار والحروف, وأما من جهة الحقيقة فكلام الله عز وجل محفوظ عنده.

قال المؤلف رحمه الله: [وفيه قال ﷺ: (أتمنعوني أن أبلغ كلام ربي؟), قال: وهو الذي تحفظه الصدور، وتتلوه الألسنة].

الذي تحفظه الصدور, كما قال تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ [العنكبوت:49], فوصفه بأنه آيات وأنه بينات, لم يتحول عن وصفه بمجرد دخوله في صدر الإنسان, كذلك أيضاً المتلو بالألسن, ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ ﴾ [الأعراف:204], فجعل المقروء ذلك هو قرآن وهو كلام الله سبحانه وتعالى.

قال المؤلف رحمه الله: [وتتلوه الألسنة, ويكتب في المصاحف, كيف ما تصرف بقراءة قارئ, ولفظ لافظ، وحفظ حافظ، وحيث تلي, وفي أي موضع قرئ, وكتب في مصاحف أهل الإسلام، وألواح صبيانهم وغيرها].

وهذا لا ينقله عن كونه كلام الله سبحانه وتعالى, وهذا من اللوازم التي جعلت بعض أهل البدع يقولون بأن كلام الله عز وجل مخلوق, يقولون: يدون في الحروف, فإذا دون تعدد أي: كتب في لوح, ثم في لوح آخر, ثم في لوح آخر ونحو ذلك, نقول: إن هذا كلام الله سبحانه وتعالى, وأما ما يتعلق بالأحبار فالأحبار مخلوقة والورق مخلوق, وكذلك أيضاً بالنسبة للإنسان إذا تكلم بكلام الله عز وجل نقول: إن هذا كلامه سبحانه وتعالى, وأما بالنسبة للصوت فهذا صوت القارئ, ولهذا يقول العلماء في كلام القارئ يقولون: الكلام كلام الباري, والصوت صوت القارئ, فهذا كلامه سبحانه وتعالى, وأما بالنسبة لهذا الصوت الذي يكون رقيقاً ويكون خشناً, ويكون منخفضاً, ويكون عالياً؛ فهذا صوت المخلوق, وأما الكلام فهو كلام الله سبحانه وتعالى.

وجه قول السلف: أن من قال: إن حرفاً من كلام الله مخلوق فهو كافر

قال المؤلف رحمه الله: [كله كلام الله ﷻ غير مخلوق, فمن زعم أنه مخلوق فهو كافر بالله العظيم].

وهنا من المسائل التي يوردها العلماء: أن من قال: إن حرفاً من كلام الله مخلوق فهو كافر, ولا يوجد من أهل البدع من يقول: هذا الحرف مخلوق وهذا الحرف ليس بمخلوق, ولكن يريدون أن يشددوا في هذه المسألة, وأن يبينوا أن كلام الله سبحانه وتعالى محفوظ بحروفه من أوله إلى آخره, فمن قال: إن حرفاً من القرآن مخلوق فيلزمه أن يقول بالحرف الآخر, وهذا كفر بالله سبحانه وتعالى, ويريدون أن يشددوا أيضاً بنفي هذا القول برمته عن كلامه سبحانه وتعالى.

حكم إرداف لفظ: (غير مخلوقة) بعد كل صفة من صفات الله

قال المؤلف رحمه الله: [سمعت الحاكم أبا عبد الله الحافظ يقول: سمعت أبا الوليد حسان بن مُحَّد يقول: سمعت الإمام أبا بكر مُحَّد بن إسحاق بن خزيمة يقول: القرآن كلام الله غير مخلوق, فمن قال: إن القرآن مخلوق فهو كافر بالله العظيم].

بعض السلف رحمهم الله يشدد في كلمة غير مخلوق, فهم يقولون: لا تقل: مخلوق, ولا تقل: غير مخلوق؛ بل اسكت عما سكت عنه أصحاب النبي ﷺ, مع جزمهم أن هذا صفة من صفات الله سبحانه وتعالى؛ لكن هذا كان في ابتداء الأمر, وفي زمن لم يشع ذلك القول ويشتهر, أي: لا تقل: كلام الله عز وجل غير مخلوق, لكن الآن وجب أن تقول: كلام الله غير مخلوق؛ لأن هو نفي لنقيصة ظاهرة شائعة؛ كقول الله عز وجل: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة:64], وقوله: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [المائدة:64], فمثل هذا الأمر ونفيه نقول: يد الله عز وجل ليست مغلولة؛ هذا نفي لقول عندهم قد اشتهر واستفاض فننفيه, ولكن في بداية الأمر كان العلماء ينفون ذلك الأمر, وينفون أن تقول: غير مخلوق, ويكفرون من يقول: مخلوق؛ لأن هذا أمر مسكوت عنه؛ كحال الإنسان حينما يريد مثلاً أن يقول: يد الله غير مخلوقة, نقول: ما الداعي لك بهذا الكلام؟ هل يوجد أحد قال: يد الله مخلوقة؟ إذا قال: لا, نقول: أنت مبتدع؛ لماذا؟ لأن هذا خوض في تفاصيل لا ينبغي ولا يجوز لإنسان أن يخوض فيها, مع الإيمان بأن هذا الأمر حق من جهة اللفظ, وما كل معنى ولفظ صحيح يسوغ للإنسان أن يقوله, كما تقدم الكلام عليه من جهة نفي النقائص على سبيل الإجمال, وإثبات المحامد على سبيل التفصيل, ولهذا يقول العلماء: إن كلام الله على الحقيقة تكلم به الله جل وعلا وهو غير مخلوق لما شاع القول بخلقه, وهذا تشعب ونما في كثير من قضايا ومسائل الأسماء والصفات, ولهذا نقول: إن الإنسان إذا أراد أن يفهم القضية والمسألة في مسائل الصفات عليه أن يعرف تسلسل هذه المسألة من أين جاءت, وكيف نشأت, من جهة التقعيد الفكري, وكذلك أيضاً العقلي لدى كثير من الطوائف, منها ما يتعلق بالعجمة, ومنها ما يتعلق بالتأويل والفتنة.

إجماع أهل السنة على كفر القائل بخلق القرآن

قال المؤلف رحمه الله: [قال ابن خزيمة : القرآن كلام الله غير مخلوق, فمن قال: إن القرآن مخلوق فهو كافر بالله العظيم, لا تقبل شهادته, ولا يعاد إن مرض].

وهذا محل إجماع عند أهل السنة؛ أن من قال: كلام الله مخلوق أنه كافر بالله سبحانه وتعالى؛ لأن كلام الله يجمع على أنه صفة من صفاته, ويلزم من هذا القول قول فاسد؛ وهو أن الصفة مخلوقة والموصوف مخلوق تعالى الله عن ذلك.

الأحكام الفقهية المتعلقة بمن يقول بخلق القرآن

قال المؤلف رحمه الله: [ولا يصلى عليه إن مات, ولا يدفن في مقابر المسلمين, ويستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه].

طبعاً لا يصلى عليه ولا يدفن في مقابر المسلمين باعتبار أنه داخل في دائرة الزندقة, فلم يجتمع معهم في الحياة فلا يجتمع أيضاً في مواضعهم في الممات, وللمسلمين مقابر وللكفار مقابر, وفي حياته يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه؛ لكونه سلك طريق الزندقة, وأما مسألة الاستتابة فيقولون: إن كان عنده شبهة فيستتاب, والعلماء يختلفون في مسألة توبة الزنديق, وكذلك أيضاً

استتابته, فمنهم من يقول: إنه يستتاب, ومنهم من يقول: إنه لا يستتاب في ذلك.

والاستتابة ثابتة وهي محل إجماع, يعني: في مسألة أصل الاستتابة, ولكن يختلفون في تنزيلها, ويختلفون في عددها, فمثلاً: هل كل كافر يستتاب؟ منهم من قال: لا تنزل على كل أحد, ومثلاً: من سب الله عز وجل أو سب نبيه منهم من قال: لا يستتاب, وهذا قول الجمهور, ومنهم من قال: إنه يستتاب, ومنهم من قال: يستتاب مرة واحدة, ومنهم من قال: يستتاب ثلاثاً, وقد جاء عن عمر بن الخطاب و علي بن أبي طالب في الاستتابة ثلاثاً, ولا يثبت في ذلك شيء من كلام الله عز وجل وكلام رسول الله ﷺ, ومنهم من يستأنس بقول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا ﴾ [النساء:137], قالوا: وهذا ثلاثاً, فهو كان مؤمناً ثم كفر, ثم آمن ثم كفر فازداد كفراً, فقالوا: وهذا دليل على رجوعه واستتابته أكثر من مرة.

الدرس الخامس

يعتقد أهل الحديث أن القرآن الكريم كلام الله سبحانه وتعالى غير مخلوق, ومن قال: لفظي بالقرآن مخلوق فهو مبتدع ضال, وقد شدد علماء أهل السنة في مسألة اللفظية, وبينوا أنهم شر من الجهمية. ومن اعتقد أن في القرآن حرفاً زائداً أو ناقصاً فهو كافر؛ لمعارضته الأدلة على حفظ الله لكتابه الكريم

- ### تنبيهات مهمة في توحيد الأسماء والصفات

تقدم معنا الإشارة إلى أن ما يتعلق بمسائل العقائد –وعلى سبيل الخصوص مسائل الأسماء والصفات– أنه لا حاجة إلى علم الكلام فيها؛ باعتبار أن الإنسان يثبتها على ما جاء في كلام الله وكلام رسول الله ﷺ, وأن الزيادة عن ذلك المعنى هي تحكم وتكييف, وربما يكون تعطيلاً أو تشبيهاً لذلك الاسم أو لتلك الصفة لله سبحانه وتعالى, ولذلك نقول: إن عقيدة أهل السنة والجماعة أنهم يثبتون الصفة والاسم لله جل وعلا, وينفون معرفتهم بما لم يرد به النص, فيثبتون الاسم والصفة, ويثبتون الحقيقة, وما لهذا الاسم والصفة من أثر, وأما بالنسبة لهذا الأثر فهذا بربطه بالواقع مما لا حد له؛ فإذا رأى الإنسان حاكماً باغياً ظالماً قد تجبر وبغى وظلم وطغى فإنه يستحضر صفة الحلم لله سبحانه وتعالى, وأن الله عز وجل يمهل الظالم إلى أجل معلوم.

وما يتعلق بصفات الله عز وجل وأسمائه وربطها بالحوادث والنوازل هذا فقه من فقه المعاني لها, والذي ينبغي للإنسان أن يستحضرها, وهي المرادة في أحد الوجوه في قوله عليه الصلاة والسلام: (إن لله تسعة وتسعين اسماً, من أحصاها دخل الجنة), فالمراد بالإحصاء: معرفتها عداً, وكذلك أيضاً معرفة آثارها في الناس, والعمل بها, وذلك أن الإنسان يسأل الله

عز وجل بأسمائه, ويؤمن كذلك بالأسماء والصفات, وأن يربطها أيضاً بوقائع وحوادث الكون.

مسألة لفظي بالقرآن مخلوق

قال المؤلف رحمه الله: [أخبرنا أبو عبد الله الحافظ قال: قرأت بخط أبي عمرو المستملي سمعت أبا عثمان سعيد بن إشكاب يقول: سألت إسحاق بن إبراهيم عن اللفظ بالقرآن, فقال: لا ينبغي أن يناظر في هذا, القرآن كلام الله غير مخلوق].

وهذا كما تقدم أنه ينبغي للإنسان ألا يضيف شيئاً من الألفاظ فيما يتعلق في أسماء الله عز وجل وصفاته, حتى لو كان ذلك في أمر النفي إلا أن ينفي شيئاً مشاعاً, وهذا قد تقدم تقريره, ولهذا العلماء كانوا يقولون: إن من قال: لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي. ومرادهم بذلك: أن مثل هذا الكلام ينبغي للإنسان أن يبتعد عنه؛ لعدم وروده وعدم الحاجة إليه, بل يمر الأشياء كما جاءت, والغاية التي وصل إليها أهل البدع والضلال في مسائل الأسماء والصفات هو بإيغالهم بالدخول في التفاصيل والجزئيات وتحليل كثير من المعاني, ولهذا جاء عن علي بن أبي طالبعليه رضوان الله قوله: إن العلم نقطة كبرها الجهال. يعني: أنهم دخلوا في كثير من التفاصيل والجزئيات حتى أوجدوا شيئاً من الجهل مما لا يحتاجون إليه, وعلم الشريعة كما جاء في كلام الله عز وجل, وكلام رسول الله ﷺ, والذي توفى عنه نبينا عليه الصلاة والسلام هو كامل تام, لا ينبغي للإنسان أن يستزيد في ذلك إلا ما يتعلق بمسائل النوازل, فإذا كان ثمة نازلة فإنه يعالجها على نظائرها التي عالجها في ذلك من سبقه من أهل العلم, ولهذا لما ظهرت مسألة: لفظي بالقرآن مخلوق, وهي مسألة اللفظية الذين يتكلمون على أن القرآن هو كلام الله وليس بمخلوق, فجاء لديهم تبعاً ما يتعلق بمسألة اللفظ, وهو لفظ الإنسان أي: تلفظه, وحركة شفتيه ولسانه, والصوت, والهواء الذي يخرج منه, هل هذا مخلوق أو ليس بمخلوق؟ ويصعب عليهم في إدراكهم أن يفصلوا بين ذلك وبين كلام الله سبحانه وتعالى, وهذا على ما تقدم أن عقيدة السلف الصالح في هذا أنهم يقولون: إن الكلام كلام البارئ, والصوت صوت القارئ, كما أن المكتوب هو كلام الله سبحانه وتعالى, وأما بالنسبة للخط والمداد فهذا خط فلان والمداد من حبر أو نحوه, فنقول: إن هذا هو منهج أهل السنة والجماعة في ذلك, وإنما كان العلماء يحذرون من الدخول في أمثال هذه التفاصيل والغلو فيها والمبالغة في ذلك إيغالاً أن هذا مما يفضي إلى شيء من المخالفات في أمر الله سبحانه وتعالى, والوقوع في البدعة.

ومسألة اللفظية إنما أوردها المؤلف استدراكاً على من قال والتزم بمنهج السلف الصالح؛ أن القرآن هو كلام الله سبحانه وتعالى وليس بمخلوق, فجاءوا في مسألة اللفظ؛ هل اللفظ مخلوق أو ليس بمخلوق؟ يقولون: إن أفعال العباد مخلوقة, وإذا كان كذلك فيلزم من هذا أن يكون اللفظ مخلوقاً, فكيف نقول: إن كلام الله عز وجل ليس بمخلوق؛ ثم نقول: إن قراءة الإنسان مخلوقة؟ وهم يقولون: إن الله عز وجل خلق الناس وما يعملون, فإذا كان كذلك فقولهم فعل وعمل, ولهذا يقول الله جل وعلا في كتابه العظيم: ﴿ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾ [الأنعام:112], فالله عز وجل

ذكر القول ثم سماه فعلاً, وينبغي أن نعلم أن أهل السنة والجماعة يجعلون للقلب عملاً, وكذلك للسان عملاً, وللجوارح عملاً, فقول الإنسان وإن كان قولاً إلا أنه فعل, وإنما يختلفون في جعل ذلك عملاً, فمن العلماء من يقول: نسميه قولاً ولا نسميه عملاً, لكن نقول: إن للقول عملاً, وللقلب عملاً, وللجوارح عملاً وفعلاً, وهذا يؤيده ظاهر الشرع من كلام الله وكلام رسول الله ﷺ.

محنة بعض العلماء في مسألة لفظي بالقرآن مخلوق

ومسألة لفظي بالقرآن مخلوق؛ امتحن بذلك جماعة من الأئمة في هذا الباب, وكانوا يمسكون حتى ظهرت ثم حذر العلماء منها, ولهذا الإمام أحمد رحمه الله كان يقول: من قال: القرآن مخلوق فهو كافر, ومن قال: لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي. بل من العلماء من يقول: من قال: إن لفظي بالقرآن ليس بمخلوق فهو مبتدع؛ باعتبار أنه ابتدع شيئاً لا ينبغي للإنسان أن يخوض فيه, وأن يمر ما جاء من عقيدة أهل الإسلام في كلام الله سبحانه وتعالى كما جاء من غير أن يزيد في ذلك شيئاً من التفاصيل, ولا تقريرات المسائل التي لم تكن معلومة عند السلف الصالح عليهم رحمة الله.

قال المؤلف رحمه الله: [وذكر محمد بن جرير الطبري رحمه الله في كتاب الاعتقاد الذي صنفه في هذه].

ابن جرير الطبري له كتاب في مسائل الاعتقاد اسمه التبصرة, وقد تكلم فيه على جملة من المسائل فيما يتعلق بمسائل الإيمان, وكذلك أيضاً ما يتعلق بمسائل كلام الله سبحانه وتعالى, وامتحن على ما تقدم الإمام البخاري في هذا الأمر لما كان في حلقة من حلق العلم, فسئل عن لفظي بالقرآن, فقال: القرآن كلام الله ليس بمخلوق, وأفعال العباد مخلوقة, أطلق كلاماً عاماً, فحمل كلام البخاري في قوله: (القرآن كلام الله ليس بمخلوق, وأفعال العباد مخلوقة) على هذا العموم أي: على أنه قال: إن لفظي بالقرآن مخلوق, وهو أراد أن يجري على طريقة السالفين في هذا الباب؛ أن يبتعد عن مسائل التفصيل في مسألة اللفظ, فهو إذا قرر أن القرآن كلام الله سبحانه وتعالى وليس بمخلوق انتهى هذا الأمر؛ فلماذا يخوض في مسائل التفاصيل؟ فحمل قوله في ذلك وجعل له جملة من اللوازم التي هي ليست بلازمة, حتى هجرت حلقته في العلم, وقد مكن الله عز وجل له في ذلك, وله عقيدة مصنفة, وأشار إلى مسألة القرآن وكلام الله سبحانه وتعالى في هذا, وقد أسندها عنه اللالكائي في كتاب الاعتقاد عن الإمام البخاري رحمه الله بإسناد صحيح.

حدثان مسألة لفظي بالقرآن مخلوق

قال المؤلف رحمه الله: [أما القول في ألفاظ العباد بالقرآن فلا أثر فيه نعلمه عن صحابي ولا تابعي, إلا عمن في قوله الغنى والشفاء, وفي اتباعه الرشد والهدى].

تقدم الكلام معنا أن قولنا: القرآن كلام الله وهذا مستقر في الوحي وكذلك في السنة, أما أنه ليس بمخلوق لم يكن

موجوداً بالنص في الوحي, ولا عن الصحابة عليهم رضوان الله على ما تقدم, وجاء في ذلك عن عبد الله بن عباسوجاء عن عبد الله بن مسعود عليهما رضوان الله, باعتبار أن هذه المسألة جاءت حادثة, إذاً فمسألة اللفظ هي أيضاً بعد ذلك, ولم تكن موجودة في كلام الصحابة ولا في كلام التابعين, وإنما جاءت بعد ذلك لما احتد الصراع, وكان ثمة لوازم, ومنهم من يحتج بهذا اللازم, فإذا قلت: إن كلام الله عز وجل ليس بمخلوق فيلزم من ذلك أن تقول: إن كلامنا ليس بمخلوق كذلك؛ لأننا نتكلم بكلام الله سبحانه وتعالى.

والتفرق الذي طرأ على الأمة الإسلامية إنما هو بالإيغال في الجزئيات, وهذا تقدم الإشارة إليه, ولو بقوا على ما كان عليه في هذا بإمرار الأمر على ما كان عليه السلف الصالح من إطلاقات, والتسليم بها, وعدم الخوض في مثل هذا لكانت كلمة الأمة واحدة في مسائل الأصول, وكذلك مسائل الفروع, وهذا للأسف الشديد يجري عند كثير من الطوائف والفرق الدخول في التفصيلات والجزئيات وتوليد مسائل, خاصة فيما يتعلق بالغيبيات لم يكن عليه دليل.

عقيدة أهل البدع في كلام الله عز وجل

وعلى ما تقدم في اعتقاد أهل السنة والجماعة خالف أهل السنة في ذلك طوائف, منهم المعتزلة الذين قالوا: إن كلام الله عز وجل مخلوق وصرحوا بذلك؛ باعتبار أنهم يرون أن أفعال العباد يخلقها العباد, وهم يرون انفراد العبد بخلق أفعاله على خلاف طريقة أهل السنة في ذلك, ويرون أن إضافة الكلام لله عز وجل إضافة تشريف؛ كإضافة السماء لله سبحانه وتعالى, وخلق الأرض والجبال وغير ذلك, فيقال: سماء الله, وأرض الله, وناقة الله, وغير ذلك, فيقولون: هذه إضافة تشريف, وتبع ذلك جملة من اللوازم التي ضلوا فيها, حتى فيما يتعلق بمسائل التكفير ونحو ذلك, فيقولون: إذا قلنا: إن كلام الله سبحانه وتعالى مخلوق فيلزم من هذا أنه كحال الجبل والشجر والتراب وغير ذلك, فإذا أخذ الإنسان حصاة ثم قام برميها هل يكفر أو لا يكفر؟ لا يكفر, وعلى هذا إذا أخذ شيئاً من المصحف ثم قام برميه, فهذا رمى شيئاً مخلوقاً ليس من الله سبحانه, وليس صفة منه جل وعلا, فقالوا: حينئذ لا يكفر.

حتى أيضاً الأشاعرة في هذا الباب, من قال منهم بأن القرآن هو كلام الله عز وجل وهو مخلوق, التزموا بجملة من اللوازم؛ وهم قلة من الأشاعرة, لكن أغلبية الأشاعرة يقولون: إن القرآن هو معنى قائم في نفسه, أوجده الله عز وجل خارجها, وهذا أيضاً يقول بنحوه الكلابية الذين يقولون بأن القرآن هو حكاية كلام الله, أو حكاية ما قام في نفس الله سبحانه وتعالى, والأشاعرة لا يقولون بأنه حكاية؛ باعتبار أن الحكاية يكون فيها زيادة أو نقصان, ولا تعني بذلك المطابقة, فإن الإنسان إذا حاكى فعلاً أو حاكى قولاً يزيد فيها أو ينقص, ولا يكون ثمة مطابقة, وهذا فيه اختلال في جانب الوحي, والأشاعرة على معاني في هذا الباب؛ منهم من قال: إن كلام الله سبحانه وتعالى هو المعنى القائم في نفسه, وأوجده الله عز وجل هكذا في الهواء, ومنهم من قال: خطه جبريل عن الله سبحانه وتعالى, وبلغه رسول الله ﷺ, ويتشبثون ببعض المتشابهات في هذا عضداً لقولهم, وهذا من المواضع التي ينبغي أن يتنبه لها؛ أن كثيراً من الطوائف حينما تقرر مسألة من

المسائل تبحث عن دليل تجد من الأدلة ما يؤيد قولها, ولهذا يقول الله جل وعلا في كتابه العظيم: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ [الحاقة:40], وهذا في سورة الحاقة, وكذلك في سورة التكوير, وهذا المعنى على ما حملوه قالوا: إنه ليس بكلام الله عز وجل, وإنما هو كلام الرسول, تكلم به من عنده, وعبر بما في نفس الله سبحانه وتعالى, فنسب ذلك القول هو لذلك الرسول, وما جاء في الحاقة هو في الرسول, والمقصود في ذلك هو رسول الله ﷺ, وما في سورة التكوير المراد بذلك هو جبريل, وعلى كل نقول: إن المراد بذلك هو بشارة أن الله عز وجل قد جاء إلى نبيه عليه الصلاة والسلام بكلام بلغه إليه غيره, ولو كان هذا المعنى صحيحاً أنه هو القول منه على سبيل التلفظ والإيجاد والخلق فلا معنى أن يكون الرسول ﷺ مبلغاً, ولهذا يقول الله جل وعلا في كتابه العظيم: ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ ﴾ [النور:54]، ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ [المائدة:67], فالنبي ﷺ مبلغ ما جاء عن الله عز وجل, فالكلام كلام الله, فيدعون المحكم من كلام الله سبحانه وتعالى ويتشبثون بالمتشابه, وهذا على ما تقدم الكلام عليه أن الإنسان إذا قعد مسألة في نفسه ثم أخذ يقلب الأدلة من الوحي من كلام الله وكلام رسول الله يجد من الشواهد والأدلة ما يؤيد ذلك, وكثيراً من المسائل التي يطلقها أهلها ابتداء من غير تمحيص أول مرة, ثم إذا رد عليهم وعنف عليهم في القول في التجاوز في ذلك بحثوا عن شواهد تؤيد ذلك, ثم أصبحت عقيدة ثم أصبحت عناداً ثم قلدهم الناس في ذلك وأخذوها مذهباً متبوعاً, ولهذا نقرر دائماً أنه ما من شبهة طرأت على الإنسان إلا وأصلها شهوة كامنة, ولهذا نقول: الطوائف والفرق والمذاهب التي نشأت أصلها شهوات؛ إما حب البروز أو نزوة من نزوات النفس بمطمع من الدنيا بطلب جاه أو إرضاء ملك أو رئيس أو قبيلة أو نحو ذلك, أو ربما حفاظاً على مكانة الإنسان, ثم ولدوا كثيراً من المسائل فكانت زلة زلة, ثم عنف عليه الناس فأراد تقعيد هذه الزلة, وهي نوع من الشهوة أن يحافظ الإنسان على مقامه ورفعته في الناس, ثم تحولت بعد ذلك إلى منهج تبعه الناس عليه, ويظنون أنه مررها بالحق المحض, ولهذا نقول: إنه ما من شبهة إلا وقد تولدت عن طريق شهوة, ثم تحولت هذه الشهوة إلى شبهة, ثم انفصل ذلك الجيل من شهوته الماضية إلى أن تكون شبهة مستقلة, ثم أصبحت منهجاً متبوعاً يقاتل الناس عليه ويناضلون عليه, وهذا يظهر كثيراً لمن تتبع مسائل الخلاف, فيما يتعلق بمسائل العقيدة, وكذلك أيضاً فيما يتعلق بمسائل الفروع.

شدة الإمام أحمد في مسألة: لفظي بالقرآن مخلوق

قال المؤلف رحمه الله: [ومن يقوم قوله مقام الأئمة الأولى أبي عبد الله أحمد بن حنبل رحمه الله، فإن أبا إسماعيل الترمذي حدثني قال: سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل رحمه الله يقول: اللفظية جهمية, قال الله عز وجل: ﴿ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ﴾ [التوبة:6], ممن يسمع؟ قال: ثم سمعت جماعة من أصحابنا لا أحفظ أسماءهم].

فبين أن الذي يتكلم به رسول الله ﷺ هو كلام الله, وما أشار إلى شيء من اللفظ, ولا فصل المسألة وفرق بين صوت القارئ وبين كلام البارئ, فتقول: هذا كلام الله سبحانه وتعالى, وهذا دليل على ما تقدم الكلام عليه أنه ينبغي للإنسان

أن يمر مسائل الدين كما جاءت في كلام الله, وكلام رسول الله ﷺ, وعن الصحابة والتابعين, ولهذا يقول الله جل وعلا في كتابه العظيم: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ﴾ [التوبة:6], وهل يسمعه من الله أم من نبيه؟ من نبيه, فإذا كان من نبيه فلماذا يقول: كلام الله سبحانه وتعالى, ولم يقل: كلام رسول الله ﷺ؟ لأن الكلام لله سواء تكلم به جبريل أو تكلم به رسول الله أو تكلم به غير رسول الله ﷺ.

وأما بالنسبة لما يطرأ من ذلك من قولهم: إن لفظي بالقرآن مخلوق أو لفظي بالقرآن غير مخلوق, فهذا لا يخلو من أن يكون جهمياً, يريد من ذلك الوصول إلى جعل كلام الله مخلوقاً, وإما أن يكون مبتدعاً؛ جاء بمعنى يؤدي إلى حق ولكنه ابتدع هذه اللفظة, ولهذا الأئمة عليهم رحمة الله تعالى يحذرون من الدخول في أمثال ذلك إلا في رد بدعة من البدع.

قال المؤلف رحمه الله: [ثم سمعت جماعة من أصحابنا لا أحفظ أسماءهم يذكرون عنه ﷺ أنه كان يقول: من قال: لفظي بالقرآن].

على ما تقدم الكلام عليه أن بعض العلماء إذا أراد أن يثبت مسألة لتقريبها للناس ربما يبالغوا في مسألة الإثبات, ولهذا تقدم في كلام المصنف أن أهل الحق يعرفون ويفهمون ولا يحرفون, أي: لا يأتون بشيء من المعاني الجديدة, ولهذا يروى عن بعض الأئمة عليهم رحمة الله أنهم يثبتون صفة الفم لله سبحانه وتعالى لا على سبيل الالتزام بها, وإنما من باب تقريب أن الله عز وجل تكلم على الحقيقة, وقد ذكر القاضي ابن أبي يعلى في كتابه الطبقات رواية عن الإمام أحمد أنه قال: تكلم الله كلاماً بفيه, يعني: يريد من ذلك أن الله عز وجل تكلم على الحقيقة, وهذا إثبات صفة الفم لله سبحانه وتعالى, لا دليل عليها من كلام الله عز وجل, وكلام رسول الله ﷺ, والإمام أحمد رحمه الله لا يريد من ذلك إقراراً لهذه الصفة, وإنما يريد إثبات أن الله سبحانه وتعالى تكلم على الحقيقة, لا أنه عبر بمعنى قائم في نفسه, أو خلق الله عز وجل أو أوجد الكلام في الهواء, فأراد أن يحسم هذه المسألة بتقريبها تقريباً لا يدانيه لبس.

قال المؤلف رحمه الله: [كان يقول: من قال: لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي, ومن قال: غير مخلوق فهو مبتدع.

قال مُحَمَّد بن جرير : ولا قول في ذلك عندنا يجوز أن نقوله غير قوله, إذ لم يكن لنا فيه إمام نأتم به سواه، وفيه الكفاية والمقنع، وهو الإمام المتبع].

وهذا أيضاً يدل على جملة من المسائل فيما يتعلق بتمسك الإمام أحمد رحمه الله وشدة وقوفه في هذه المسألة؛ لأن هذه المسألة مسألة مفصلية تقتضي التبديل, فلو أقر فيها الإمام أحمد لأصبح القول قولاً واحداً بعد ذلك, فاستمسك بهذا الأمر.

ضرورة ترسيخ مسائل أصول الدين والعقائد في الناس

كذلك أيضاً مسائل الدين -وإن لم يتعطل في ذلك عمل العقائد القلبية- ينبغي أن تؤصل وأن ترسخ في الناس, فقد يقول قائل كما يقوله بعض الكلاميين من المعاصرين وغيرهم, الذين يقولون: ما المانع أن يكون كلام الله عز وجل مخلوقاً, إذا كانت المعاني هي المعاني, والصلاة هي الصلاة, والحج هو الحج, ولم نغير من ذلك شيئاً, ونتعبد بما فيه من أحكام, وأن الله سبحانه وتعالى أرادها سواء كان ذلك مخلوقاً أو ليس بمخلوق؛ فالصلاة لن تتغير, والأخبار عن أمور الغيب لن تتغير, والعصمة بجهة حتميته وعدم ورود الباطل إليه من بين يديه ولا من خلفه, لا يمكن أن يرد على هذا المعنى, إذاً ما الإشكال في هذا أن يكون هذا الخلاف هو خلاف يسير جداً ولا يعنف في مثل هذا الأمر؟ نقول: إن إقرار مسائل العقائد ورسوخها هو أمر من أصول الدين, فلا يجوز للإنسان أن يقول: إن هذه المسائل هي خلاف لفظي لا يؤثر ذلك على العمل, نقول: إن تأثيرها على العمل الباطن أشد خطراً من تأثيرها على العمل الظاهر, فبمجرد اعتقاد الإنسان أن هذا هو كلام لله سبحانه وتعالى وأنه مخلوق يلزم من ذلك جملة من اللوازم الفاسدة, ولو لم يؤثر ذلك على عمله, فيؤثر ذلك على اعتقاده من جملة من اللوازم من مخالفة أمر الله سبحانه وتعالى الظاهرة بالنسبة لكلام الله جل وعلا, كذلك أيضاً من أنه يلزم من ذلك جملة من اللوازم التي ربما يتشبث بها بعض أهل الطوائف الذين يأتون بعد ذلك, الذين يقولون بقول ثم لا يحسبون لوازمه تطرأ بعد قرن أو بعد قرنين, فالذين يقولون: إن كلام الله عز وجل مخلوق, يلزم من ذلك أنهم يأتون بصفة أخرى, والصفة الأخرى أنها مخلوقة, وهكذا, ويتسلسلون حتى ينتهي ذلك الأمر, ولهذا وقف أئمة السنة في هذا الباب حجر عثرة في كثير من أمثال هذه الأقوال, وأوقفوا كثيراً من مد الأقوال الضالة, ولهذا نقول: إن الأقوال الباطلة الكفرية ما تسلسلت إلا وقد سبقها شبهات, لهذا نقول: إن الإنسان لا يمكن أن يكفر ابتداء إلا وقد وقع في كبيرة, ولا يقع في كبيرة إلا وقد وقع في صغيرة, ولا يقع في صغيرة إلا وقد وقع في مكروه, ولا يقع في مكروه إلا وقد أوغل في المباح, فسنة لله عز وجل هي كونية, وكثير من المسائل التي ترد ويتسامح فيها الناس تولد شيئاً من المعاني, انظروا مثلاً إلى كلام المتكلمين فيما يتعلق في الأخبار ظناً ويقيناً, يقولون: الأخبار تنقسم إلى قسمين: ظني, ويقيني, وهذا كان بعد قولهم: متواترة وآحاد, فجاء بعد ذلك الظن واليقين, قال بعض العلماء: إن هذا التقسيم تقسيم سهل جداً ويسير, فإنه لا حرج على الناس أن يأخذوا بذلك, جاء بعدهم جيل آخر فقالوا: أخبار الظن -أي: أخبار الآحاد- لا نأخذ بها في الدين؛ لأن الله عز وجل يقول: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات:12]؛ فهذا الجيل الجديد جاء إلى علم مدون يريد أن يبتكر مسائل, فابتكر جملة من المسائل جديدة بناها على قول ينبغي ألا يكون, ثم تولد لدى الأمة طوائف في هذا الأمر, فمنهم من رد أخبار الآحاد في العقائد, ومنهم من ردها كلها, ومنهم من ردها في أصول الديانة وأعلام المسائل وقبلها فيما عدا ذلك. ولهذا ننبه أن بعض المسائل يراها الإنسان صغيرة, ويجد أن أهل السنة يقفون وقوفاً شديداً, ليس لذاتها, لو علموا أنها تتوقف عليها ربما لما شددوا عليها تشديداً كبيراً, ولكن للوازمها العظيمة التي ربما تطرأ عليها التي تنقض دين الإنسان بالكلية.

قال المؤلف رحمه الله: [قال رحمه الله: هذه ألفاظ محمد بن جرير التي نقلتها نفسها إلى ما هاهنا من كتاب الاعتقاد الذي صنفه.

قلت: وهو- أعني محمد بن جرير- قد نفى عن نفسه بهذا الفصل الذي ذكره في كتابه كل ما نسب إليه، وقذف به من عدول عن سبيل السنة، أو ميل إلى شيء من البدعة، والذي حكاه عن أحمد ﷺ وأرضاه أن اللفظية].

ودائماً في أزمنة الفتن والصراعات والخلافات في مسائل العقائد, وكذلك الفروع تنسب أقوال ليست بصحيحة, خاصة من الأئمة المعتبرين, كل ينقل قولاً يؤيد قولاً, كما جاء عن البخاري رحمه الله -وهو إمام في السنة- في إشاعة هذا القول؛ مسألة اللفظ عنه عليه رحمة الله, وهو ما قال إلا كلاماً مجملاً صحيحاً, حينما سئل: لفظي بالقرآن مخلوق؟ قال: القرآن كلام الله وأفعال العباد مخلوقة, يعني: لا تدخل في مسألة بينهما, قد كفيت ذلك.

تدرج أهل البدع في نشر بدعهم

قال المؤلف رحمه الله: [قال: والذي حكاه عن أحمد ﷺ وأرضاه أن اللفظية جهمية فصحيح عنه، وإنما قال ذلك لأن جهماً وأصحابه صرحوا بخلق القرآن، والذين قالوا باللفظ تدرجوا به إلى القول بخلق القرآن، وخافوا أهل السنة في ذلك الزمان].

وهذا ما أشار إليه المصنف رحمه الله, وكما تقدم أنه قد عاش في القرن الرابع أنهم يريدون أن يتدرجوا في ذلك ليصلوا إلى القول بخلق القرآن, ولهذا الطوائف الذين يقولون: إن القرآن كلام الله ليس بمخلوق يقولون: إن لفظي بالقرآن مخلوق, هذه الطائفة إن وجدت عددها ألف أو نحو ذلك, بعد عشر سنوات أو عشرين سنة ستنقسم إلى أقسام سيذهب نصفها ويلتزم بلازم أن القرآن مخلوق, ولهذا يرد هذا القول للازمه, وهذا ما ينبغي أن يكون عليه العالم والمفتي؛ ألا ينظر نظراً قاصراً إلى مسألة, بل ينظر إلى لوازمها التي تؤدي وتفضي إليها.

توجيه قول الإمام أحمد: (اللفظية شر من الجهمية)

قال المؤلف رحمه الله: [وخافوا أهل السنة في ذلك الزمان من التصريح بخلق القرآن، فذكروا هذا اللفظ وأرادوا به أن القرآن بلفظنا مخلوق، فلذلك سماهم أحمد رحمه الله جهمية. وحكي عنه أيضا أنه قال: اللفظية شر من الجهمية].

وذلك أن اللفظية في قولهم: لفظي بالقرآن مخلوق؛ أن الجهمية جهمية صريحة, وأما الذين يقولون باللفظ يريدون جر من لم يسلم لقولهم إلى القول بقول متوسط عتبة إلى القول بقول الجهمية, فالجهمية الناس تنفر من قولهم؛ باعتبار أن الكلام صفة من صفات الله سبحانه وتعالى, لا يقولون بخلقه, فهؤلاء يجرون من لم يقل بقول الجهم ونفر منه إلى القول به, ولهذا

قوله: (شر) أي: أخطر من الجهمية, فالكافر الصريح أو المبتدع الضال صراحة دون من التبس على الناس أمره وهو يدعو الناس إلى عقيدة من كان ضالاً صراحة فيكون ذلك أخطر, ولهذا كثير من العلماء يتكلمون على بعض الطوائف ويقولون: إنهم شر من اليهود والنصارى أو أخطر من اليهود والنصارى, وإن كان اليهود والنصارى قد اجتمع فيهم الشر كله إلا أن أمرهم بين ظاهر, وأما طوائف من المبتدعة والضلال الذين دخلوا في كثير من أبواب المكفرات لأنهم يلبسون الحق بالباطل ببعض الأدلة وبعض الأصول, من كلام الله وكلام رسول الله ﷺ, فهؤلاء هم الذين يستقطبون الناس إلى أقوالهم ليكونوا عتبة إلى الضلال أكثر من اليهود والنصارى.

قال المؤلف رحمه الله: [وأما ما حكاه مُحَمَّد بن جرير عن أحمد رحمه الله أن من قال: لفظي بالقرآن غير مخلوق فهو مبتدع، فإنما أراد أن السلف من أهل السنة لم يتكلموا في باب اللفظ].

وهذا على ما تقدم؛ أن مسألة الابتداع الإحداث, لست بحاجة إلى القول بمثل هذا.

تشديد العلماء في مصطلحات مسائل العقائد أكثر من مسائل الفروع

قال المؤلف رحمه الله: [ولم يحوجهم الحال إليه، وإنما حدث الكلام في اللفظ من أهل التعمق وذوي الحمق الذين أتوا بالمحدثات، وعتوا عما نهوا عنه من الضلالات وذميم المقالات، وخاضوا فيما لم يخض فيه السلف].

ولهذا العلماء يشددون في مسائل الإحداث في مسائل الديانة وفي العقائد أكثر من مسائل الفروع؛ باعتبار أن مسائل الفروع أمرها سهل, فما يرد من مصطلحات في كلام العلماء تجد أن العلماء لا يشددون في ذلك, فمثلاً: في الفروع فيما يتعلق مثلاً بمصطلح تحية المسجد, تحية المسجد كمصطلح هل هو موجود في كلام النبي ﷺ؟ ليس بموجود في كلام النبي ﷺ, فهو من الألفاظ الحادثة, فالمراد بالصلاة في المسجد أن يأتي الإنسان ويصلي في المسجد ركعتين حتى لا تكون المساجد موضعاً للمبيت والحديث كالمجالس التي يغشاها الناس, فينبغي للإنسان ألا يدخل المسجد إلا وقد صلى ركعتين؛ لأننا لو قلنا بهذا المصطلح أي: بتحية المسجد لزم من ذلك جملة من الأقوال, لكن لم تكن شديدة كمسألة العقائد؛ لأنه يلزم من ذلك أقوال كبيرة جداً مكفرة, أما مثل هذه المسألة تجد العلماء في كتب الفقه يتسامحون فيها من باب التقرير؛ لأنه يتنازعها أمران:

الأمر الأول: هو التقريب, أي: مصلحة التقريب.

الأمر الثاني: اللوازم الأخرى, قالوا: نستطيع أن نتدارك اللوازم الأخرى, ومصلحة التقريب هي مسألة نفارق بينها وبين بقية المسائل, وذلك أن تجد من يتكلم على المسألة مثلاً مسألة تحية المسجد ويقول: يلزم من ذلك بعض اللوازم, من ذلك: ما يذكره بعض الفقهاء يقولون: إذا دخل الإنسان يصلي تحية المسجد هل يجوز له أن يجمع بينها وبين نية الوضوء

أو صلاة الاستخارة أو غير ذلك؟ لكننا نقول: نحن لسنا بحاجة إلى ذلك؛ لأن تحية المسجد في هذه اللفظة لا وجود لها, وأن المراد بذلك هو عمارة المسجد؛ عمراتها بصلاة استخارة أو بصلاة توبة أو صلاة وضوء أو غير ذلك فلا حرج في هذا؛ لأنا لو جعلناها مستقلة لجعلنا الإنسان إذا دخل المسجد يريد أن يصلي الوتر نقول: لا يقبل منك حتى تصلي ركعتين, هذه ركعة واحدة, ولو كنا ظاهرية لالتزمنا ودخل الإنسان أراد أن يصلي أربع ركعات متصلات نقول: لا, حتى تصلي ركعتين, نقول: ليس المراد بذلك أن تأتي بركعتين بالنص كما جاء عن النبي ﷺ؛ لأن المراد من ذلك أن تأتي بصلاة والغالب ركعتين, سواء أتيت بركعة للوتر, صليت بمسجد ثم خرجت, أتيت بعمارة المسجد, وإذا أتيت بأربع أو أكثر من ذلك نقول: مما لا حرج عليك, بل هو زيادة خير.

قال المؤلف رحمه الله: [وخاضوا فيما لم يخض فيه السلف من علماء الإسلام، فقال الإمام: هذا القول في نفسه بدعة، ومن حق المتسنن أن يدعه، ولا يتفوه به، ولا بمثله من البدع المبتدعة، ويقتصر على ما قاله السلف من الأئمة المتبعة؛ أن القرآن كلام الله غير مخلوق، ولا يزيد عليه إلا تكفير من يقول بخلقه].

حكم من ادعى الزيادة والنقصان في القرآن

قال المؤلف رحمه الله: [أخبرنا الحاكم أبو عبد الله الحافظ حدثنا أبو بكر مُحَّد بن عبد الله الجراحي بمرو، حدثنا يحى بن ساسويه , حدثنا عبد الكريم السكري قال: قال وهب بن زمعة : أخبرني علي الباشاني قال: سمعت عبد الله بن المبارك يقول: من كفر بحرف من القرآن فقد كفر بالقرآن، ومن قال: لا أؤمن بهذه اللام فقد كفر].

وذلك أن كلام الله عز وجل قد حفظه الله سبحانه وتعالى من الزيادة والنقصان, والزيادة والنقصان فيه على معنيين: زيادة في الحروف, وهذا المعنى الأول, المعنى الثاني: زيادة في المعاني, فالمعنى الأول: الزيادة في الحروف أو النقصان فيها كفر بالله سبحانه وتعالى؛ لأن الله عز وجل قد حفظ كتابه؛ كما في قوله جل وعلا: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر:9], فإذا قال الإنسان: إن هذه الزيادة هي زيادة ليست بصحيحة أو هذا الحرف ليس من القرآن؛ زيد فيه أو نحو ذلك؛ فقد كفر بالله سبحانه وتعالى, يخرج من هذا مسألة الرسم, مما يختلف فيه القراء في مسائل الرسم, وهذه مسائل الرسم هذه باعتبار أنها داخلة في مسائل القراءات, والقرآن قد أنزل على سبعة أحرف.

أما النوع الثاني وهو: ما يتعلق بالزيادة والنقصان في مسألة المعاني, فنقول: مسألة المعاني بحسبها, فإذا جاء الإنسان بمعنى لم يأت بالشريعة ونسبه للشريعة نقول: هذا المعنى لا يخلو إذا تضمن معنى كفرياً كفر بالله سبحانه وتعالى, وإذا تضمن معنى من المعاني البدعية أو دون ذلك فنقول: قد ابتدع وأحدث, ومن تعمد الكذب على الله سبحانه وتعالى فقد كفر بالله سبحانه وتعالى؛ كالذي يأتي بشيء من الأحكام الشرعية والتشريع الذي لم يشرعه الله سبحانه وتعالى, فيقول: هذا حكم الله عز وجل؛ كذباً على الله سبحانه وتعالى, فهذا مما لا شك بكفره, وإنما اختلف العلماء في الكذب على رسول

الله ﷺ هل يدخل في مسألة التكفير أم لا؟ فذهب جماعة من العلماء إلى القول بكفره, وذهب إلى هذا إمام الحرمين الجويني.

الدرس السادس

يعتقد أصحاب الحديث ويشهدون أن الله سبحانه فوق سمواته, مستو على عرشه, كما نطق بذلك الكتاب والسنة, وقد تواردت أقوال أئمة السلف في التشنيع على من أنكر استواء الله على عرشه, وجعلوه كافراً, مباح الدم والمال؛ وذلك لأنه أنكر صفة من صفات الله تعالى.

عقيدة أهل الحديث في علو الله واستوائه على عرشه

قال المؤلف رحمه الله: [ويعتقد أصحاب الحديث ويشهدون أن الله سبحانه فوق سبع سمواته, على عرشه مستو, كما نطق به كتابه في قوله عز وجل في سورة الأعراف: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [الأعراف:54], وقوله في سورة يونس: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ [يونس:3], وقوله عز وجل في سورة الرعد: ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [الرعد:2], وقوله في سورة الفرقان: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴾ [الفرقان:59], وقوله في سورة السجدة: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [السجدة:4], وقوله في سورة طه: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [طه:5], وأخبر الله سبحانه عن فرعون اللعين أنه قال لهامان : ﴿ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ﴾ [غافر:36–37], وإنما قال ذلك؛ لأنه سمع موسى عليه السلام يذكر أن ربه في السماء, ألا ترى إلى قوله: ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ﴾ [غافر:37], يعني: في قوله: (إن في السماء إلهاً), وعلماء الأمة وأعيان الأئمة من السلف رحمهم الله لم يختلفوا في أن الله تعالى على عرشه].

والأمر في إثبات علو الله سبحانه وتعالى مستفيض, وعلو الله سبحانه وتعالى أعم من الاستواء والاستواء أخص, ويلزم من الاستواء العلو, ولا يلزم من العلو الاستواء, ولكن قد ثبت واستقر واستفاض في نصوص الوحي من كلام الله وكلام رسول الله ﷺ علو الله عز وجل واستوائه على عرشه, ولهذا نثبت استواء لله عز وجل على الحقيقة, ولا ندخل في تشبيه ولا في تكييف؛ لأنه لا يمكن للإنسان أن يكيف إلا وقد وجد شبيهاً ومثيلاً, والله عز وجل يقول: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ [الشورى:11].

قال المؤلف رحمه الله: [يثبتون من ذلك ما أثبته الله تعالى ويؤمنون به, ويصدقون الرب ﷻ في خبره، ويطلقون ما أطلقه سبحانه وتعالى من استوائه على عرشه، ويمرونه على ظاهره ويكلون علمه إلى الله تعالى، ويقولون: ﴿ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران:7], كما أخبر الله تعالى عن الراسخين في العلم؛ أنهم يقولون ذلك ورضي منهم فأثنى عليهم به].

وقول المصنف رحمه الله: (ويكلون علمه إلى الله) أي: علم الكيفية إلى الله سبحانه وتعالى, فهذا لله جل وعلا, وأما الإيمان بذلك فأمره إلى الله سبحانه وتعالى, وقد بينه في كتابه فيجب الإيمان به, وإثبات آثاره كذلك أي: آثار تلك الصفة أو ذلك الاسم, فنقول: إننا نكل علمه إلى الله إخباراً يعني: إثباتاً أو نفياً, وكذلك حقيقة وكيفية, فما بينه الله عز وجل لنا من الإخبار عنه وإثبات الحقيقة نثبته, وما حجبه الله عز وجل عن عباده ونفاه –وهو أنه ليس كمثله شيء– ننفيه, والإثبات والنفي في ذلك هو من إيكال العلم إلى الله سبحانه وتعالى.

أقوال السلف في استواء الله على عرشه وتشديدهم على من أنكره

قال المؤلف رحمه الله: [أخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن بن إبراهيم بن مُحَّد بن يحيى المزكي حدثنا مُحَّد بن داود بن سليمان الزاهد أخبرني علي بن مُحَّد بن عبيد أبو الحسن الحافظ حدثنا أبو يحيى بن كيسبة الوراق حدثنا مُحَّد بن الأشرس الوراق أبو كنانة حدثنا أبو المغيرة الحنفي حدثنا قرة بن خالد عن الحسن عن أبيه عن أم سلمة في قوله تعالى: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [طه:5], قالت: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإقرار به إيمان، والجحود به كفر.

وحدثنا أبو الحسن ابن أبي إسحاق المزكي ابن المزكي حدثنا أحمد بن الخضر أبو الحسن الشافعي حدثنا شاذان حدثنا ابن مخلد بن يزيد القهستاني حدثنا جعفر بن ميمون قال: سئل مالك بن أنس عن قوله: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [طه:5], كيف استوى؟ قال: الاستواء غير مجهول, والكيف غير معقول, والإيمان به واجب, والسؤال عنه بدعة, وما أراك إلا ضالاً, وأمر به أن يخرج من مجلسه.

أخبرنا أبو مُحَّد المخلدي العدل حدثنا أبو بكر عبد الله بن مُحَّد الإسفراييني حدثنا أبو الحسين علي بن الحسنحدثنا سلمة بن شبيب حدثنا مهدي بن جعفر بن ميمون الرملي عن جعفر بن عبد الله قال: جاء رجل إلى مالك بن أنس , يعني: فسأله عن قوله تعالى: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [طه:5], كيف استوى؟ قال: فما رأيته وجد من شيء كوجده من مقالته، وعلاه الرحضاء، وأطرق القوم, فجعلوا ينظرون الأمر به فيه، ثم سري عن مالك فقال: الكيف غير معقول، والاستواء غير مجهول، والإيمان به واجب, والسؤال عنه بدعه].

وعلى ما تقدم الكلام عليه في أن وقوف الإنسان عند النص وإثباته كما أمر الله عز وجل به هو اعتراف وإقرار بضعف الإنسان وقصوره, وعدم إدراكه ما بعد وغاب عنه, فالإنسان لا يؤمن إلا بمثله وبمثل له, وهذا المثيل سواء كان مشابهاً له أو مشابهاً لغيره

هو الذي ينقدح في ذهن الإنسان.

وقوله هنا: (الكيف غير معقول)؛ لأن الإنسان لا يمكن أن يعقل ما له مثيل, ومدارك الناس تتباين في هذا, كلٌ لديه من معرفة الأشياء والأعيان ما يختلف عن غيره, فالإنسان يؤمن بشيء قد رآه فيأنس به؛ لماذا؟ لأنه قد رآه كثيراً, وما لم يره يستوحش منه, فلو قدر أنك أتيت بشخص وقطعت يده ورجله ثم وضعته في غرفة أو وضعت معه اثنين وهم مقطوعي اليدين ولم ير إلا من كان مثله, ثم بعد عشر سنوات أو عشرين سنة أي: بعد تمييزه أخرجته للناس وهو يرى الأطراف فإنه يستوحش, ويقول: ما هذه التي تخرج من الناس؟ لأنه في حياته لا يرى إلا أناساً بلا أطراف, ويظن أن الناس قد ولدوا على هذا, فلما رأى الإنسان سوياً استوحش منه, ولهذا نقول: إن الإنسان لا يؤمن إلا بما رأى, ويستوحش ويقيس على ما عليه, ولهذا في قول الإمام مالك رحمه الله يقول: الكيف غير معلوم, يعني: غير مدرك, ليس له مثيل, لا في ذهن الإنسان ولا في واقعه, لا في ما يؤلف من المتشابهات, ولا أيضاً مما كان له عين واحدة فيستطيع الإنسان أن يقيس عليه غيره.

قال المؤلف رحمه الله: [وأخبرنيه جدي أبو حامد أحمد بسنده إلى جعفر بن عبد الله قال: جاء رجل إلى مالك بن أنس فقال: يا أبا عبد الله , ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [طه:5] , كيف استوى؟ قال: فما رأينا مالكاً وجد من شيء كوجده من مقالته, وذكر بنحوه.

وسئل أبو علي الحسين بن الفضل البجلي عن الاستواء, وقيل له: كيف استوى على العرش؟ فقال: إنا لا نعرف من أنباء الغيب إلا مقدار ما كشف لنا, وقد أعلمنا جل ذكره أنه استوى على عرشه, ولم يخبرنا كيف استوى.

أخبرنا أبو عبد الله الحافظ بسنده إلى عبد الله بن المبارك يقول: نعرف ربنا فوق سبع سموات, على العرش استوى, بائناً من خلقه, ولا نقول كما قالت الجهمية: إنه هاهنا, وأشار إلى الأرض].

وعلى ما تقدم, فإن استواء الله سبحانه وتعالى يتضمن علواً, وعلو الله عز وجل المجرد لا يتضمن استواء حتى يثبت في الدليل فثبت الأمران: علو الله عز وجل واستوائه, ولهذا جاء عن النبي ﷺ في الجارية التي سألها رسول الله ﷺ: (قال: أين الله؟ قالت: في السماء, قال: أعتقها فإنها مؤمنة), يعني: آمنت بخالق وبعلوه سبحانه وتعالى, والعلو على معنيين: علو ذات, وهو ما يتعلق باستواء الله سبحانه وتعالى, وعلو قدر, وهذا ما يجب على المؤمن أن يثبته لله سبحانه وتعالى.

حكم من أنكر استواء الله على عرشه

قال المؤلف رحمه الله: [وسمعت الحاكم أبا عبد الله الحافظ يذكر بسنده إلى مُحَمَّد بن إسحاق بن خزيمة يقول: من لم يقل بأن الله عز وجل على عرشه قد استوى فوق سبع سمواته فهو كافر بربه، حلال الدم، يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه، وألقي على

بعض المزابل؛ حتى لا يتأذى المسلمون ولا المعاهدون بنتن رائحة جيفته، وكان ماله فيئاً, لا يرثه أحد من المسلمين، إذ المسلم لا يرث الكافر، كما قال النبي ﷺ: (لا يرث المسلم الكافر, ولا الكافر المسلم)].

وذلك لأنه يكذب بظاهر القرآن الدال على استواء الله عز وجل على عرشه, وإذا لم يكن الاستواء على معنى أراده الله سبحانه وتعالى ويتضمن ذلك علواً فلم يكن ثمة حاجة إلى ذكر العرش, ولقال: استوى الله سبحانه وتعالى.

عقيدة أهل البدع في استواء الله على عرشه والرد عليها

وكذلك أيضاً من يحمله على أنه الاستيلاء, فيقول: إن الله عز وجل استولى, فهذا يتضمن معاني فاسدة, من هذه المعاني: أنه يلزم من قول الاستيلاء أن الأمر كان لغير الله ثم آل إليه, وهذا ينزه عنه الله سبحانه وتعالى أن يكون ثمة أحد يضاهي الخالق جل في علاه.

كذلك أيضاً فإن مسألة الاستيلاء لا تربط بعرش, فالذي يستولي يستولي على كل شيء, ولهذا نقول: إن الإنسان يثبت الاستواء لله سبحانه وتعالى ولا يكيف, ولا يشبه الله عز وجل بغيره, ويثبت ما جاء من المعاني في كلام الله سبحانه وتعالى ويقرها كما جاءت؛ كالمعية, فالله عز وجل أثبت أنه مع عباده, ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ [الحديد:4], مع العباد في مسيرهم وذهابهم ومجيئهم ونحو ذلك, يثبتها الإنسان ويمرها كما جاءت, ولهذا نقول: إن كثيراً ممن نفى استواء الله سبحانه وتعالى وحمله على معنى من المعاني وهي القوة والسيطرة وغير ذلك من المعاني, نقول: إن مثل هذه المعاني إنما حملهم عليها أنهم وجدوا بعض الآيات تثبت معية الله عز وجل لعباده, قالوا: إذا كان مع عباده أينما كانوا فكيف يكون الاستواء؟ لكننا نقول: إننا نثبت معية الله ونثبت الاستواء, وإذا كان هذا الاستفصال في ذهن الإنسان أنه لا تتحقق المعية إلا بنفي الاستواء فهذا سببه تشبيه وقع في ذهن الإنسان؛ أنه إذا استوى على موضع لم يكن مصاحباً لغيره, فلما وقع في ذهنه وشبه نفسه جعل الله عز وجل كذلك, فنفى أمراً وأثبت الآخر, أو نفى الأمرين, ولهذا الذين غلوا في هذا الجانب أي: في جانب إثبات المعية لله سبحانه وتعالى وعطلوا استواء الله سبحانه وتعالى وقعوا في معاني أيضاً فاسدة, فقالوا: إن الله عز وجل مع عباده في ذاته, ولزم من ذلك أنهم حينما سئلوا: هل الله عز وجل في كل مكان؟ قالوا: نعم في كل مكان, فإذا قيل: هل الله عز وجل في أجوفنا؟ قالوا: نعم الله عز وجل في أجوافنا, فإذا قيل: هل الله عز وجل في الحشوش ومواضع النجاسات تعالى الله عن ذلك؟ قالوا: الله عز وجل أيضاً في هذه المواضع, وهل الله عز وجل حال في الأصنام والأوثان؟ قالوا: حال فيها؛ لأنه معها أينما كانت, وعلى هذا لزم من قولهم أنه لا فرق بين خالق ومخلوق, فإنه إذا كان الله هنا وهناك وهو حال في كل شيء إذاً فأين الخالق؟ وأين المخلوق؟ فدخلوا في حيرة, حتى قال أحدهم:

العبد رب والرب عبد فياليت شعري من المكلف

يعني: من المكلف منهم؟ يعني: إذا قلنا: إن الله عز وجل فينا وفي هذا الموضع وفي هذا الموضع بذاته فمن هو المكلف؟ ومن هو المشرك أيضاً إذا كان الإنسان يسجد لصنم الله قد حل فيه؟ ولهذا دخلوا في مسألة الحلول فقالوا: الإنسان ما عبد إلا الله, فإذا سجد لصنم أو وثن ما سجد إلا لله جل وعلا, فدخلوا في مسألة الحلول والفناء وغير ذلك, حتى إن أحدهم رأى صاحباً له وقع في نهر فأسقط نفسه خلفه, قال: سقطت أنت وظننتك أنك أنا, يعني: أنت الذي سقطت فظننت أني أنا الساقط فسقطنا سوياً, فدخلوا في متاهات من الفلسفة والقول الذي لا معنى له في مسائل الحيرة في هذا الباب, وأشركوا وألحدوا مع الله عز وجل, ولهذا على هذا الاعتقاد قالوا: لا يوجد كافر في الأرض؛ لأن الإنسان ما عبد إلا الله, وطبعاً الإنسان إذا اعتقد عقيدة ثم التمس لها دليلاً فإنه يجد من المتشابهات ما تعضد قوله, ولهذا قالوا: إذا عبد الإنسان الصنم والله حال فيه فما عبد إلا الله؛ لأنه توجه إلى الله وعبده, فيلزم من ذلك نفي أحقية وصحة الجهاد والقتال وخلق النار وعقاب الناس وغير ذلك, فتأولوا كثيراً من المعاني السابقة كالنار وغير ذلك, وقالوا: هو بناء على هذا الأصل, ويتشبثون ببعض المعاني كقول الله عز وجل: ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء:23], قالوا: قضى يعني: قدر, أي: القضاء والقدر, أي: قدر الله أن الإنسان لا يعبد إلا الله, فالذي يعبد الصنم والشجر ويسجد للشمس والقمر فما عبد إلا الله سبحانه وتعالى, ولو أكملوا الآية لعرفوا النقض ذلك, ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [الإسراء:23], يلزم من ذلك أن من لطم أباه أنه محسن لأبيه, وهذا لا يقول به عاقل.

والمعنى في قول الله عز وجل: ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء:23], يعني: وصى وأمر, كما قال بذلك جماعة؛ كعبد الله بن مسعود وكذلك عبد الله بن عباس وغيرهم.

عقيدة الشافعي في علو الله واستوائه على عرشه

قال المؤلف رحمه الله: [وإمامنا أبو عبد الله مُحَمَّد بن إدريس الشافعي ﷺ احتج في كتابه المبسوط في مسألة إعتاق].

وهذا يدل على أن هذا المصنف رحمه الله هو من أئمة الشافعية, وقوله: إمامنا مُحَمَّد بن إدريس الشافعي , يعني: جرى على اعتقاده, وهذا دليل أيضاً على أن اعتقاد الإمام الشافعي رحمه الله هو كاعتقاد الأئمة من أسلافه واعتقاد أهل الحديث, وأن مدرسة الإمام الشافعي ليست على مدرسة كلامية, مع بصره ومعرفته بكلام المتكلمين وأهل النظر في ذلك إلا أنه جانبهم وتمسك بالدليل, وحذر من الخوض في مسائل الكلام؛ لأنها تفضي إلى كثير من معاني الشر؛ من التأويل والتكييف وغير ذلك, وغلب على الشافعية من أتباع الإمام الشافعي رحمه الله القول بقول أبي الحسن الأشعري , حتى جعلوا أن هذه العقيدة هي عقيدة الإمام الشافعي وليس كذلك, والإمام الشافعي رحمه الله منها براء.

قال المؤلف رحمه الله: [احتج في كتابه المبسوط في مسألة إعتاق الرقبة المؤمنة في الكفارة, وأن غير المؤمنة لا يصح التكفير بها بخبر معاوية بن الحكم , و (أنه أراد أن يعتق الجارية السوداء لكفارة, وسأل رسول الله ﷺ عن إعتاقه إياها, فامتحنها رسول الله ﷺ, فقال لها: من أنا؟ فأشارت إليه وإلى السماء), يعني: أنك رسول الله الذي في السماء, فقال ﷺ: (أعتقها فإنها مؤمنة), فحكم رسول الله ﷺ بإسلامها وإيمانها لما أقرت بأن ربها في السماء, وعرفت ربها بصفة العلو].

وهذا معلوم, حتى بفطرة الإنسان, بإثبات علو الله سبحانه وتعالى, أن الإنسان إذا أراد أن يسأل الله توجه إلى السماء, ولو كان ينفي علو الله جل وعلا, وهذا معلوم حتى في البهائم, إذا تضرعت أو تضررت أو تألمت رفعت رأسها إلى السماء, وهذا معلوم بالفطرة, كذلك أيضاً معلوم ومستقر بالفطرة أن القاهر القوي في علو وفي ارتفاع, وهذا يؤمن به سائر أهل الفطرة.

قال المؤلف رحمه الله: [وإنما احتج الشافعي رحمة الله عليه في قولهم بجواز إعتاق الرقبة الكافرة في الكفارة بهذا الخبر, لاعتقاده أن الله سبحانه فوق خلقه, وفوق سبع سماواته على عرشه, كما معتقد المسلمين من أهل السنة والجماعة, سلفهم وخلفهم, إذ كان رحمه الله لا يروي خبراً صحيحاً ثم لا يقول به].

وهذه قاعدة؛ أن الأئمة عليهم رحمة الله إذا رووا أحاديث عن النبي ﷺ ولم يرد عنهم قول في مسألة من المسائل فما في الحديث هو قول له, وهذا عن الإمام مالك , وكذلك الإمام أحمد رحمه الله, وكذلك الإمام الشافعي , وأما أبو حنيفة لقلة الأحاديث التي يرويها عن النبي ﷺ قل نسبة ذلك إليه, ولهذا المالكية يقولون: إن ما ذكره الإمام مالك رحمه الله في الموطأ من أحاديث فهو مذهبه وإن لم ينص عليه, وكذلك الإمام أحمد رحمه الله اختلف أصحابه فيما ذكره في كتابه المسند من أحاديث ولا يعرف له قول في مسألة تضمنها الخبر؛ هل هذا الحديث هو قول الإمام أحمد أو كان عنه من الروايات, برواية أو روايتين أو ثلاثة, وكان حديث في مسنده يعضد أحد هذه الروايات قالوا: وهو عاضد ومرجح له, اختلف الأصحاب في ذلك, والأرجح أن الإمام أحمد لا يخالف ما يورده في المسند, فما يورده في المسند من أحاديث هو مذهب له إذا لم يكن ثمة قول صريح في مسألة من المسائل يخالف ذلك المعنى, كذلك أيضاً الإمام الشافعي عليه رحمة الله.

قال المؤلف رحمه الله: [وقد أخبرنا الحاكم أبو عبد الله رحمه الله بسنده إلى الشافعي رحمه الله يقول: إذا رأيتموني أقول قولاً وقد صح عن النبي ﷺ خلافه فاعلموا أن عقلي قد ذهب].

والمراد بذلك أن عقلي قد ذهب أنه طرأ على الإنسان من السهو والغفلة والنسيان, وليس المراد بذلك الجنون, ولكن أني خلفت الدليل عن سهو وغفلة, ونحو ذلك.

قال المؤلف رحمه الله: [قال الحاكم رحمه الله: سمعت أبا الوليد غير مرة يقول: حدثت عن الزعفراني أن الشافعيرحمه الله روى يوماً حديثاً, فقال السائل: يا أبا عبد الله! تقول به؟ قال: تراني في بيعة أو كنيسة؟ ترى علي زي الكفار؟ هو ذا تراني في مسجد المسلمين, على زي المسلمين, مستقبل قبلتهم, أروي حديثاً عن النبي ﷺ ثم لا أقول له؟ قال أبو عثمان : والفرق بين أهل السنة وبين أهل البدع أنهم إذا سمعوا خبراً في صفات الرب ردوه أصلاً, ولم يقبلوه ... ثم تأولوه بتأويل يقصدون به رفع الخبر من أصله وإبطال عقولهم وآرائهم فيه, ويعلمون حقاً يقيناً أن ما قاله رسول الله ﷺ فعلى ما قاله, إذ هو كان أعرف بالرب ﷻ من غيره, ولم يقل فيه إلا حقاً وصدقاً ووحياً, قال الله عز وجل: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ [النجم:3-4]].

لأنه لا أعلم من الشيء بنفسه, ولا أعلم من الله عز وجل منه بنفسه, ولا أعلم أيضاً منه بعده من رسول الله ﷺ الذي يبلغ عنه, ومن أدلة إثبات العلو لله عز وجل: (أن النبي ﷺ عرج به إلى السماء للقاء ربه سبحانه وتعالى).

ضرورة التسليم بما جاء عن الله ورسوله من مسائل الاعتقاد

قال المؤلف رحمه الله: [قال الزهري إمام الأئمة وغيره من علماء الأئمة ﷺ: على الله البيان, وعلى الرسول البلاغ, وعلينا التسليم].

والتسليم المراد بذلك: أن الإنسان إذا ظهرت له العلة أو لم تظهر عليه أن ينقاد لما جاء من معنى ولو لم يقبله عقلاً, وأن يتهم الإنسان عقله فيما خرج عنه؛ لأن الإنسان لا يدرك كل شيء, ولا يستوعب كل شيء, وربما تحير إذا أطال التأمل في دليل من الأدلة أو نحو ذلك, باعتبار أن عقل الإنسان وقلبه كذلك إنما هو وعاء يسير, فإذا أراد أن يعرف كل حقيقة استحال منه ذلك وازداد تحيراً, فإذا قلنا: إن علم الله عز وجل لا حد له ولا حصر, وعقل الإنسان لا يستوعب من العلوم إلا شيئاً يسيراً؛ كحال الكأس اليسير إذا أراد الإنسان أن يفيض فيه ماء البحر ثم صبه عليه أي: صبه على كأس يسير؛ فقام البحر بغمس وطمر ذلك الإناء فيه وطويه, فازداد عقل الإنسان وقلبه حيرة, وعليه ينبغي أن يسلم لما جاء عن الله سبحانه وتعالى من أخبار, ولهذا رسول الله ﷺ عليه البلاغ, وعلى الأمة التسليم, ولهذا نقول: إن البحث عن العلل والإيغال في ذلك يعلق الإنسان بها ويجعله يتوقف عن التسليم بها إذا لم يجد من ذلك علة ظاهرة, ولكن نقول: لا يعطل الإنسان العلل, ولكن لا يؤمن فيها؛ لأن ذلك يعارض التسليم, فلو بحث الإنسان في كل علة من علل التشريع وأراد أن يوجد من ذلك شيئاً, وإذا لم يوجد فإنه يرجع الإنسان إلى شيء من الحيرة والتردد في هذا, هذا يورثه شيئاً من بعض التسليم, ولكن إن وجد علة ظاهرة تمسك بها ودعته ذلك إلى شيء من قوة الإيمان والتصديق والثبات, وإذا لم يجد علة سلَّم وآمن, والله عز وجل فصل الأحكام, فأمر بالصلوات الخمس, ولماذا جعلها بمثل هذا العدد؟ ولماذا جعل الفجر ركعتين والمغرب ثلاثاً والبقية أربعاً؟ ولماذا جعل الجهرية في مواضعها, وجعل السرية في مواضعها؟ نقول: هذه لحكمة أرادها الله سبحانه وتعالى, ولماذا جعل الله عز وجل الإنسان في صلاته يقبض هذا القبض؟ وكذلك

أيضاً في استقباله للقبلة, وتغيير الله عز وجل القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام؟ وغير ذلك من الأمور ينبغي التسليم فيما أخبر الله سبحانه وتعالى وأمر به, ولهذا نقول: إن من علامة أهل الإيمان والتصديق أنهم يسلمون بما أخبر الله عز وجل به من غير ربط ذلك بقناعة الإنسان وعقله؛ لأن هذا إقرار بضعف الإنسان وعدم إدراكه, وكثير من العلل التي يبحث عنها الإنسان ولا يؤمن إلا بفهم العلة؛ كحال الإنسان الذي معه كأس يقول: لا أؤمن بهذا البحر حتى يستوعبه الكأس, نقول: عقلك صغير, فإذا جاء البحر وفاض إليه لم يكن لديك قدرة على استيعاب ماء البحر, ولو أراد الله عز وجل أن يعلمك إياه ما كنت أهلاً لذلك؛ لضعف عقل الإنسان حتى يخلق الله عز وجل له عقلاً آخر, فيدرك حينئذ الإنسان تلك العلة ثم يبلغه الله عز وجل ذلك الأمر, ولهذا القصور هل هو في العلة أم في الإنسان؟ القصور في الإنسان, وجعل الله عز وجل الإنسان على نحو من القدرة العقلية, وكذلك أيضاً بجميع حواسه من السمع والبصر وغير ذلك, هل كل شيء يراه الإنسان؟ وهل يستطيع أن ينفي ما لا يراه؟ ثمة مخلوقات لا يراها الإنسان لكن لا يستطيع أن ينفيها, وهل كل شيء يسمعه الإنسان؟ ليس كل شيء يسمعه الإنسان, وليس له أن ينفي صوتاً للبعوض, أو صوتاً للذباب, أو صوتاً للرذاذ والهواء ونحو ذلك, نقول: لها أصوات لكن لا تدرك, وهل كل شيء يحس به الإنسان؟ لا, فربما جرى على الإنسان وعلى يده من الكائنات مما لا يدركه ولا يحس به, هذا قدرته التي جعله الله عز وجل عليه, وثمة شيء لا يدركه إلا الله سبحانه وتعالى, وإذا أراد الله عز وجل أن يدرك الإنسان ذلك؛ فإن الله عز وجل يغير خلقته حتى يدرك الأمر ذلك, والعقل هو من جملة الحواس لدى الإنسان التي يدرك بها الإنسان المعلومات, وما كان زائداً عنه لا يستطيعه الإنسان, ولهذا لما سأل موسى ربه جل وعلاه أن يراه قال: ﴿ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف:143], قال له: ﴿ قَالَ لَنْ تَرَانِي ﴾ [الأعراف:143]؛ لأن الله سبحانه وتعالى لم يجعل لعباده في هذه الدنيا رؤية الخالق سبحانه وتعالى إلا ويغير الله جل وعلا خلقة الإنسان, ويجعل له من القدرة ما يستطيع معها أن يرى الله سبحانه وتعالى, لهذا الله عز وجل تجلى للجبل فجعله دكاً, فأراد أن يبين لموسى أنك لا تستطيع, وإنما تجليت لغيرك لترى أثر تجلي الله سبحانه وتعالى له, وكيف كانت حاله, وأنك من ذلك أضعف, حتى يخلقك الله عز وجل على خلق وصفة من الإدراك أخرى ثم يمكنك الله عز وجل من رؤيته سبحانه وتعالى, ولهذا نقول: إن كثيراً من الحقائق لا يستطيع الإنسان إدراكها؛ كحال الشمس في زمن الظهيرة, إذا أراد الإنسان أن يطالعها هل يستطيع أن يديم النظر فيها؟ لا يستطيع, وكلما أدام النظر فيها رجع الضرر إليه؛ لماذا؟ لأن آلته لا تدرك هذا, كذلك الأصوات الشديدة التي تزعج الإنسان لا يستطيع, والإنسان إذا سمعها قام بوضع شئياً على أذنيه؛ لأنها بذاتها قوية بالنسبة له.

التصدي لأهل البدع باللسان والسنان

قال المؤلف رحمه الله: [قدم الجعد بن درهم على وهب بن منبه يسأله عن صفات الله تعالى فقال: ويلك يا جعد! بعض المسألة, إني لأظنك من الهالكين, يا جعد! لو لم يخبرنا الله في كتابه أن له يداً وعيناً ووجهاً لما قلنا ذلك فاتق الله, ثم لم يلبث جعد أن قتل وصلب, وخطب خالد بن عبد الله القسري يوم الأضحى بالبصرة, فقال في آخر خطبته: انصرفوا إلى منازلكم وضحوا بارك الله لكم في ضحاياكم, فإني مضح اليوم بالجعد بن درهم ؛ فإنه يقول: لم يتخذ الله إبراهيم خليلاً, ولم يكلم

موسى تكليماً, سبحانه وتعالى عما يقول الجعد علواً كبيراً, ونزل عن المنبر فذبحه بيده وأمر بصلبه].

وهذا لأنه قال وأنشأ هذا القول الكفري, وكما تقدم معنا أن الأقوال البدعية تنشأ عند الأعاجم إما بسوء قصد أو بحسن قصد, وقليل منها ما ينشأ عند العرب؛ وذلك لسلامة اللسان, ومنها ما ينشأ عند العرب ولكنه قليل, ودافعه في ذلك ليس سوء الفهم وإنما سوء الطوية إذا كانت لغته في ذلك صحيحة, ولهذا أغلب البدع العقائدية كمسألة القدر الذي أنشأها غيلان وغيره, وكذلك أيضاً مسألة خلق القرآن, وعلو الله سبحانه وتعالى, واستوائه على عرشه, وغير ذلك من المعاني نشأت عند من ضعفت لغته أو ساءت طويته, وانبرى لذلك في الصدر والزمن الأول جماعة من أئمة الحق, سواء كانوا من الغلاة أو كانوا من العلماء, فالعلماء بالحجة والبيان, والغلاة بالسنان وإقامة الحدود, ولهذا الله سبحانه وتعالى يقول في كتابه العظيم: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة:73], جاء عن عبد الله بن عباس وكذلك أيضاً أبي العالية و الربيع قال: جهاد الكفار بالسنان, وجهاد المنافقين باللسان, وألا يظهر منهم بدعة إلا وأقمت الحد عليهم, جاء هذا أيضاً عن عبيد الله بن أبي جعفر عن أبيه وغير ذلك كما رواه ابن جرير الطبري وغيره.

الدرس السابع

يثبت أصحاب الحديث نزول الرب سبحانه وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا, من غير تشبيه له بنزول المخلوقين، ولا تمثيل ولا تكييف, والأحاديث الدالة على نزول الرب سبحانه وتعالى بلغت حد التواتر, وإنكار أهل البدع لها ما وقع إلا بسبب تشبيههم نزول الخالق بنزول المخلوق.

عقيدة أهل الحديث في نزول الله عز وجل إلى السماء الدنيا

قال المؤلف رحمه الله: [ويثبت أصحاب الحديث نزول الرب سبحانه وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا, من غير تشبيه له بنزول المخلوقين، ولا تمثيل ولا تكييف, بل يثبتون ما أثبته رسول الله ﷺ، وينتهون فيه إليه، ويمرون الخبر الصحيح الوارد بذكره على ظاهره، ويكلون علمه إلى الله تعالى].

ذكر هنا إثبات نزول الله عز وجل إلى السماء الدنيا بعد ما ذكر الاستواء, وأنه لا تنافي بين الاستواء وبين نزول الله عز وجل إلى السماء الدنيا, وأما من يجعل بين ذلك تضاداً فإن حامله إلى ذلك شيء من التشبيه انقدح في ذهنه فانقلب على المعنيين, ولكن أهل الحديث يثبتون الاستواء لله عز وجل على عرشه, ويثبتون نزوله سبحانه وتعالى إلى السماء الدنيا نزولاً يليق بجلاله وعظيم سلطانه, فلا يشبهونه بشيء من المخلوقات, ولا يكيفونه على أي صفة كانت, باعتبار أن التكييف لا يمكن أن ينقدح في ذهن الإنسان إلا على تشبيه, فينفون ويمتنعون عن ذلك كله باعتبار عدم وروده, ويكلون أمره إلى الله سبحانه وتعالى.

وقد تقدم الإشارة معنا إلى أن الصفات لها لوازم, وكثير من اللوازم تكون سبباً للرجوع إلى ذات الصفة ونفيها كما تقدم الكلام عليه, وربما لبعض الصفات لوازم, وللصفات الأخرى لوازم أخرى, وهذه اللوازم تتعارض مع بعضها في دين الإنسان في الظاهر,

فيرجعون في ذلك إلى النفي, كما يتعلق بمسألة نزول الله عز وجل إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل, فينزل الله عز وجل ويبسط يده سبحانه وتعالى, فنقول حينئذ: إن تقلب الثلث في الليل, وتحول الزمان من بلد إلى بلد, لا ينفي ذلك استواء الله عز وجل على عرشه, فالله سبحانه وتعالى مستو, وهو نازل جل وعلا إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير, نثبت هذا ونثبت هذا, وأما اللوازم التي تنقدح في ذهن الإنسان بتنافي اجتماع هاتين الصفتين؛ فذلك دافعه تشبيه الإنسان للخالق بالمخلوق سبحانه وتعالى, وهذا منتفي, وينتفي من ذلك تبعاً اللوازم التابعة له.

إثبات أهل الحديث لصفة المجيء والإتيان لله سبحانه وتعالى

قال المؤلف رحمه الله: [وكذلك يثبتون ما أنزله الله عز اسمه في كتابه، من ذكر المجيء والإتيان المذكورين في قوله عز وجل: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ ﴾ [البقرة:210], وقوله عز اسمه: ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر:22].

قال: قرأت في رسالة الشيخ أبي بكر الإسماعيلي إلى أهل جيلان: أن الله سبحانه ينزل إلى السماء الدنيا على ما صح به الخبر عن الرسول ﷺ].

واقتران مجيء الله عز وجل والملائكة لا يعني من ذلك المساواة, فالاقتران في ذلك شيء, فلله عز وجل مجيء, وللملائكة كذلك مجيء, والله سبحانه وتعالى نفى المثلية له سبحانه وتعالى, وهذا ينتفي عن المخلوقين من الناس, وكذلك أيضاً عن غيرهم من الملائكة وغيرهم.

قال المؤلف رحمه الله: [ونؤمن بذلك كله على ما جاء بلا كيف, فلو شاء سبحانه أن يبين لنا كيفية ذلك فعل، فانتهينا إلى ما أحكمه، وكففنا عن الذي يتشابه, إذ كنا قد أمرنا به في قوله عز وجل: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ ﴾ [آل عمران:7].. إلى آخر الآية].

إشكالات أهل البدع في صفة نزول الله سبحانه وتعالى

قال المؤلف رحمه الله: [قال: أخبرنا أبو بكر بن زكريا الشيباني بسنده إلى إسحاق بن إبراهيم الحنظلي يقول: قال لي الأمير عبد الله بن طاهر : يا أبا يعقوب ! هذا الحديث الذي ترويه عن رسول الله ﷺ (ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا), كيف ينزل؟ قال، قلت: أعز الله الأمير، لا يقال لأمر الرب: كيف؟ إنما ينزل بلا كيف.

حدثنا أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم بسنده إلى عبد الله بن المبارك عن نزول ليلة النصف من شعبان، فقال عبد الله: يا ضعيف, في كل ليلة ينزل, فقال الرجل: يا أبا عبد عبد الرحمن ! كيف ينزل؟ أليس يخلو ذلك المكان منه؟ فقال عبد الله : ينزل

كيف شاء].

وهذا الاستشكال الذي يرد في الأذهان في قوله: إذا نزل خلا مكانه منه, هذا دافعه في ذلك التشبيه؛ أن الإنسان إذا انقدح في ذهنه تحوله من موضع إلى موضع, فإنه يخلو منه أحد الموضعين, وهذا لا يليق أن يجعله الإنسان لربه سبحانه وتعالى, فلا يثبته ولا ينفيه, وإنما يثبت لله عز وجل نزولاً يليق بجلاله وعظيم سلطانه, وما عدا ذلك فإنه يتوقف عنه باعتبار أن الأذهان تقصر عن إدراك ذلك.

وتقدم معنا مراراً أن كل هذه المسائل التي يذكرها المصنف عليه رحمة الله دافع ضلال من ضل فيها هو ما انقدح في أذهانه من التشبيه, فينقدح في ذهنهم تشبيه ومعاني متناقضة متضادة أو معاني سيئة فيريدون نفي الله عز وجل عنها, ولهذا يتأولون كثيراً من الصفات هروباً من بعض المعاني التي تنقدح في أذهانهم ولا يصرحون بها, ولهذا لما خالفهم أهل السنة وأهل الحديث في إثبات صفات الله عز وجل أخذوا يسمونهم بالمجسمة أو الحشوية وغير ذلك؛ وذلك أنهم يثبتون لله عز وجل يداً, ويثبتون لله عز وجل قدماً وإصبعاً وعيناً وغير ذلك, فينقدح في ذهنهم شيء من اللوازم, فقالوا: يلزم من ذلك أن له جسداً وجسماً وغير ذلك, فنقول: إن مثل هذا مما هو مسكوت عنه لا يخوض فيه المؤمن, فيثبت لله عز وجل ما أثبته سبحانه وتعالى لنفسه, ولا يخوض فيما زاد عن ذلك, وهم إنما ينفون الجسم ويفرون منه لأنهم يقولون: إننا إذا أثبتنا الجسم لله سبحانه وتعالى أثبتنا له الجهة, وإذا أثبتنا له الجهة أثبتنا أنه محدود بحد معين, فيحده من جهة كذا كذا ويحده من جهة كذا كذا, وهذه المعاني هي لوازم تنقدح في ذهن الإنسان وهو ليس بحاجة إليها؛ باعتبار أنه مما هو مسكوت عنها ولا يخاطب الإنسان بما لا يعلم, فخطابه وحسابه وعقابه على ما علم من أمر الله عز وجل أن يؤمن به وأن يقره كما جاء, وما زاد عن ذلك فهو موكول إلى ربه سبحانه وتعالى.

وكذلك أيضاً في قولهم: إن الاستواء على العرش ينقدح فيه مسألة القعود والجلوس ونحو ذلك, وكذلك أيضاً في الاستواء أي: أن الإنسان إذا استوى على شيء أو جلس عليه فإنه يلزم من ذلك حاجته إليه, وهذا مما لا حاجة إليه باعتبار أنه انقدح في ذهن الإنسان معنى من المعاني الباطنة فجعل لها لوازم, وهذه اللوازم باطلة وأصلها باطل, فصار الإنسان إلى عقيدة باطلة بعد ذلك.

- **تواتر أحاديث نزول الله سبحانه وتعالى إلى السماء الدنيا**

قال المؤلف رحمه الله: [وفي رواية أخرى لهذه الحكاية أن عبد الله بن المبارك قال للرجل: إذا جاءك الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخضع له.

قال: سمعت الحاكم أبا عبد الله الحافظ يقول: سمعت أبا زكريا بسنده ذكره إلى أبي عبد الله الرباطي يقول: حضرت مجلس الأمير عبد الله بن طاهر ذات يوم, وحضر إسحاق بن إبراهيم يعني: ابن راهويه ، فسئل عن حديث النزول: أصحيح هو؟ قال: نعم, فقال له بعض قواد عبد الله : يا أبا يعقوب ! أتزعم أن الله تعالى ينزل كل ليلة؟ قال: نعم, قال: كيف ينزل؟ فقال

له إسحاق : أثبته فوق, حتى أصف لك النزول، فقال الرجل: أثبته فوق, فقال: إسحاق : قال الله عز وجل: ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر:22], فقال الأمير عبد الله : يا أبا يعقوب ! هذا يوم القيامة, فقال إسحاق : أعز الله الأمير، ومن يجيء يوم القيامة من يمنعه اليوم؟ وخبر نزول الرب كل ليلة إلى السماء الدنيا خبر متفق على صحته, مخرج في الصحيحين، من طريق مالك بن أنس عن الزهري عن الأغر و أبي سلمة عن أبي هريرة .

أخبرنا أبو علي زاهر بن أحمد بسنده إلى مالك .

وأخبرنا أبو بكر بن زكريا بسنده إلى مالك .

وأخبرنا أبو بكر بن زكريا كذلك بسنده إلى أبي سلمة عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (ينزل ربنا تبارك وتعالى في كل ليلة إلى السماء الدنيا, حتى يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له، ومن يسألني فأعطيه، ومن يستغفرني فأغفر له).

ولهذا الحديث طرق إلى أبي هريرة ، رواه الأوزاعي بسنده إلى أبي هريرة. ورواه يزيد بن هارون بسنده إلى أبي هريرة ، وكذلك مالك بسنده إلى أبي هريرة ، و عبيد الله بن عمر بسنده إلى أبي هريرة , و عبد الأعلى بسنده إلى أبي هريرة . وروي هذا الخبر من غير طريق أبي هريرة , فقد رواه نافع بن جبير بن مطعم عن أبيه، و موسى بن عقبة بسنده إلى عبادة , و عبد الرحمن بسنده إلى جابر , و عبيد الله بن أبي رافع عن علي بن أبي طالب , و شريك بسنده إلى عبد الله بن مسعود , و محمد بن كعب بسنده إلى جابر , وكذلك سعيد بن جبير عن ابن عباس وعن أم المؤمنين عائشةو أم سلمة ﷺ].

وحديث نزول الله سبحانه وتعالى إلى السماء الدنيا متواتر, قد جاء من طرق متعددة يؤكد بعضها بعضاً, ويقطع الإنسان بذلك بثبوتها, ولهذا نقول: إن نزول الله عز وجل هو من الأمور القطعية المتواترة الظاهرة في الوحي, وليس لأحد إنكارها؛ باعتبار عدم استيعاب ذهن الإنسان لها, أو للوازمها, وأعظم ما يجعل الإنسان يستقر في قلبه الإيمان ويسلم لما جاء في كلام الله سبحانه وتعالى وكلام رسول الله ﷺ: أن يعلم ضعف عقله وإدراكه, وعدم إحاطته بكثير من الأمور المشاهدة, فضلاً عن الأمور الغيبية التي لا يراها الإنسان, وإذا أراد الإنسان أن يضع بركة كاملة من الماء في كفه لما استطاع؛ لأنها لا تحويه, كذلك أيضاً كثير من حكم الله سبحانه وتعالى لا يستطيع الإنسان أن يضعها في عقله الصغير, وإدراك علل الله سبحانه وتعالى في ذلك, فكثير من المعلومات يحتاج الإنسان في معرفتها إلى السبر, وهو: إطالة التأمل, ثم يخرج بنتيجة معينة, منها ما يسبره في دقيقة, ومنه ما يسبره في ساعة, ومنها ما يسبره في يوم, ومنها في يومين, ومنها في أسبوع وشهر ونحو ذلك, فكلما أطال سبراً خرج بنتائج جديدة, ومنها ما لو سبره الإنسان بمائة سنة ما استطاع أن يخرج بنتيجة, ويحتاج إلى ما هو أكثر من ذلك, إذاً فإمكان الإنسان وعقله وإدراكه قاصر عن الآلة الموصلة إلى معرفة الحق, فإذا كان قاصراً في آلته فهو قاصر أيضاً في معرفة الحقائق والنتائج, ولهذا كثير من الأمور والمعادلات التي يريد الإنسان أن يتأملها بمعادلات حسابية ونحو ذلك ينظر الإنسان فيها ويتأملها الساعة والساعتين فربما يحصل على نتيجة وربما حصل على نتيجة خاطئة, وإن كان قد سبر باعتبار قصوره عن التأمل, أو العجلة في

ذلك, ولهذا نقول: إن الحقائق ليست مواكبة لعمر الإنسان, وعمر الإنسان قاصر في هذا, ولهذا الناس يجتمعون على سبر حقيقة واحدة فيوجدون نتيجة بعد أجيال, ولهذا تجد في صناعات الناس وابتكاراتهم ونحو ذلك يجتمع أجيال ثم ينقرض هذا الجيل, ويكمل بعده جيل آخر, وهكذا, ثم يخرجون بنتيجة لم يدرك أولهم آخرهم عليها؛ كما في صناعات الناس في بيوتهم ومراكبهم ونحو ذلك, فهذه جاءت بعد تضافر أناس وتتابع أقوام على إدراك أشياء محسوسة ضعيفة, وهي محسوسة بين أيديهم فكيف بالأمور المغيبات, لا يدركها الإنسان, ولهذا إذا عرف الإنسان ضعف عقله وعدم استيعابه للأمور الغيبية أو المشاهدة التي بين يديه, فإنه يعلم ويقطع يقيناً أنه أبعد من أن يستوعب ما هو من الأمور الغيبية التي لم ير منها شيئاً, والإنسان مع ضعف إدراكه وتحليله فإنه ينسى, فإذا أراد أن يسبر حقيقة ليوم أو يومين أنسى اليوم الثاني حقيقة سبره لليوم الأول, وهكذا, وصار بحاجة إلى أن يعيد العجلة مرة أخرى حتى يستذكر ما مضى؛ حتى تكتمل قضية السبر لديه, ولهذا نقول: هو ضعيف في تركيبته وذاته, وليس بقادر بالآلة الموجودة لديه عن إدراك وسبر ومعرفة حكم الله سبحانه وتعالى, ولهذا تجد كثيراً من الناس يبحث عن شيء وهو في يده, وترى بعض الناس يبحث عن القلم وهو في يده, وترى بعض الناس يبحث عن نظارته وهي على أنفه؛ فكيف يأتي هذا ليحاجَّ الله سبحانه وتعالى في أمور الغيب؟ هذا من الأمور الصعبة الشاقة, وأذكر أن أحداً قد زارني في المنزل وهو من المولعين بأمور العلل والتعلق بالتشريعات, وحكم الله سبحانه وتعالى ومعارضة بعض الحكم بعقله, وأخذ يناظر ويجادل في كثير من الأمور, فلما أراد أن يخرج من عندي لبس حذائي خطأ فقلت له: أنت لم تبصر موضع قدميك فكيف تبصر موضع السماء وما كان من أمور الغيب, ﴿ قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ [عبس:17], يخطئ وينسى ويسهو عن أشياء مدركة بين يديه, فكيف يريد أن يعرف عللاً أو حقائق مغيبة كلها عنه, ولهذا مبدأ التسليم هو الفيصل بين أهل الإيمان الحق والتصديق وبين غيرهم, ولهذا نقول: إن المؤمن الحق الذي لا يتعلق إيمانه بورود العلة المقنعة بالتسليم بالحكم, فإذا وجد علة سلم, وإذا لم يجد توقف, هذا هل هو تعطيل للعقل؟ لا, وإنما هو بيان لضعفه, فعقل الإنسان لا يدرك كل شيء, ولو كانت أحكام الشريعة كلها ثابتة العلل مدركة للإنسان إدراكاً تاماً لما خالف شريعة الله سبحانه وتعالى أحد, وما خالفهم في ذلك إلا المجانين, ولهذا نقول: إن الحقائق الكونية الموجودة في الكون تدل على صدق وحي الله سبحانه وتعالى؛ ولكن العلة في عقل الإنسان أنه يقصر عن إدراكها؛ يولد الإنسان وعمره خمسين أو ستين أو سبعين سنة في حقبة زمنية معينة ولم يسبر الزمن, جاء في أواخر حوادث وتوفي في أوائل حوادث, فلم يدرك بداية السابقة ولا نهاية اللاحقة, فهو حتى من جهة قضية السبر لديه ضعيف؛ ولو قدر أن إنساناً عاش من أول الكون إلى نهايته لوجد أن دلائل الكون كلها تدل على صدق ما أخبر الله عز وجل عنه سبحانه وتعالى, ولهذا كان كفار قريش يصفون النبي ﷺ بالجنون حينما أخبرهم أنه يذهب من مكة إلى المسجد الأقصى في ليلة ويرجع؛ لأنهم لا يرون الأمور والأسباب المادية قد تحققت, أو يوجد شيء ما يؤكد ذلك, فالعلة لديهم غير موجودة, ولو وجدوا اليوم لندموا عن معارضتهم في السابق, ولو وجد من ينفي هذا اليوم لاتهم بالجنون والجهل والتخلف, الذي وصف في السابق النبي صلى الله عليه وسلم بالجنون, والآن من وصف الذي ينفي بالجنون أليس هو العقل ذاته؟ بلى هو العقل ذاته, العقل الذي تحمله أنت هو الذي يحمله السابقون, ولكن يختلف في ذلك التسليم, ولهذا نقول: إن الحقائق الكونية لو عاشها الإنسان ومكن من عرضها كاملة لوجد أنها موافقة لأمر الله سبحانه وتعالى ومصدقة له, ولكن الإنسان في نظره قاصر عن استيعابها.

قال المؤلف رحمه الله: [وفي رواية الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ: (إذا مضى نصف الليل أو ثلثاه ينزل الله إلى السماء الدنيا فيقول: هل من سائل فيعطى؟ هل من داع فيستجاب له؟ هل من مستغفر فيغفر له؟ حتى ينفجر الصبح), وفي رواية سعيد بن مرجانة عن أبي هريرة زيادة في آخره وهي: (ثم يبسط يديه فيقول: من يقرض غير عدوم ولا ظلوم), وفي رواية أبي حازم عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ: (إن الله ينزل إلى السماء الدنيا في ثلث الليل الأخير فينادي: هل من سائل فأعطيه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ فلا يبقى شيء فيه الروح إلا علم به، إلا الثقلين الجن والإنس, قال: وذلك حين تصيح الديوك, وتنهق الحمير, وتنبح الكلاب), وفي رواية موسى بن عقبة عن إسحاق بن يحيى عن عبادة بن الصامت زيادات حسنة, وهي التي أخبرنا بها أبو يعلى حمزة بن عبد العزيز المهلبي بسنده إلى ابن المبارك قال: بسنده إلى عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: (ينزل الله تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حتى يبقى ثلث الليل الأخير فيقول: ألا عبد من عبادي يدعوني فأستجيب له؟ ألا ظالم لنفسه يدعوني فأغفر له؟ ألا مقدر عليه رزقه فيدعوني فأرزقه؟ ألا مظلوم يذكرني فأنصره؟ ألا عان يدعوني فأفكه؟ قال: فيكون كذلك إلى أن يطلع الصبح ويعلو على كرسيه).

وفي رواية أبي الزبير عن جابر من طريق مرزوق بن أبي بكر الذي خرجه محمد بن إسحاق بن خزيمة , ومن طريق أيوب بسنده إلى حسن بن سفيان , ومن طريق هشام بسنده إلى جابر أن رسول الله ﷺ قال: (إن عشية عرفة ينزل الله فيه إلى السماء الدنيا, فيباهي بأهل الأرض أهل السماء, ويقول: انظروا إلى عبادي شعثاً غبراً ضاحيين, جاءوا من كل فج عميق, يرجون رحمتي ولم يروا عذابي, فلم ير يوماً أكثر عتقاً من النار من يوم عرفة), وروى هشام بسنده إلى رفاعة الجهني حدثه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إذا مضى ثلث الليل أو شطر الليل أو ثلثاه ينزل الله إلى السماء الدنيا فيقول: لا أسأل عن عبادي غيري, من يستغفرني فأغفر له؟ من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني أعطيه؟ حتى ينفجر الصبح).

أخبرنا أبو محمد بسنده إلى أبي مسلم الأغر قال: أشهد على أبي سعيد و أبي هريرة أنهما شهدا على رسول الله ﷺ, وأنا أشهد عليهما أنهما سمعا النبي ﷺ يقول: (إن الله يمهل حتى إذا ذهب ثلث الليل الأول هبط إلى السماء الدنيا فيقول: هل من مذنب؟ هل من مستغفر؟ هل من سائل؟ هل من داع؟ حتى تطلع الشمس).

أخبرنا أبو محمد بسنده إلى أبي مسلم الأغر قال: أشهد على أبي سعيد و أبي هريرة أنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: (إن الله يمهل حتى إذا كان ثلث الليل هبط إلى هذه السماء، ثم أمر بأبواب السماء ففتحت, فقال: هل من سائل فأعطيه؟ هل من داع فأجيبه؟ هل من مستغفر فاغفر له؟ هل من مضطر أكشف عنه ضره؟ هل من مستغيث أغيثه؟ فلا يزال ذلك مكانه حتى يطلع الفجر في كل ليلة من الدنيا).

قال: أخبرنا أبو محمد بسنده إلى أبي إسحاق عن الأغر أنه شهد على أبي هريرة و أبي سعيد أنهما شهدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إذا كان ثلث الليل نزل تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا فقال: ألا هل من مستغفر يغفر له؟ هل من سائل يعطى سؤله؟ ألا هل من تائب يتاب عليه؟).

قال: حدثنا الأستاذ أبو منصور بسنده إلى أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسم: (ينزل الله تعالى في كل ليلة إلى السماء الدنيا، فيقول: أنا الملك, أنا الملك ثلاثاً. من يسألني فأعطيه؟ من يدعوني فأستجيب له؟ من يستغفرني فاغفر له؟ فلا يزال كذلك حتى يطلع الفجر).

سمعت الأستاذ أبا منصور على إثر هذا الحديث الذي أملاه علينا يقول: سئل أبو حنيفة عنه فقال: ينزل بلا كيف. وقال بعضهم: ينزل نزولاً يليق بالربوبية بلا كيف، من غير أن يكون نزوله مثل نزول الخلق، بالتخلي والتملي؛ لأنه ﷻ منزه أن تكون صفاته مثل صفات الخلق، كما كان منزهاً أن تكون ذاته مثل ذوات الخلق، فمجيئه وإتيانه ونزوله على حسب ما يليق بصفاته، من غير تشبيه وكيف.

وقال الإمام أبو بكر مُحَمَّد بن إسحاق بن خزيمة في كتاب التوحيد الذي صنفه: سمعته من حافده أبي طاهر رحمه الله:

باب: ذكر أخبار ثابتة السند رواها علماء الحجاز والعراق في نزول الرب إلى السماء الدنيا كل ليلة, من غير صفة كيفية النزول مع إثبات النزول, فنشهد شهادة مقر بلسانه، مصدق بقلبه، مستيقن بما في هذه الأخبار من ذكر النزول, من غير أن نصف الكيفية؛ لأن نبينا ﷺ لم يصف لنا كيفية نزول خالقنا إلى السماء الدنيا، وأعلمنا أنه ينزل، والله عز وجل ولى نبيه ﷺ بيان ما بالمسلمين إليه الحاجة من أمر دينهم، فنحن مصدقون بما في هذه الأخبار من ذكر النزول، غير متكلفين للنزول بصفة الكيفية، إذ النبي ﷺ لم يصف كيفية النزول.

أخبرنا الحاكم بسنده إلى مخرمة بن بكير عن أبيه وقال: أخبرنا الحاكم بسنده إلى مُحَمَّد بن المنكدر يزعم أنه سمع أم سلمة زوج النبي ﷺ تقول: (نعم اليوم يوم ينزل الله تعالى فيه إلى السماء الدنيا, قالوا: وأي يوم؟ قالت: يوم عرفة).

وروت عائشة ﷺ عن النبي ﷺ: (ينزل الله تعالى في النصف من شعبان إلى السماء الدنيا ليلاً إلى آخر النهار من الغد، فيعتق من النار بعدد شعر معز كلب، ويكتب الحاج, وتنزل أرزاق السنة، ولا يترك أحداً إلا غفر له إلا مشركاً أو قاطع رحم أو عاقاً أو مشاحنا)].

- **الأوقات والأزمنة التي ينزل فيها الله سبحانه وتعالى إلى السماء الدنيا**

الثابت عن النبي ﷺ هو نزوله جل وعلا في الثلث الأخير من كل ليلة, ونزول الله سبحانه وتعالى أيضاً في يوم عرفة, ويوم عرفة يكون في النهار نزول الله جل وعلا, وأما في كل ليلة فينزل الله سبحانه وتعالى في الثلث الأخير من كل ليلة, وأما تخصيص ليلة النصف من شعبان عن النبي ﷺ فلا يثبت في ذلك الخبر, جاء من حديث عائشة , وجاء من حديث أبي موسى , وجاء أيضاً من حديث عبد الله بن عمرو , فحديث عائشة عليها رضوان الله قد أخرجه الترمذي رحمه الله في كتابه السنن من حديث الحجاج بن أرطأة , و الحجاج يرويه عن يحيى بن أبي كثير عن عروة عن عائشة عليها رضوان الله وهو معلول بعلل؛

فالحجاج لم يسمعه من يحيى , و يحيلم يسمعه من عروة, وهذا لا يثبت عن رسول الله ﷺ, ويغني عنه أن الله عز وجل ينزل في كل ليلة, سواء كانت ليلة النصف من شعبان أو غيرها في الثلث الأخير, ويغفر الله عز وجل لمن شاء من عباده لمن صدق الله سبحانه وتعالى فإن الله عز وجل يصدقه سبحانه وتعالى.

وكما تقدم الإشارة إليه؛ نقول: إن إثبات نزول الله جل وعلا إلى السماء الدنيا هذا من الأمور المتواترة, قد جاء في ذلك الأحاديث عن النبي ﷺ مما يستحيل معها التواطئ على الكذب.

علل أهل البدع الزمنية في نزول الله سبحانه وتعالى والرد عليها

ونفي بعض المبتدعة لنزول الله سبحانه وتعالى بسبب بعض العلل, خاصة ما يتعلق بالعلل الزمنية؛ كتقلب الثلث الأخير من الليل من بلد إلى بلد, قالوا: يلزم من ذلك ديمومة النزول, فنقول: إن الله سبحانه وتعالى نفى المثلية عن نفسه سبحانه وتعالى فلا يشابهه مخلوق جل وعلا, وعلى هذا نقول: إن تعليل الناس أو تعليل بعض المبتدعة لنفي نزول الله جل وعلا لعلة الزمن نقول: هذا تشبيه انقدح في ذهن الإنسان, فالإنسان ربط بعجلة زمنية معينة, ويرى أن مخلوقات الله سبحانه وتعالى تدور عليها, والله عز وجل جعل لك دورة زمنية تدورها, وجعل لك بداية ونهاية, وتظن أن الله عز وجل كذلك؛ تعالى الله عز وجل عن ذلك, ولهذا النبي ﷺ أشار إلى مثل هذه العلة؛ أن الإنسان حينما يرى من نفسه ويرى من أبيه وجده أنه يدور في دورة زمنية ثم يبدأ ثم يموت, وهكذا هذه الدورة, والدورة الزمنية منها دورة صغيرة؛ تكون بالثواني ثم الدقائق ثم الساعات ونحو ذلك, يظن أن مخلوقات الله عز وجل كذلك, وكذلك أيضاً في مسألة ابتدائها ونحو ذلك, ولهذا ربما لا يتصور الإنسان حتى من كان يدور معه في هذه الدورة الزمنية أن الأمم السابق منهم من يعيش الألف والألفين وغير ذلك, ولهذا يقول النبي ﷺ: (إن الشيطان يأتي أحدكم فيقول: من خلق كذا), انظروا إلى استدلال الشيطان بمسألة التشبيه لعقل الإنسان ببعض النظائر حتى يوصله إلى شيء هو خارج دائرة التشبيه, فيقول: (من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق الله؟), إذاً هو لا يريد الخالق الأول؛ ولكن يريد الخالق الأخير, تعالى الله عز وجل عن ذلك علواً كبيراً, ولهذا نقول: إن الله سبحانه وتعالى جعل الإنسان في دائرة زمنية, وجعل هذه الدائرة في ذات الإنسان من جهة تقلب الليل والنهار والبداية والنهاية يظن أن الموجود في الكون يدور على نحو تلك العجلة, وهذا مستبعد في المخلوقات فكيف بالخالق سبحانه وتعالى؟ ولهذا نقول: ينبغي للإنسان أن يسلم فيما يخبر الله عز وجل عن نفسه, وما يخبر به النبي ﷺ عن ربه سبحانه وتعالى, وأن ينفي العلل التي تنقدح في ذهنه مما يراه الإنسان من أمور, وينقدح في ذلك شيء يتعلق بالخالق سبحانه وتعالى.

تشابه الأسماء واختلاف الكيفيات في الأشياء

قال المؤلف رحمه الله: [وحدثنا الزعفراني بسنده إلى الدستوائي ح وحدثنا ابن ميمون بسنده إلى الأوزاعي كلهم عن يحيى بن أبي كثير عن عطاء بن يسار حدثني رفاعة بن عرابة الجهني ح قال: وحدثني أبو هاشم بسنده إلى رفاعة الجهني قال: (صدرنا مع رسول الله ﷺ من مكة, فجعلوا يستأذنون الني ﷺ، فجعل يأذن لهم, فقال النبي صلى الله عليه وسم: ما بال شق الشجرة

الذي يلي رسول الله ﷺ أبغض إليكم من الآخر، فلا ترى من القوم إلا باكياً, قال يقول أبو بكر الصديق : إن الذي يستأذنك بعدها لسفيه، فقام النبي ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه, وكان إذا حلف قال: والذي نفسي بيده, أشهد عند الله ما منكم من أحد يؤمن بالله واليوم الآخر ثم يسدد إلا سلك به في الجنة، ولقد وعدني ربي أن يدخل من أمتي الجنة سبعين ألفاً بغير حساب ولا عذاب، وإني لأرجو ألا تدخلوها حتى تتبوءوا ومن صلح من أزواجكم وذرياتكم مساكنكم في الجنة، ثم قال ﷺ: إذا مضى شطر الليل –أو قال: ثلثاه– ينزل الله إلى السماء الدنيا ثم يقول: لا أسأل عن عبادي غيري، من ذا الذي يسألني فأعطيه؟ من ذا الذي يدعوني فأجيبه؟ من ذا الذي يستغفرني فأغفر له؟ حتى ينفجر الصبح), هذا لفظ حديث الوليد].

جاء في الخبر القدسي: (أن الله عز وجل يقول: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت, ولا أذن سمعت, ولا خطر على قلب بشر), وما في الجنة من مخلوقات الله سبحانه وتعالى لم يرها, ولهذا يقول عبد الله بن عباس : ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماء, فعنب وزعفران وطلح وغير ذلك مما أخبر الله عز وجل عنه في الجنة, هي أسماء تتشابه, حتى الماء والعسل والخمر واللبن وغير ذلك مما أخبر الله عز وجل عنه, يشابه ما في الدنيا بالأسماء, فلم تره عين, ولم تسمع به أذن, وما خطر أيضاً على قلب بشر, يعني: كلما يخطر في بال الإنسان أنه على هذه الصفة فهو على غيرها, هذا في المخلوق, هذا في مخلوق خلقه الله عز وجل فكيف بالخالق سبحانه وتعالى, ولهذا نقول: إذا كان الله عز وجل قد جعل مخلوقاً في الآخرة أو أوجد مخلوقاً جل وعلا لم يره الإنسان وليس له مثيل عنده فالخالق سبحانه وتعالى يجب أن يقر أنه أولى, وهذا ظاهر في قول الله عز وجل على ما تقدم: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ [الشورى:11].

قال المؤلف رحمه الله: [قال شيخ الإسلام –وهو المؤلف– قلت: فلما صح خبر النزول عن الرسول ﷺ أقر به أهل السنة، وقبلوا الخبر، وأثبتوا النزول على ما قاله رسول الله ﷺ، ولم يعتقدوا تشبيهاً له بنزول خلقه، ولم يبحثوا عن كيفيته, إذا لا سبيل إليها بحال, وعلموا وتحققوا واعتقدوا أن صفات الله سبحانه لا تشبه صفات الخلق، كما أن ذاته لا تشبه ذوات الخلق, تعالى الله عما يقول المشبهة والمعطلة علواً كبيراً، ولعنهم لعناً كبيراً].

ذلك أنه كل أحد شبه الخالق بالمخلوق لابد أن يلتزم بلوازم ذلك التشبيه, فإذا شبه للخالق سبحانه وتعالى باليد أو القدم أو نحو ذلك أنه يلتزم بلوازم ذلك, كذلك أيضاً من شبه الخالق بالمخلوق من جهة العين لابد أن يلتزم باللوازم في هذا الباب, وأهل السنة في ذلك يتوسطون.

قال المؤلف رحمه الله: [وقرأت لأبي عبد الله بن أبي حفص البخاري _ وكان شيخ بخارى في عصره بلا مدافعة _ و أبو حفص هذا كان من كبار أصحاب مُحَمَّد بن الحسن الشيباني , قال أبو عبد الله – أعني: ابن أبي حفص هذا : عبد الله بن عثمان وهو: عبدان شيخ مرو يقول: سمعت مُحَمَّد بن الحسن الشيباني يقول: قال حماد بن أبي حنيفة : قلنا لهؤلاء: أرأيتم قول الله عز وجل: ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر:22] ؟ وقوله عز وجل: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ ﴾ [البقرة:210], فهل يجيء ربنا كما قال؟ وهل يجيء الملك صفاً صفاً؟ قالوا: أما الملائكة فيجيئون صفاً

صفاً، أما الرب فإنا لا ندري ما عنى بذاك، ولا ندري كيف جيئته، فقلنا لهم: إنا لم نكلفكم أن تعلموا كيف جيئته، ولكنا نكلفكم أن تؤمنوا بمجيئه، أرأيتم من أنكر أن الملك لا يجيء صفاً صفاً, ما هو عندكم؟ قالوا: كافر مكذب, قلنا: فكذلك إن أنكر أن الله سبحانه لا يجيء فهو كافر مكذب].

المثبت لنزول الله لا يلتزم بلازم منكري النزول

قال المؤلف رحمه الله: [قال أبو عبد الله بن أبي حفص البخاري أيضاً في كتابه: ذكر إبراهيم عن الأشعث قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول: إذا قال لك الجهمي: أنا لا أؤمن برب يزول عن مكانه. فقل أنت: أنا أؤمن برب يفعل ما يشاء].

وهذا لا يتضمن إثبات التحول والزوال, ولكنه يؤمن بخالق يفعل ما يريد, وذلك ليس فيه إقرار بذلك اللازم؛ أن الإنسان إذا نظر إلى صفة من صفات الله عز وجل كنزوله سبحانه وتعالى إلى السماء الدنيا, وما يخطر في باله من تحول أو زوال من موضعه الذي هو عليه, لا يلتزم بهذا اللازم؛ ولكنه يؤمن بأن الله عز وجل إذا أراد أن يفعل شيئاً فعل, فهو يؤمن بكمال الاختيار له سبحانه وتعالى, وهذا لا يوافق فيه الإنسان الابتداع بجريانهم على لوازمهم, ويجري الإنسان على عقيدة حقة من غير أن يحيد عنها, لا من جهة التشبيه, ولا من جهة التعطيل.

الدرس الثامن

يؤمن أهل السنة برؤية أهل الجنة لربهم يوم القيامة، وقد استفاضت النصوص من الكتاب والسنة على ذلك، وقد خالف في ذلك أهل الأهواء من المبتدعة، وقد كان هدي السلف معهم عدم تصديرهم والأخذ عنهم, أو مخالطتهم.

رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة

بسم الله الرحمن الرحيم. وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:

قال المصنف رحمه الله: [وروى يزيد بن هارون في مجلسه حديث إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن جرير بن عبد الله في الرؤية، وقول رسول الله ﷺ: (إنكم تنظرون إلى ربكم كما تنظرون إلى القمر ليلة البدر), فقال له رجل في مجلسه: يا أبا خالد ! ما معنى هذا الحديث؟ فغضب وحرد، وقال: ما أشبهك بصبيغ، وأحوجك إلى مثل ما فعل به, ويلك! ومن يدري كيف هذا؟ ومن يجوز له أن يجاوز هذا القول الذي جاء به الحديث، أو يتكلم فيه بشيء من تلقاء نفسه إلا من سفه نفسه؟ إذا سمعتم الحديث عن رسول الله ﷺ فاتبعوه، ولا تبتدعوا فيه، فإنكم إن اتبعتموه ولم تماروا فيه سلمتم، وإن لم تفعلوا هلكتم].

وذلك أن النبي ﷺ إنما شبه الرؤية بالرؤية, وما شبه المرئي بالمرئي, فالنبي ﷺ قال: (إنكم ترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر, لا تضامون في رؤيته), يعني: لا تجدون مشقة بالمزاحمة ولا في الكلفة ونحو ذلك, فهو ما شبه القمر بالله سبحانه وتعالى,

وإنما شبه صفة رؤية الإنسان بذاته, وهذه رؤية للبشر, وحينما يسأل الإنسان عن صفة المرئي وموضعه نقول: إن هذا هو قدر زائد عن ذلك, فيجب على الإنسان أن يتوقف بهذا.

قصة صبيغ ومجيئه إلى عمر بن الخطاب

قال المصنف رحمه الله: [وقصة صبيغ الذي قال يزيد بن هارون للسائل: ما أشبهك بصبيغ وأحوجك إلى مثل ما فعل به؛ هي ما رواه يحيى عن سعيد بن المسيب : (أن صبيغاً التميمي أتى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ فقال: يا أمير المؤمنين! أخبرني عن قوله: ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴾ [الذاريات:1], قال: هي الرياح، ولولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته. قال: فأخبرني عن ﴿ فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا ﴾ [الذاريات:2], قال: هي السحاب، ولولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته. قال: فأخبرني عن ﴿ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴾ [الذاريات:4], قال: الملائكة، ولولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته. قال: فأخبرني عن ﴿ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴾ [الذاريات:3], قال: هي السفن، ولولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته. قال: ثم أمر به فضرب مائة سوط، ثم جعله في بيت حتى إذا برأ دعا به، ثم ضربه مائة سوط أخرى)].

وهذه من القصص المشهورة عن عمر بن الخطاب عليه رضوان الله, وإن كان سعيد بن المسيب لم يسمع من عمر بن الخطاب عليه رضوان الله إلا أن هذه الرواية قد جاءت عن عمر بن الخطاب من طرق متعددة وصحيحة عنه عليه رضوان الله؛ وذلك لأن صبيغاً كان يتتبع المتشابه من كلام الله سبحانه وتعالى, ويسأل سؤال المعجز, وكذلك المحير, ويريد من ذلك إعجازاً أو وصولاً إلى معنى من المعاني الفاسدة, وهذا مما تقدم أنه ينطبق عليه قول الله جل وعلا: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران:7], وهذه هي طريقة أهل النفاق والفتنة.

قال رحمه الله: [(ثم حمله على قتب، وكتب إلى أبي موسى الأشعري : أن حرم عليه مجالسة الناس, فلم يزل كذلك حتى أتى أبا موسى الأشعري , فحلف بالأيمان المغلظة ما يجد في نفسه مما كان يجده شيئاً، فكتب عمر يخبره, فكتب إليه: ما إخاله إلا قد صدق، فخل بينه وبين مجالسة الناس).

وروى حماد بن زيد عن قطن بن كعب: سمعت رجلاً من بني عجل يقال له: فلان– خلته ابن زرعة– يحدث عن أبيه قال: رأيت صبيغ بن عسل بالبصرة كأنه بعير أجرب، يجيء إلى الحلق, فكلما جلس إلى قوم لا يعرفونه ناداهم أهل الحلقة الأخرى: عزمة أمير المؤمنين].

وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي على من ولي أمراً من أمور المسلمين أن يعزل مثير الشك والريبة في الدين, وأن يبعده عن تصدير شبهاته ورأيه للناس؛ حماية لعقيدة الناس, فإن الناس يحمون دنياهم، ويحرصون على ذلك, ولا يريدون من يشوش عليهم بأمنهم واستقرارهم ومعيشتهم وغير ذلك, فإذا وجد من يثير الإشاعات والأكاذيب أو الشبهات والأراجيف في الدنيا منعوه, فإن حماية

الدين من باب أولى.

ولكننا في هذا الزمن المتأخر يُحث عن ألف صبيغ حتى يلبس على الناس في الدين.

قال رحمه الله: [وروى حماد بن زيد عن يزيد بن حازم عن سليمان بن يسار : أن رجلاً من بني تميم يقال له صبيغقدم المدينة، فكانت عنده كتب, فجعل يسأل عن متشابه القرآن، فبلغ ذلك عمر، فبعث إليه وقد أعد له عراجين النخل، فلما دخل عليه جلس، فقال: من أنت؟ قال: أنا عبد الله صبيغ , قال: وأنا عبد الله عمر، ثم أهوى إليه فجعل يضربه بتلك العراجين، فما زال يضربه حتى شجه، فجعل الدم يسيل على وجهه، فقال: حسبك يا أمير المؤمنين، فقد والله ذهب الذي كنت أجد في رأسي].

التحذير من الأهواء

قال المصنف رحمه الله: [أخبرنا أبو عبد الرحمن مُحَّد بن الحسين بن موسى السلمي، أخبرنا مُحَّد بن محمود الفقيه المروزي بها، حدثنا مُحَّد بن عمير الرازي حدثنا أبو زكريا يحيى بن أيوب العلات التجيبي بمصر، حدثنا يونس بن عبد الأعلى حدثنا أشهب بن عبد العزيز، سمعت مالك بن أنس يقول: إياكم والبدع, قيل: يا أبا عبد الله ! وما البدع؟ قال: أهل البدع الذين يتكلمون في أسماء الله وصفاته، وكلامه وعلمه وقدرته, لا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون.

أخبرنا أبو الحسين أحمد بن مُحَّد بن عمر الزاهد الخفاف، أخبرنا أبو نعيم عبد الملك بن مُحَّد بن عدي الفقيه حدثنا الربيع بن سليمان عن الشافعي يقول: لأن يلقى الله العبد بكل ذنب ما خلا الشرك أحب إلي من يلقاه بشيء من الأهواء].

والأهواء لا ينتهي منها الإنسان, بخلاف الصراط المستقيم هو طريق واحد, يسلكه الإنسان موصلاً له إلى ربه سبحانه وتعالى, ولهذا نقول: إن الصراط المستقيم لا يستطيع الإنسان أن يوجده إلا واحد؛ كحال المسائل الهندسية, لا يستطيع الإنسان أن يوجد شيئاً مستقيماً إلا على صفة واحدة, أما المعوجة فيستطيع, هذا ملتوي التواء واحداً, وهذا التواءان, وهذا ثلاث, وهذا مثلث, وهذا غيره ونحو ذلك, فهذه طرق متعددة من جهة انحرافها, ولهذا النبي ﷺ يقول كما جاء في حديث عبد الله بن مسعود لما (خط خطاً وخط عن يمينه وشماله خطوطاً قال: هذا الصراط المستقيم, وهذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليها, ثم تلا قول الله عز وجل: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ﴾ [الأنعام:153]), قد روى ابن جرير الطبري في كتابه التفسير عن مجاهد بن جبر أنه قال في قوله جل وعلا: ﴿ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ﴾ [الأنعام:153], قال: هي البدع والشبهات التي تطرأ في ذهن الإنسان فيقوم بتنميتها حتى تصبح مذاهبة متبوعة.

قال رحمه الله: [أخبرني أبو طاهر مُحَّد بن الفضل، حدثنا أبو عمرو الحيري حدثنا أبو الأزهر، حدثنا قبيصة حدثنا سفيان عن جعفر بن برقان قال: سأل رجل عمر بن عبد العزيز عن شيء من الأهواء، فقال: الزم دين الصبي في الكتاب، والأعرابي، والهى عما سوى ذلك].

وذلك أن دين الله سبحانه وتعالى الذي أنزله الله عز وجل في كتابه وكذلك سنة النبي ﷺ إنما أنزلت ميسرة يفهما الإنسان بداهة, ولم تنزل هذه الآيات وتنزل سنة النبي ﷺ عليه ليبلغها للناس حتى يتقعر الناس فيها، فيطيلوا التأمل في ذلك حتى يخرج بشيء من العلل والاستنباطات والأحكام الشرعية التي يتكلم بها العامة، ثم لا تظهر إلا للواحد والاثنين, نقول: إن دين الله عز وجل يفهمه الإنسان بداهة إذا كان سليم اللغة, فإنه يفهم مراد الله سبحانه وتعالى ومراد رسول الله ﷺ.

ولا يوجد شيء في دين الله عز وجل تحتاج إليه الأمة في عامتها يكون سراً من أسرار الشريعة, لا يستطيع أن يبرزه الإنسان إلا مع طول تأمل, نقول: إن دين الله عز وجل ظاهر, يفهمه الإنسان, أما إدامة النظر والتدقيق في ذلك والبحث عن علل دقيقة والاعتماد على قرائن لبحث مسائل بقرائن متعددة ليخرج الإنسان بحكم لصالح الأمة كلها, نقول: هذا لا شك أنه من الضلال, وهو من الفتنة أيضاً في دين الإنسان.

صلاح الأمة هو في الأدلة الظاهرة, التي يفهمها الناس إذا أرادوا أن يفهموا, في الأدلة البينة الظاهرة وفي الاستقامة على أمر الله سبحانه وتعالى, أما الأمور الدقائق وغير ذلك, فهذه مما تزيد إيمان الأفراد وتنمي وتزكي النفوس ونحو ذلك يستفيد منها الأعيان, لا تستفيد منها جميع الأمة, ولهذا المتكلمون أبحروا في البحث وغاصوا في البحث عما يسمى بالأسرار؛ أسرار الألفاظ ونحو ذلك.

نقول: إن شريعة الله عز وجل جاءت للناس كافة, لا تحتاج إلى من يغوص فيها ويستخرج دقيقة، ثم ينقض بها الأصول العامة الثابتة والمستقرة والمستفيضة في كلام الله وكلام رسول الله ﷺ, ولهذا ما من أحد من المتكلمين والفلاسفة أوغل في كلام الله وكلام رسول الله ﷺ في مثل هذه الدقائق إلا وزاد حيرة على حيرته التي هو فيها.

التعامل مع ما وصف الله به نفسه

قال المصنف رحمه الله: [أخبرنا أبو عبد الله الحافظ حدثنا مُحَّد بن يزيد، سمعت أبا يحيى القزاز يقول: سمعت العباس بن حمزة يقول: سمعت أحمد بن أبي الحواري يقول: سمعت سفيان بن عيينة يقول: كل ما وصف الله به نفسه في كتابه فتفسيره تلاوته والسكوت عنه.

أخبرنا أبو الحسين الخفاف حدثنا أبو العباس مُحَّد بن إسحاق السراج، حدثنا إسماعيل بن أبي الحارث، حدثنا الهيثم بن خارجة، سمعت الوليد بن مسلم قال: سألت الأوزاعي وسفيان ومالك بن أنس عن هذه الأحاديث في الصفات والرؤية، فقالوا: أمروها

كما جاءت بلا كيف.

قال الإمام الزهري إمام الأئمة في عصره، وعين علماء الأمة في وقته: على الله البيان، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم.

وعن بعض السلف: قدم الإسلام لا يثبت إلا على قنطرة التسليم].

لأن الله سبحانه وتعالى ما خاطب عباده بحكم من الأحكام، ثم أمرهم أن يقلدوا فيه يمنة ويسرة ليستخرجوا شيئاً بخلاف ظاهره؛ لأن هذا يقتضي عدم إرادة الظاهر, وفي هذا نوع تلبيس يجل عنه الوحي, ولهذا نقول: إنه ينبغي للإنسان أن يأخذ بالظاهر, فالناس في حال استقامة أمرهم في ملوكهم ووجهائهم إذا أرادوا أن يأمروهم بأمر أمروهم بأمر ظاهر, لا يحتاج إلى إنسان يبحث عن أسرار هذه الألفاظ, والمراسيم التي يصدرها الملوك والحكام, والبحث عن دقائقها وبواطنها ونحو ذلك؛ لماذا؟ لأن هذا الأمر لا يتعلق به، وإنما يتعلق بأمر العامة, الذي إذا قرئوه بعبارة فهموا مرادهم, هذا في أمر ضبط الدنيا فكيف بضبط أمر الدين؟

فنقول: إن كلام الله عز وجل هو أمر ظاهر, يأخذ به الإنسان, وأما ما يتعلق بالبحث عن الأسرار ودقائق والألفاظ ونحو ذلك, التي لا تظهر إلا للخُلَّص؛ نقول: هذه لا تتعلق بأمر العامة ولا بهدايتهم, وإنما هي علل ودقائق وقرائن تتعلق بأمور الأفراد, تزيدهم إيماناً إن أصابوا، وتزيدهم حيرة إن أخطأوا.

غربة الدين

قال المصنف رحمه الله: [أخبرنا أبو طاهر بن خزيمة حدثنا جدي الإمام أحمد بن نصر، حدثنا أبو يعقوب الحسن، حدثنا كثير بن عبد الله المزني عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: (إن هذا الدين بدأ غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء, قيل: يا رسول الله! ومن الغرباء؟ قال: الذين يحيون سنتي من بعدي، ويعلمونها عباد الله)].

والمراد بالغربة في قول النبي ﷺ: (بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً), هي ليست غربة الحق، وإنما غربة الحامل, باعتبار أن الحق محفوظ, وأن دين الله عز وجل كامل, وكتابه سبحانه وتعالى باقٍ, كما أنزله الله عز وجل على نبيه عليه الصلاة والسلام يبقى على هذا الكمال والتمام إلى قيام الساعة, من الله عز وجل بدأ وإليه يعود.

وقول النبي ﷺ: (بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ), يعني: من جهة الحملة؛ حملة تلك الرسالة, يعيشون غربة في أمر البلاغ, ولهذا قال بعد ذلك: (فطوبى للغرباء), يعني: هم الغرباء, أما ذات الدين فهو باقٍ, وإنما يحتاج إلى حملة يبينونه ويبلغونه للناس، ويظهرون أمر الله سبحانه وتعالى.

قال رحمه الله: [أخبرنا أبو عبد الله سمعت أبا الحسن المكاري يقول: سمعت علي بن عبد العزيز يقول: سمعت أبا عبيد القاسم بن

سلام يقول: المتبع للسنة كالقابض على الجمر، وهو اليوم عندي أفضل من ضرب السيف في سبيل الله.

وروي عن الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق قال: دخلنا على عبد الله بن مسعود فقال: يا أيها الناس! من علم شيئاً فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم، فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم: الله أعلم. قال عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ص:86]].

التحذير من أهل البدع

قال المصنف رحمه الله: [أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، حدثنا أبو العباس المعقلي، حدثنا أحمد بن عبد الجبار العطاردي، حدثني أبي وعبد الرحمن الضبي، عن القاسم بن عروة عن محمد بن كعب قال: دخلت على عمر بن عبد العزيز فجعلت أنظر اليه نظراً شديداً، فقال: إنك لتنظر إلي نظراً ما كنت تنظره إلي وأنا بالمدينة، فقلت: لتعجبي, فقال: ومم تعجب؟ قال: قلت: بما حال من لونك، ونحل من جسمك, ونفى من شعرك, قال: كيف ولو رأيتني بعد ثلاثة في قبري، وقد سالت حدقاتي على وجنتي، وسال منخراي في فمي صديداً, كنت لي أشد نكرة، حدثني حديثاً كنت حدثتنيه عن عبد الله بن عباس , قال: قلت: حدثني عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ قال: (إن لكل شيء شرفاً، وأشرف المجالس ما استقبل به القبلة، لا تصلوا خلف نائم ولا محدث، واقتلوا الحية والعقرب وإن كنتم في صلاتكم، ولا تستروا الجدر بالثياب، ومن نظر في كتاب أخيه بغير إذنه فإنما ينظر في النار, ألا أنبئكم بشراركم؟ قالوا: بلى يا رسول الله, قال: الذي يجلد عبده، ويمنع رفده، وينزل وحده)].

الحديث عند أبي داود من حديث محمد بن كعب عن عبد الله بن عباس , ومحمد بن كعب لم يسمع من عبد الله بن عباس شيئاً, فهو منقطع, وفي هذا أنه لا ينبغي للإنسان ألا يصدر أهل البدع, وألا يكون تابعاً له ولا في إمامة الصلاة؛ حتى لا يقتدي الناس به, ولا يكثر سواده, فإنه حتى وإن لم يقتد بقولهم وفعلهم إن أحاط بهم وكثر سوادهم اغتر الناس به فتأسوا به، وربما تأثروا بقوله وفعله ولو لم يتكلم, أو ظهر منه شيء من الأقوال فأحسنوا الظن به.

وكان من هدي الأئمة عليهم رحمة الله هو عدم تصدير المبتدعة وعدم الأخذ عنهم, ولا مخالطتهم كذلك, ولا تزكيتهم قدر الوسع والإمكان, وليس هذا طعناً في الأمانة, التي تكون في الإنسان من جهة الصدق ونحو ذلك, ولكن هو حماية للديانة, التي أمرنا الله عز وجل بحياطتها؛ حتى لا يتسلل شيء منه إلى الناس, فيتأثرون به, وكان بعض العلماء يحذرون من الإتيان إلى المبتدعة والأخذ عنهم، وهم يأخذون عنهم؛ لماذا؟ يأخذون عنهم على سبيل الانفراد مما لا يغتر بهم العامة من بعض مسائل الدين, أو ربما أخذوا عنهم فناً يعتنون به كعلوم الآلة وعلوم اللغة ونحو ذلك, ولكن لا يظهرون ذلك حتى لا يحسن الناس ظناً بهم فيتأثرون بأقوالهم وأفعالهم, فتنتشر البدعة من حيث لا يشعرون, وحينئذٍ يهدم الدين ويثلم.

قال رحمه الله: [(أفلا أنبئكم بشر من ذلك؟ الذي يبغض الناس ويبغضونه, أفلا أنبئكم بشر من ذلك؟ الذي لا يقيل عثرة، ولا يقبل معذرة، ولا يغفر ذنباً, أولا أنبئكم بشر من ذلك؟ الذي لا يرجى خيره، ولا يؤمن شره، من أحب أن يكون أقوى الناس

فليتوكل على الله، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يد غيره، ومن أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله, إن عيسى عليه السلام قام في قومه فقال: يا بني إسرائيل! لا تكلموا بالحكمة عند الجهال فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم)].

لأن العامة يتجرؤون على الحكمة، وربما أنكروها, أو ربما سفهوا أحلام الحكيم, أو طعنوا في شيء من المعاني الصحيحة, فينبغي للإنسان ألا يلقي الحكمة إلا على حكيم, فإنه حينئذٍ يكون ربانياً.

قال رحمه الله: [(ولا تظلموا, ولا تكافئوا ظالماً فيبطل فضلكم عند ربكم. الأمر ثلاثة: أمر بين رشده فاتبعوه، وأمر بين غيه فاجتنبوه، وأمر اختلف فيه فكلوه إلى الله عز وجل)].

نكتفي بهذا القدر، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

الدرس التاسع

من أركان الإيمان: الإيمان بالبعث بعد الموت, وما يجعله الله عز وجل بعد ذلك من حساب وعقاب وثواب, وما يجعله من ميزان لأهل الحسنات والسيئات, وما يجعله من شدائد في يوم العرصات، ومن أعظم الشفاعات يوم القيامة هي شفاعة النبي ﷺ لأهل الكبائر من أمته الذين ماتوا على التوحيد.

الإيمان بالبعث وسائر أمور الآخرة

بسم الله الرحمن الرحيم. وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:

قال المصنف رحمه الله: [ويؤمن أهل الدين والسنة بالبعث بعد الموت يوم القيامة، وبكل ما أخبر الله سبحانه من أهوال ذلك اليوم الحق، واختلاف أحوال العباد فيه والخلق فيما يرونه ويلقونه هنالك، في ذلك اليوم الهائل, من أخذ الكتب بالأيمان والشمائل، والإجابة عن المسائل].

منزلة الإيمان بالبعث واليوم الآخر

الإيمان بالبعث بعد الموت, وما يجعله الله عز وجل بعد ذلك من حساب وعقاب وثواب, وما يجعله الله عز وجل من ميزان لأهل الحسنات والسيئات, وما يجعله الله عز وجل أيضاً من امتحان واختبار وشدائد في يوم العرصات, هذا من أركان الإيمان, ولهذا يقول النبي ﷺ كما جاء في الصحيح من حديث أبي هريرة وكذلك من حديث عمر بن الخطاب، لما جاء جبريل إلى

رسول الله ﷺ: (قال: ما الإيمان؟ قال: الإيمان أن تؤمن بالله, وملائكته, وكتبه, ورسله, وبالبعث بعد الموت, وبالقدر خيره وشره), فيؤمن الإنسان بالبعث بعد الموت, وما أخبر الله عز وجل به.

الإيمان الذي يسقط به التكليف عن الإنسان باليوم الآخر

والإيمان الذي يسقط به التكليف عن الإنسان باليوم الآخر أن يؤمن بأن الله عز وجل يبعث الناس، ويجازيهم على أعمالهم, من خيراً وإن شراً فشر, يجازي المحسن بالإحسان والمسيء بالإساءة, وأهل الإيمان يكونون من أهل الجنة، وأهل الكفر يكونون من أهل النار خالدين فيها, وأن الله عز وجل يعذب طائفة من أهل الإيمان, يمحصهم سبحانه وتعالى، ثم يدخلهم الله جل وعلا الجنة بعد ذلك, وأن الله سبحانه وتعالى حرم على أهل الإيمان الخلود في النار.

الإيمان بأحداث يوم القيامة على التفصيل

وما يأتي من تفاصيل القيامة؛ من العرض, والميزان, والصراط, وصفة المرور عليه؛ فنقول: الإيمان بذلك عند ورود النص واجب, وعند عدم وروده لا يجب على كل أحد أن يتتبع النص ليصح إيمانه فيؤمن بذلك, ولهذا نقول: الذي يقول: إنني لا أعلم عن الصراط شيئاً، ولا أؤمن به, باعتبار عدم ورود دليل في ذلك، هذا معذور؛ لأنه لم يسمع بهذا, وأما الذي يقول: لا أدري ما البعث، ولا أدري الناس يبعثون أو لا يبعثون؛ هذا هل يصح إيمانه أو لا يصح؟ لا يصح إيمانه, باعتبار أن الأصل في ذلك أنه لا يصح إيمان الإنسان إلا بالإيمان بالبعث.

وأما ما يتعلق بتفاصيل ذلك فإن ذلك يرجع فيه الإنسان إلى وقوفه عن الدليل, إن وقف عليه وجب عليه أن يؤمن, وإن لم يقف عليه لا يجب عليه أن يؤمن؛ كالكفتين للميزان, وكذلك إقرار الله سبحانه وتعالى لعباده, وجعل المؤمن في كنفه, وكذلك ما يتعلق بالصحف ومدها, وما يتعلق أيضاً بدنو الشمس, وغير ذلك مما أخبر النبي ﷺ عن كونه يوم القيامة, نقول: هذا معرفته ليست من أركان الإيمان بهذا التفصيل.

وأما ما يجب على المؤمن أن يؤمن أن الله عز وجل على سبيل الإجمال يبعث عباده، ويجازي المحسن بالإحسان والمسيء بالإساءة, المحسن هو من آمن على ما تقدم الكلام عليه, والمسيء هو من كفر بالله سبحانه وتعالى, ويعذب الله عز وجل طائفة من أهل الإيمان بذنوبهم، ثم يدخلهم الله عز وجل الجنة؛ وذلك بما يشاؤه الله سبحانه وتعالى ويقدره.

نشر الصحف يوم القيامة

وهنا يذكر المصنف رحمه الله ما يأتي يوم القيامة من صحف, صحف يأخذها الإنسان بيمينه, وصحف يأخذها بشماله, صحف اليمين هي الصحف الراجحة من صحف الحسنات, وأما ما يأخذه الإنسان بشماله فهي الصحف الراجحة من أعماله السيئة, التي تقود الإنسان إلى النار والعياذ بالله.

وما من أحد من العباد من أهل الإيمان إلا وله كفتان: كفة حسنات, وكفة سيئات, يستثنى من ذلك من غفر الله عز وجل له ما تقدم من ذنبه وما تأخر, ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح:2], هذا من خصائص رسول الله صلى الله عليه وسلم, أما بقية العباد فلهم كفتان: كفة حسنات, وكفة سيئات, وأما من له كفة واحدة وهي كفة السيئات وهم الكفرة, وهم من كفر بالله سبحانه وتعالى.

ولهذا نستطيع أن نقول: إن الناس يوم القيامة منهم من له كفتان, وهم سائر الخلق, لهم حسنات وسيئات, ومنهم من له كفة واحدة؛ كفة حسنات, وهو نبينا ﷺ؛ لأن الله عز وجل غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر, وقسم له كفة واحدة وهي كفة السيئات وهم الكفار, أين الحسنات؟ (عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا), فحينئذٍ ليس لديهم حسنات, ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ ﴾ [المائدة:5], ولم يبق لديه شيء من عمل الطاعات التي تقرب بها إلى الله عز وجل في دنياه, وحينئذٍ ليس له إلا كفة واحدة وهي كفة السيئات.

وأما ما يتعلق ببعض الأعمال التي تقع من الإنسان فنقول: إن الإشراك مع الله عز وجل غيره هذه تزيل ما في الكفة الثانية, وليس له موزون فيها, باعتبار أن الشرك يضيع ويهدر ويحبط غيره من سائر أعمال الطاعات, وهذا للشرك الأكبر؛ لأن الله عز وجل يقول: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء:48], لأن الله قطع أن الشرك الأكبر لا يغفره لصاحبه, وأما ما عدا ذلك من الذنوب فإنها تحت مشيئة الله سبحانه وتعالى, ويستثنى من مشيئة الله عز وجل في غفران الذنوب أمور:

أولها: هل يدخل الشرك الأصغر في هذا الباب أم لا؟ هذا موضع خلاف, هل يدخل تحت نفي الغفران؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾ [النساء:48] ؟ هم قولان للعلماء في هذا؛ قولان لأهل السنة, وهم قولان أيضاً لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله, قال: تارة أن الله عز وجل يجعلها تحت المشيئة, يعني: الشرك الأصغر, وقول: أنه لا يكون تحت المشيئة, بل إن الله عز وجل قطع الأمر في ذلك, فلا يغفر لأحد من عباده أشرك معه, سواء كان شركاً أصغر أو كان شركاً أكبر, فهذا على هذا القول يكون مما حرم الله عز وجل على نفسه غفرانه, ولكن يدخل في باب الموازنة, لا يمحو غيره؛ لأن الله عز وجل حينما قال: ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ ﴾ [المائدة:5], المراد بذلك هو الكفر الأكبر, ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر:65], المراد به هو الشرك الأكبر لا الشرك الأصغر, هو الذي يحبط جميع الأعمال.

أما ما يتعلق بالشرك الأصغر فلا يحبط جميع الأعمال، ولكن يحبط شيئاً منها, وإنما قلنا شيئاً منها؛ لأن الإطلاق في قول الله عز وجل: ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ ﴾ [الزمر:65] المراد بذلك هو الشرك الأكبر, وقلنا بالجزم بالإحباط أن السيئات تمحو الحسنات كما أن الحسنات تمحو السيئات, كما في قول الله جل وعلا في كتابه العظيم: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ

الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ [هود:114], هذا في أمور الحسنات تذهب السيئات.

أما ما يتعلق بالسيئات هل تذهب الحسنات أو تذهب بعضها؟ نقول: نعم, كما أن الحسنة لا تذهب جميع السيئات كذلك فإن السيئة لا تذهب جميع الحسنات إلا الشرك الأكبر, فإنه يمحو الله عز وجل به سائر ما يفعله الإنسان فلا يجازى عليه في الآخرة, وإنما يعجل له في الدنيا.

وأما بالنسبة لمحو السيئات للحسنات فهي على نوعين:

النوع الأول: محو سيئة لحسنة تقابلها, وذلك بنقضها؛ كقول الله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى ﴾ [البقرة:264], فهو قد نقض صدقة بضدها, فتصدق ثم امتن, فقال: أعطيتك مالاً, يريد بذلك أن يظهر المنة, فهو نقض, ويدخل في هذا ما يتعلق بدقائق الشرك الأصغر من أمور الرياء وغير ذلك, فهذا يبطل ذلك العمل.

النوع الثاني: هو إبطال عمل من غير جنسه, فالسيئة تبطل الحسنة من غير جنسها؛ وذلك كالزنا, وهو كبيرة, يبطل طاعات أخرى؛ كتسبيح واستغفار وتهليل وغير ذلك, ولهذا الله سبحانه وتعالى يقول في كتابه العظيم: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات:2], يعني: أن رفع الصوت عند النبي ﷺ من أسباب إحباط العمل, وهذا من مواضع الخلاف عند أهل السنة، ولهم قولان في مسألة محو السيئات للحسنات, محو الحسنات للسيئات هذا محل اتفاق عند أهل السنة.

وأما ما يتعلق بمحو السيئات للحسنات فهذا موضع خلاف عند أهل السنة، فقد اختلفوا في هذه المسألة على قولين: ذهب طائفة من أهل السنة وهو قول المعتزلة, إلى أن السيئات تمحو الحسنات كما أن الحسنات تمحو السيئات, وذهب جماعة من أهل السنة إلى أن السيئات لا تمحو الحسنات, قالوا: وهذا مقتضى أن رحمة الله سبحانه وتعالى تسبق غضبه, والتساوي في ذلك يحتاج إلى دليل, قالوا: ولا دليل صريح في ذلك.

نقول: الأدلة في هذا ظاهرة, فقد جاء من حديث أبي إسحاق عن زوجه عن عائشة عليها رضوان الله تعالى (أنها قالت لأم زيد بن أرقم : أخبريه أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله إلا أن يتوب), لما تبايع بالعينة, ولهذا نقول: إن السيئة تذهب شيئاً من حسنات الإنسان, هذا فيما يتعلق بالسيئات التي هي من حق الله عز وجل المحض, أما ما كان من السيئات التي تكون من حق العباد فنقول: هذا الله عز وجل يغفرها لعبده بجميع أنواع المكفرات.

والمكفرات: لدينا حسنات تذهب السيئات, الاستغفار والتوبة, المصائب والهموم التي تطرأ على الإنسان, وكذلك الأحزان والآلام والأمراض والأسقام التي تطرأ على الإنسان, حتى الشوكة يشاكها الإنسان يكفر الله عز وجل بها من خطاياه, فهذه مكفرات, وكذلك ما يفتن به الإنسان في قبره مما يكفر الله عز وجل به أيضاً من عذاب يوم القيامة, عرصات يوم القيامة, فالله عز وجل لا يجمع للإنسان عذابين وغير ذلك, كذلك استغفار الإنسان لأخيه يمحو الله عز وجل به من ذنبه, وغير ذلك من

أنواع المكفرات, وكل هذه المكفرات تكفر ما كان من حق الله عز وجل.

وأما ما كان من حقوق العباد فيما بينهم, وهي ثلاثة: الدماء, والأموال, والأعراض, فهذه لا تأتي عليها المكفرات, فكيف تكفر؟ تكفر إما بالاستحلال أو بأداء الحق إلى أهله, وقد دل الدليل على ذلك, فقد جاء في حديث أبي هريرة في قول النبي ﷺ كما في مسلم : (لتؤدن الحقوق إلى أهلها، وليقتصن الله من الشاة القرناء للشاة الجماء), وهذا الموضع الوحيد الذي تكلف به البهائم, وتحاسب عليه يوم القيامة, وهي الحقوق فيما بينها, فتحاسب البهائم على هذا, باعتبار أن الله عز وجل قد جعل فيها قدرة تميز الحق فيما بينها, فيحاسبها الله عز وجل على ذلك.

وكذلك ما كان من أمور العباد فيما بينهم؛ في الأموال, في الدماء, في الضرب, واللطم, والجراحة والقتل وغير ذلك, فإن الله عز وجل يجعلها قصاصاً يوم القيامة, والقصاص بالحسنات والسيئات جاء من حديث سعيد بن زيد من حديث أبي هريرة , وجاء من حديث عبد الله بن أنيس من حديث جابر بن عبد الله وغيرها عن رسول الله ﷺ، والأدلة في ذلك مستفيضة.

مجازاة الله لعباده على مثاقيل الذر من الخير والشر

قال المصنف رحمه الله: [إلى سائر الزلازل والبلابل الموعودة في ذلك اليوم العظيم، والمقام الهائل من الصراط والميزان، ونشر الصحف التي فيها مثاقيل الذر من الخير والشر وغيرها].

وذلك أنه ما من أحد إلا ويجازيه الله عز وجل ولو كان من أمور الخير الدقيقة, ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه ﴾ [الزلزلة:7-8], ولو كان مثقال ذرة, لا بد أن يراه بعينه, وقوله هنا: (يَرَه) يعني: أن الله عز وجل يوقف عبده على كل عمل عمله, يقره عليه, والله عز وجل يجعل الكتبة عن يمين وشمال؛ هل هو للعلم أم لإقامة الحجة؟ لإقامة الحجة؛ لأن الله عز وجل يعلم, وليس بحاجة للكتبة, وإنما هو لإقامة الحجة على العبد يوم القيامة, فيكون من الشهود عليه, فيشهدون، ثم يأبى إلا من شاهد من نفسه، فينطق الله عز وجل جوارح العبد.

والله سبحانه وتعالى يحصي على عبده كل شيء.

وما تاب منه في الدنيا وقبل الله عز وجل عليه توبته؛ هل يره الإنسان؟ ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه ﴾ [الزلزلة:8], هل يره أم لا يره؟ هذا موضع خلاف, ذهب الجمهور إلى أن التائب من الذنب كمن لا ذنب له, وأن الذنب يعدم, ولا يبقى منه شيء, فإذا قبل الله عز وجل من عبده توبة, ذهب بعض أهل السنة وقال بهذا الحسن البصري إلى أنه لا يمحى, فيبقى ويقر عليه ويسأل عنه, وهذا مقتضى الإحصاء وعدم مغادرة صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها, لكن لا يعذب عليها, وإنما يقر, (أتذكر ذنب كذا وكذا في يوم كذا وكذا واستغفرت منه؟) غفره الله عز وجل لك, لكن لا يعذبك به, ويقرك بذنب لم تتب منه ولم يغفره الله عز وجل لك، ويحاسبك عليه إن شاء سبحانه وتعالى.

شفاعة الرسول لأهل التوحيد وأهل الكبائر

قال المصنف رحمه الله: [ويؤمن أهل الدين والسنة بشفاعة الرسول ﷺ لمذنبي أهل التوحيد ومرتكبي الكبائر، كما ورد به الخبر الصحيح عن رسول الله ﷺ].

معنى الشفاعة وأنواعها

الشفاعة: هي اقتران فرد بغيره فيكون شفيعاً, والفرد الذي يعجز عن القيام بأمر فيأتي من يعضده ليقوم بذلك الأمر.

والشفاعة مشتقة من الشفع, وهو ضد الوتر, وضد الفرد, وهو: أن يعضد الشيء غيره على حمل شيء عجز عنه وحده, أو يعجز عنه وحده, فيسمى الثاني شفيعاً للأول, وهذه منها شفاعة النبي ﷺ العامة والخاصة؛ العامة لأهل الموقف, والخاصة بأهل الإيمان, ومنها شفاعة أهل الإيمان لبعضهم, فيشفع المؤمن للمؤمن, ويشفع أيضاً الزوج لزوجه, والأب لابنه, والابن لأبيه, ويشفع الشهيد لسبعين من أهل بيته, وغير ذلك من صور الشفاعة التي ذكرها الله عز وجل في كتابه أو جاءت عن رسول الله ﷺ.

وأعظم الشفاعات هي شفاعة النبي ﷺ؛ لماذا؟ لأنها عامة لهذه الأمة ولغيرها.

شروط قبول الشفاعة

والله عز وجل لا يجعل الشفاعة شفاعة إلا بشرطين:

الشرط الأول: أن يأذن الله عز وجل للشافع أن يشفع.

الشرط الثاني: أن يرضى الله سبحانه وتعالى عن المشفوع له.

ولكن نقول: إن الله عز وجل لا يرضى عن الكافرين, ولهذا الشفاعة لا ترد على أهل الكفر, واستثنى الله عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام عمه أبي طالب , فقبل الله عز وجل شفاعة رسوله ﷺ، فخفف من عذابه، ولكنه في النار خالداً مخلداً فيها, فكان عليه نعلين وعلى ضحضاح من نار يغلي منه دماغه.

ويروى أيضاً في البخاري من غير شرطه في ذلك أبي لهب ؛ لماذا؟ لأنه أعتق مرضعة النبي ﷺ في الجاهلية, فأرضعت النبي ﷺ, وهذا يتكلم غير واحد من العلماء في إسناده؛ أن أبا لهبيسقى بمقدار هذه, وهي في أسفل الإبهام, وهي حفرة يسيرة يسقى بمقدارها ماء في نار جهنم.

اختصاص الشفاعة بأهل الإيمان

قال رحمه الله: [أخبرنا أبو سعيد بن حمدون أنبأنا أبو حامد بن الشرقي، حدثنا أحمد بن يوسف السلمي، حدثنا عبد الرزاق، أنبانا معمر عن ثابت عن أنس عن النبي ﷺ قال: (شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي).

وأخبرنا أبو علي زاهر بن أحمد أخبرنا مُحَمَّد بن المسيب الأغياني، حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا عبد السلام بن حرب الملائي، عن زياد بن خيثمة عن نعمان بن قراد، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (خيرت بين الشفاعة وبين أن يدخل شطر أمتي الجنة، فاخترت الشفاعة؛ لأنها أعم وأكفى, أترونها للمؤمنين المتقين؟ لا، ولكنها للمذنبين المتلوثين الخطائين).

أخبرنا المجلدي، أخبرنا أبو العباس السراج حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا عبد العزيز بن مُحَمَّد الدراوردي عن عمرو بن أبي عمرو ح، وأخبرنا أبو طاهر بن خزيمة أخبرنا جدي الإمام مُحَمَّد بن إسحاق بن خزيمة، حدثنا علي بن حجر بن إسماعيل بن جعفر، عن عمرو بن أبي عمرو، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: (يا رسول الله! من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ فقال: لقد ظننت ألا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك، لما رأيت من حرصك على الحديث، إن أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قبل نفسه)].

ولهذا نقول: إن أصل الشفاعة لا تكون إلا لأهل الإيمان؛ لأن الله عز وجل لا يرضى عن مشرك, باعتبار أنه ما أدى حق الله عز وجل عليه, ولهذا يقول النبي ﷺ لما كان على دابته، وأردف معاذ بن جبلقال: (أتدري ما حق العباد على الله وما حق الله عز وجل على العباد؟ قال: حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً, وحق العباد على الله ألا يعذب من لم يشرك معه شيئاً), فمن حقق توحيد الله سبحانه وتعالى فإن الله عز وجل يجعله من أهل الجنة, إما ابتداء أو مآله إليها, ولهذا حرم الله عز وجل على أهل الإيمان النار, والتحريم في ذلك على نوعين: تحريم إلى أمد, وتحريم إلى أبد, (تحريم إلى أمد) يعني: إلى مدة معينة, فلا يدخلها ولو إلى مدة, (وإلى أبد) يعني: لا يخلد فيها, وأما أهل الجنة فمن دخلها لا يخرج منها, ولكن تتغير حاله, يزيده الله عز وجل نعيماً.

الإيمان بإدخال أهل الجنة الجنة وأهل النار النار

قال المصنف رحمه الله: [ويؤمنون بالحوض والكوثر، وإدخال فريق من الموحدين الجنة بغير حساب، ومحاسبة فريق منهم حساباً يسيراً، وإدخالهم الجنة بغير سوء يمسهم وعذاب يلحقهم، وإدخال فريق من مذنبيهم النار, ثم إعتاقهم وإخراجهم منها، وإلحاقهم بإخوانهم الذين سبقوهم إلى الجنة, ولا يخلدون في النار، فأما الكفار فإنهم يخلدون فيها، ولا يخرجون منها أبداً، ولا يترك الله فيها من عصاة أهل الإيمان أحداً].

يخرج الله عز وجل ممن كان في النار ممن كتب الله عز وجل عليه العذاب من أهل الكبائر, بعد أن ينقيهم الله عز وجل بعذاب في النار, ويخرجهم الله عز وجل إلى الجنة, وهؤلاء الذين عذبهم الله سبحانه وتعالى بمقدار معين ليسوا من أهل الكفر؛ لأنه لا يخرج من النار كافر.

وجاء في حديث أبي هريرة عليه رضوان الله في الصحيح في قول النبي ﷺ: (يخرج من النار أقوام لم يعملوا خيراً قط), وهذا يستدل به من يقول: إن العمل ليس من الإيمان, قالوا: لو كان من الإيمان بأنه لو انتفى عن الإنسان الإيمان لأصبح الإنسان كافراً, والرد على هذا من وجهين:

الوجه الأول: أن في قوله عليه الصلاة والسلام: (لم يعملوا خيراً قط), أن هذا النفي لا يقتضي نفي الكل بجميع أجزائه, وإنما إشارة إلى ندرة العمل, وهذا معلوم من أساليب العرب.

الوجه الثاني: أن في قوله عليه الصلاة والسلام: (لم يعملوا خيراً قط), نقول: أعمال الصالحات هي تروك وأفعال, فهؤلاء لم يعملوا خيراً قط, والعمل ربما يكون من الإنسان بتركه للمحرمات احتساباً, وربما لم يعمل خيراً قط لجهله بذلك العمل، ولكنه أسرف على نفسه بالمحرمات.

وقد جاء في حديث حذيفة عند ابن ماجه والحاكم أن النبي ﷺ قال: (يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب, حتى لا يُدرى ما صلاة وصيام ولا صدقة ولا نسك, إلا أقوام يقولون: لا إله إلا الله, كنا نسمع آباءنا يقولونها ونحن نقولها, فقال حذيفة بن اليمان لما قيل له: ما تغنيهم لا إله إلا الله؟ قال: تنجيهم من النار لا أب لك!), هؤلاء هل عملوا خيراً قط؟ لم يعملوا خيراً قط, لكن لو هؤلاء الذين لم يعملوا خيراً قط؛ لأنهم لا يعلمون شيئاً وقعوا في المحرمات والكبائر ألا يعاقبون عليها لو شاء الله؟ يعاقبون عليها, ويكونون من أهل النار, وهؤلاء يستحقون الوصف بأنهم لم يعملوا خيراً قط أو لا يستحقون؟ يستحقون؛ لأنهم لم يعملوا خيراً قط يوجب لهم دخول الجنة إلا ما وجد لديهم من الإيمان, فاستحقوا دخول النار بفعل المحرمات, وما استوجبوا دخول الجنة بعمل إلا الإيمان بالله سبحانه وتعالى.

فالله سبحانه وتعالى قد جعل في الدلالة إلى الخير أمرين: الأمر الأول: الدلالة الشرعية, الثاني: الدلالة الفطرية, فالإنسان يعلم أن الكذب مذموم بجميع الفطر, والسرقة في أي ملة حتى الملحد يعلم أن السرقة مذمومة, وقتل النفوس يعلم أنها مذمومة, وغير ذلك من الأمور المحرمة, ومثل هذا لو لم يرد لديه علم من الشرع وبلغه التوحيد، ولم يرد لديه أن السرقة حرام بنص الشرع بوحي الله وسنة رسول الله ﷺ وسرق هل يعاقب أو لا يعاقب؟ يعاقب؛ لماذا؟ دلالة الفطرة, قتل ألا يعاقب أو لا يعاقب؟ يعاقب.

لكن قد يقول قائل: إنه لم يرد لديه شيء من الوحي من كلام الله وكلام رسول الله يدل على أن هذا القتل حرام, وأن السرقة حرام, وإنما بلغه عن الإسلام هو التوحيد؛ لا إله إلا الله مُحَمَّد رسول الله.

نقول: يحاسب على ذلك؛ لأن دلالة الفطرة في ذلك ظاهرة وقوية, ولهذا نقول: إن الوازع الذي جاء به الشرع في بيانه الشرع على نوعين: وازع شرع, ووازع طبع, فوازع الشرع قوي, ووازع الطبع قوي, وتارة يكون وازع الطبع أقوى من وازع الشرع, وإذا كان وازع الطبع قوياً ضعف وازع الشرع, ولا يأتي وازع الشرع قوياً كغيره.

ولهذا نجد كثيراً من الأمور إذا كان وازع الطبع ضعيفاً جاءت النصوص بالتشديد عليها؛ لماذا؟ لأن النفس تقبل عليه، فجاءت الشريعة بالتشديد على هذا الأمر, وحال نصوص الشريعة في هذه الموازنة في أمر الفطرة كحال فطرة الإنسان, فالإنسان إذا كان لديه منديل أو لديه ورقة, وهذه الورقة راكدة, والمحرك لهذا المنديل وهذه الورقة هو وازع الطبع, فإذا كان الهواء قوياً يأتي بحجرة قوية ويضعها على المنديل؛ لماذا؟ لأن الهواء الذي يجرف شديد, ولكن إذا كان لا يوجد شيء يترك، ولا يوضع عليه شيء, ولهذا تأتي الشريعة بتحريم ما تقبل النفس عليه، وترك ما تعافه النفس, ولهذا لا يوجد دليل في الشريعة على حرمة أكل التراب, وشرب العذرة، فإذا اشتهى الإنسان ذلك ارتفع التكليف.

ولهذا لما سئل عامر الشعبي عن أكل الذباب, قال: إن اشتهيت فكل؛ لأنه إذا اشتهيته لا يوجد تكليف, فتتوازن الشريعة مع الطبع, فإذا وجد الطبع ضعيفاً جاء النص قوياً؛ حتى تكون ثمة موازنة, والنفس تتشوف إلى الزنا، وشرب الخمر جاءت النصوص في ذلك قوية, مع أن ضرر القاذورات وشربها أشد ضرراً على الإنسان من الخمر, فجاء النص بالخمر أشد ومستفيضاً, ولم يأت في هذه القاذورات؛ لأن وازع الطبع بالنفرة منها قوياً.

وكذلك تجد حتى في مسألة الخلوة بالمرأة, الرجل الكافر يخلو بابنته وهو محرم لها، ويسافر بها, لكن الرجل الصالح العابد هل يسافر بالأجنبية؟ لا, هذا لديه وازع شرع؛ صالح؛ لماذا لا يخلو بها, ووازع الشرع لديه ظاهر؛ لماذا؟ لأن وازع الطبع ضعيف, ووازع الطبع عند الكافر على ابنته أقوى من وازع الشرع, فترك هذا الأمر, ولهذا الكافر يخلو بابنته ولو كان كافراً، وبأخته ولو كان كافراً، والصالح مهما بلغ صلاحاً لا يسافر بالأجنبية ولا يخلو بها, ولهذا تأتي الشريعة بالموازنة بين هذين الأمرين.

والله سبحانه وتعالى يعاقب أقواماً في النار بسبب مخالفة دليل الفطرة, الذي ثبت لديه أصل الإيمان واستقر لديه ولكن قتل ودليل الفطرة يمنع, سرق ويعلم أن السرقة بدلالة الفطرة ممنوعة، ولو لم يكن لديه دليل من القرآن بالنص وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك ظاهر, وهؤلاء عاقبهم الله جل وعلا بفعل المحرم، ولم يوجب الله عز وجل لهم دخول الجنة بعمل؛ لأنه ليس لديهم عمل.

رؤية المؤمنين لربهم

قال المصنف رحمه الله: [ويشهد أهل السنة أن المؤمنين يرون ربهم تبارك وتعالى، وينظرون إليه على ما ورد به الخبر الصحيح عن رسول الله ﷺ في قوله: (إنكم ترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر), والتشبيه وقع للرؤية بالرؤية، لا للمرئي بالمرئي,

والأخبار الواردة في الرؤية مخرجة في كتاب الانتصار بطرقها].

قوله: (ينظرون إليه) أي: بأبصارهم فأراد أن يثبت الحقيقة, أن الرؤية ليست رؤية ذهنية أو تخيلات أو نحو ذلك, وإنما يرونه بأبصارهم على الحقيقة, ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة:22-23], وهذا تحقيق لرؤية الله سبحانه وتعالى حقيقة لا تخيلاً.

خلق الجنة والنار

قال المصنف رحمه الله: [ويشهد أهل السنة أن الجنة والنار مخلوقتان].

تقدم معنا الكلام في قول المصنف رحمه الله: (ويشهد أهل السنة) ويشهد أهل الحديث, ففي مثل هذا أوضحنا أن المراد بالشهادة هو إخبار الإنسان عما يعتقده في قلبه, وهذا مما يأتي في كلام المصنف بإذن الله بقوله: أن الإيمان قول وعمل واعتقاد.

قال رحمه الله: [وأنهما باقيتان لا يفنيان أبداً، وأن أهل الجنة لا يخرجون منها أبداً, وكذلك أهل النار الذين هم أهلها خلقوا لها، لا يخرجون منها أبداً].

وذلك لعموم قول الله عز وجل: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ [الجن:23]، ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ ﴾ [هود:107].

قال رحمه الله: [وأن المنادي ينادي يومئذٍ: (يا أهل الجنة! خلود ولا موت, ويا أهل النار! خلود ولا موت), على ما ورد به الخبر الصحيح عن رسول الله ﷺ].

وأما ما يرد في بعض المواضع بتقييد مشيئة الله سبحانه وتعالى, ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ [هود:107], نقول: ذلك أنه أقوام يدخلون النار, ولكن لا يخلدون فيها, وهم أهل الكبائر الذين أسرفوا على أنفسهم, فطول بقائهم في النار يسمى خلوداً, والعرب تسمي الرجل الذي أطال المكث في بلد، أو طال عمره تسميه بخالد, تقول: خُلِّد فلان, ولهذا تسمي أبناءها بخالد تيمناً وتفاؤلاً بطول بقائه.

نكتفي بهذا القدر، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

الدرس العاشر

الإيمان: قول وعمل واعتقاد, وما جاء به رسول الله ﷺ عن ربه من الإيمان بالله, وملائكته, وكتبه, ورسله, وبالقدر خيره وشره, وبالبعث بعد الموت, وما جاء كذلك في تعريف الإسلام, كل هذا داخل في دائرة الإيمان.

- **تعريف الإيمان**

بسم الله الرحمن الرحيم. وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:

قال المصنف رحمه الله: [ومن مذهب أهل الحديث أن الإيمان قول وعمل ومعرفة].

قوله هنا: (الإيمان قول وعمل ومعرفة) هذا يحتاج إلى شيء من الوقفات:

ينبغي أن نعلم أن الإيمان الذي جاء به رسول الله ﷺ عن ربه من الإيمان بالله, وملائكته, وكتبه, ورسله, وبالقدر خيره وشره, وبالبعث بعد الموت, وما جاء كذلك في تعريف الإسلام, كل هذا داخل في دائرة الإيمان.

الإيمان: قول وعمل واعتقاد, الاعتقاد: قول وعمل, فالقلب له قول وله عمل.

ما هو قول القلب؟ قول القلب التصديق, أن يصدق بأن الله واحد في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته, ويصدق فيما أخبر الله عز وجل به في كتابه, وما جاء عن رسول الله ﷺ.

وعمل القلب هو حب الله جل وعلا, وحب ما يحبه الله، وبغض ما يبغضه الله, والرضا بقضاء الله.

كذلك الإخلاص لله عز وجل عند العمل, كثير من الناس يصدق بوجود الله وأيضاً بوحدانية الله، ولكنه لا يحب ما يحبه الله، ولا يبغض ما يبغضه الله, فذلك لم يتحقق فيه الإيمان.

وأما قول اللسان فيسمى قولاً، ويسمى فعلاً, قول اللسان يسمى فعلاً؛ لأن الله عز وجل يقول في كتابه العظيم: ﴿ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾ [الأنعام:112], فجعله الله عز وجل فعلاً بعد أن سماه قولاً, وهذا أيضاً من مواضع الخلاف عند أهل السنة؛ أن يسمى القول فعلاً أو لا يسمى.

وكذلك عمل الجوارح، وهذه كلها إيمان.

وقفة مع تجزيء الإيمان

ولهذا العلماء يقولون: الإيمان قول وعمل واعتقاد, لا يقولون: إنه يركب, أو أجزاؤه, أو يتكون من, أو غير ذلك؛ كما جرى عليه كثير من المتأخرين, وإنما يقولون: إن الإيمان قول وعمل واعتقاد, كيف يكون هذا؟ أنه لا نقول: إن هذه ليست أقساماً ولا أنواعاً ولا تركيباً وغير ذلك؟ نقول: لأننا إذا قلنا: يتكون من؛ فانتفى واحد منها أصبح شيئاً ناقصاً, وإنما نقول: كلها قول وعمل واعتقاد, إذا نقص واحد منها انتفى الباقي.

وحتى تقرب المسألة: نبينا عليه الصلاة والسلام اسمه مُحَمَّد بن عبد الله بن عبد المطلب، هذه ثلاثة أسماء, إذا جاءت مُحَمَّد بن سليمان بن عبد المطلب؛ هذا رسول الله؟ ليس برسول الله, وإذا جاءك عبد الله بن عبد الله بن عبد المطلب؛ هذا رسول الله؟ ليس برسول الله, فهذه الثلاثة: مُحَمَّد بن عبد الله بن عبد المطلب, هي رسول الله ﷺ, إذا نقص واحد منها هل نقول: نبوة ناقصة أم نبوة منتفية؟ نبوة منتفية, ولهذا تجد في عبارات السلف السابقين يقولون: الإيمان قول وعمل واعتقاد؛ كقولهم: مُحَمَّد بن عبد الله بن عبد المطلب, إذا نقص العمل كقولنا: مُحَمَّد بن عبد الله، هل هذا رسول الله ﷺ؟ إذا قلنا: أين ابن عبد المطلب؟ قالوا: لا يوجد شيء في هذا, هل هذا رسول الله؟ ليس برسول الله؛ كذلك هذا ليس الإيمان, يقولون: أليس هذا قولاً وهذا عملاً؟ نقول: هذا قول وهذا عمل، ولكن ليس قولاً ولا عمل الإسلام, ويقولون: أليس هذا مُحَمَّداً وأبوه عبد الله؟ هذا مُحَمَّد وأبوه عبد الله لكن ليس نبينا.

ولهذا نقول: إن الإيمان قول وعمل واعتقاد, وهي هذه الثلاثة هي الإيمان.

والمراد بالعمل الذي يأتي هنا في كلام الأئمة عليهم رحمة الله هو ما انفردت به شريعة مُحَمَّد ﷺ, وليس المراد بذلك سائر الطاعات؛ لأنه لا يخلو أحد في هذه الأرض من عمل طاعة وعمل بر, هناك من يبذل التحية, وهناك من يغيث الملهوف, وهناك من يقضي حاجة المحتاج, وغير ذلك من الأعمال, وهناك من يبر والديه حتى لو كان ملحداً, بدافع الفطرة, هل هذه الأعمال هي المقصودة بقولنا: قول وعمل واعتقاد؟ لا, المراد بذلك العمل الذي لا يكون الإيمان إلا به, هو العمل الذي اختصت به شريعة مُحَمَّد ﷺ, من الصلاة, الصيام, الزكاة, الحج, أو غير ذلك من الأعمال التي جاء بها رسول الله ﷺ؛ لماذا؟ حتى يدل عمله على أنه آمن بالنبي عليه الصلاة والسلام, ليس بدعوى, جاء بشيء من هذه الخصائص, وما جاء بأمور تدل عليها الفطرة, أو دلت عليها شرائع سابقة.

فقول العلماء عليهم رحمة الله في الإيمان: إنه قول وعمل واعتقاد, نقول: هذه ليست أجزاء ولا أقساماً ولا تراكيب، بل هي الإيمان؛ كما نقول في النبي ﷺ في اسمه: مُحَمَّد بن عبد الله بن عبد المطلب؛ ليست تكويناً ولا أقساماً ولا أجزاء, بل هذا هو رسول الله ﷺ, إذ انتفى واحد منها وعدم ليس هذا بنبي الأمة, وإنما هو غيره.

وكذلك إذا كان ثمة قول واعتقاد، ولم يكن ثمة عمل نقول: هذا إيمان، ولكنه ليس بإيمان الإسلام, وإذا كان ثمة قول وعمل ولم

يكن ثمة اعتقاد نقول: هذا إيمان، ولكنه ليس بإيمان الإسلام.

الإيغال في تفصيل الإيمان عند المتأخرين

وكثير من الشراح حينما يتكلمون عن أمثال هذه الألفاظ الواردة عن السلف في قولهم: (قول وعمل واعتقاد) يوغلون في مسائل التفصيل, وبعض الكلام مؤداه صحيح, ولذلك تجد من العلماء من يقول: إن هذه الثلاثة هي أركان الإيمان, إذ انتفى ركن انتفى الإيمان, ولكن مثل هذه التقسيمات وقول بعضهم: إن العمل شرط صحة للإيمان, وقول بعض المرجئة يقولون: إنه شرط كمال, إذا انتفى ذلك العمل فإنه لا يكون من الإيمان, نقول: هذا إرجاء, وليس على عقيدة السلف الصالح, بل نقول: إن اعتقاد القلب وقول اللسان وعمل الجوارح هي الإيمان.

ومثل هذه التقسيمات وكثرة كلام الشراح في هذا, وتقسيماتهم وجعلها شروطاً, ومنهم من يجعلها شرط صحة, ومنهم من يجعلها شرط كمال, ومنهم من ينفي العمل أصلاً في دخوله في شرط الصحة أو شرط الكمال, وهذه كلها دائرة بسبب الخلل في فهم قول السلف الصالح عليهم رحمة الله اعتماداً على ما جاء في ظواهر الأدلة من الكتاب والسنة في قولهم: إن الإيمان قول وعمل واعتقاد.

ولهذا الله سبحانه وتعالى يقول في كتابه العظيم: ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [العصر:1-3] فقط؟ ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ [العصر:3], وإلا فالأصل فهو خسران, فلا بد من العمل, فالعمل الشامل هنا الذي ذكره الله سبحانه وتعالى في نفيه خسارة, المراد بذلك هو عمل الجوارح, ولا يمكن أن يتحقق للإنسان عمل الجوارح واعتقاد القلب إلا وقد جاء في وسطها قول اللسان.

نكتفي بهذا القدر، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

الدرس الحادي عشر

الإيمان قول وعمل واعتقاد, يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية, ويزول بشيء من المكفرات أو بزوال القول أو العمل أو الاعتقاد بالكلية, وكل من أذنب ذنباً أو أسرف على نفسه بمعصية من الكبائر أو الصغائر أو الموبقات، لا نحكم بكفره حتى يقع في مكفر، وتتوفر فيه الشروط، وتنتفي الموانع.

مسائل متعلقة بمسمى الإيمان

بسم الله الرحمن الرحيم. وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:

قال المصنف رحمه الله: [ومن مذهب أهل الحديث أن الإيمان قول وعمل ومعرفة].

تقدم معنا الكلام على مسألة الإيمان, وأن الإيمان قول وعمل واعتقاد, وذلك خلافاً للطوائف التي خالفت في هذا الباب من الجهمية وغيرهم, وأهل السنة يقولون: إن الإيمان هو القول والعمل والاعتقاد, وتقدم معنا أن هذه الثلاثة هي الإيمان, لا نقول: إنه يتكون من, ولا أجزاء, ولا أقسام, ولا أركان, وإن كان مؤدى بعض هذه الألفاظ صحيح، أو ربما يلزم منه بعض اللوازم التي تؤدي إلى معانٍ خاطئة.

ولهذا نقول: إن الإيمان هو قول وعمل واعتقاد, فإذا فقد الإيمان شيء منها فقدها كلها.

حصر الكفر بجحود القلب دون العمل

وقد سأل أحد الإخوة سؤالاً يقول: إن الإنسان إذا كان يصلي وهو جاحد لوجوب الصلاة؛ فإنه يقال بكفره؟ فعلى هذا مرد ذلك إلى الجحود في القلب لا إلى العمل, فهذا توقف عمله، واختل ما في قلبه, فقالوا: حينئذٍ العبرة بجحود القلب, فهل سبب الخلل أنه جعل العمل وجعل القول وجعل الاعتقاد أجزاء؛ إن فقد الإنسان واحداً منها فإن الباقي ناقص؟

نقول: إن العمل والاعتقاد والقول كلها واحدة بالنسبة للإيمان, فإذا فقد الإنسان واحداً منها كعمل القلب لا عبرة بالباقي, سواء وجد أو لم يوجد, ولهذا تجد إطلاقات السلف عليهم رحمة الله يقولون: إن الإيمان قول وعمل واعتقاد؛ وتقدم معنا التمثيل في اسم النبي ﷺ؛ محمد بن عبد الله بن عبد المطلب, فإذا قلنا: سليمان بن عبد الله بن عبد المطلب؛ هل هذا رسول الله؟ هذه الثلاثة هي رسول الله: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب, لا نقول: يتكون من, ولا أجزاء, ولا شروط, بل هذه الثلاثة مجتمعة تعني رسول الله وخاتم الأنبياء والمرسلين.

فقولنا: (قول وعمل واعتقاد) هذه الثلاثة هي الإيمان, إذا فقدنا قول اللسان ووجد الاعتقاد؛ هل هذا الإيمان؟ ليس بالإيمان, كذلك في حال النبي ﷺ, لو أتانا رجل اسمه سليمان بن عبد الله بن عبد المطلب؛ هل هذا رسول الله وخاتم الأنبياء

والمرسلين؟ نقول: لا, هذا بشر, وهو رجل, وكذا نقول: هو رجل واسمه كذا، لكن ليس رسول الله.

وكذلك بالنسبة للعمل قد يقول قائل: هذا الرجل ينطق بالشهادتين, ويقول: إني أعتقد كذا وكذا, لكنه لا يعمل شيئاً من الخير, نقول: هذا قول وهذا اعتقاد, لكنه ليس بإيمان الإسلام الذي جاء به رسول الله ﷺ.

والخلل الذي يوجد عند كثير ممن تكلم في هذه المسألة أنه يجعل هذه الثلاثة إما مركبة تركيباً للإيمان, أو شروطاً, أو أجزاء وأقساماً وأنواعاً, فإذا نقص واحد منها قال: هذا الإيمان ناقص، وقد وجد فيه الثلثان ونحو ذلك, ولكن نقول: إن هذه كلها هي الإيمان, مُحَمَّد هو كل اسم النبي ﷺ, وابن عبد الله هو كل اسم النبي ﷺ, كذلك ابن عبد المطلب هو كل اسم النبي ﷺ, فإذا فقد اسم النبي ﷺ واحداً من هذه الثلاثة انتفى الباقي؛ فإذا جاء رجل يقول: مُحَمَّد بن عبد الله بن سليمان, هذا قول كقولنا: اعتقاد وقول ولا عمل.

ولهذا نقول: إن هذا اعتقاد وقول, لكنه ليس بإيمان الإسلام الذي جاء به الشريعة, وننظر للأمر المفقود، ولا ننظر للشيء الموجود؛ لأن المفقود ألغى الموجود؛ وذلك كحال كثير من الأحوال حتى في مسائل الحدود ونحو ذلك, تجد الإنسان إذا وقع في الزنا أو شرب الخمر أو غير ذلك يقام عليه الحد إذا توفرت الشروط وانتفت الموانع، أو لا يقام عليه؟ يقام عليه الحد, قد يأتينا رجل يصلي ويزكي ويصوم ويحج ونحو ذلك، هل هذه متصلة بذلك؟ ليست متصلة بذلك، هذه أوجبت حكماً.

وكذلك مع الخلاف في مسألة الإيمان ونفيه, هنا في مسألة القول والعمل والاعتقاد: إذا انتفى العمل انتفى الإيمان, إذا انتفى القول انتفى الإيمان, إذا انتفى الاعتقاد انتفى الإيمان.

دعوى الاكتفاء بمعرفة القلب دون قول اللسان وعمل الجوارح

والطوائف في مسألة القول والعمل وكذلك الاعتقاد المخالفة لمنهج الحق كثيرة, وقد زادت في مسائل تنوع ألفاظها ونحو ذلك في الأزمنة المتأخرة كثيراً, والغلاة في ذلك الذين يجعلون العبرة بعمل القلب لا بقول اللسان ولا بعمل الجوارح, فهم يقولون: إذا وجدت المعرفة القلبية والتصديق القلبي فإن ذلك كافٍ في ثبوت إيمان الإنسان, وأما بالنسبة للقول فيجعلون ذلك دلالة ظاهرة على إيمانه, لا هي الإيمان بذاته, وهؤلاء غلاة الجهمية الذين يقولون: إن الإيمان هو المعرفة, وكان ثمة لوازم لقولهم هذا أن كل من في الأرض من الأمم التي حاربهم الأنبياء وقاتلهم على نطق الشهادة إيمان بالله سبحانه وتعالى أن هؤلاء من أهل الإيمان, ففرعون يعلم أن الله عز وجل واحد، لكنه جاحد, كذلك كفار قريش, والله عز وجل يقول عن قوم موسى: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل:14], إذاً هم يعلمون بالربوبية معرفة قلبية.

ولهذا الذي يستدل بالمعرفة القلبية أو بالمعاني الروحانية من معرفة الله عز وجل، وتعلق قلبه بالله، ومع ذلك لا يتوجه إلى الله عز وجل بشيء من العمل ولا بالقول الذي يثبت صحة إيمانه هذا لا ينتفع بما يزعمه من معرفة قلبية.

وكذلك إبليس ألا يعلم أن الله عز وجل واحد؟ وأنه هو الخالق وهو الرازق وهو المستحق للعبادة؟ ولكنه معاند, ولهذا يقول موسى عليه السلام عن فرعون: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء:102], لقد علمت إذاً أنت تعرف.

وأكثر الأمم لا تنكر وحدانية الله عز وجل؛ ولا تنفي وحدانية الله عز وجل، ولكنها تجحدها ظاهراً, وعلى هذا تكون المعرفة القلبية مجردة لا قيمة لها.

وأما ما جاء في حديث حذيفة في قوله: (لا إله إلا الله تنجيهم من النار لا أب لك!), نقول: حديث حذيفة بن اليمان قال فيه: (يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب، حتى لا يدرى ما صلاة ولا صيام ولا صدقة), (لا يُدرى) يعني: لا يوجد شيء, إذاً فالعمل فقد؛ وسبب فقده الجهل أو العلم؟ الجهل, لا يوجد علم، ولكنه جاهل, ولهذا الشخص الذي يعذر بجهله لعدم معرفته للأعمال في زمن دروس الإسلام في بلده, ولم يستطع معرفة للأعمال, ثم اكتفى بالاعتقاد وقول اللسان, وحاول أن يعمل فلم يجد عملاً, نقول: لا إله إلا الله تنجيه من النار, وهو من أهل الأعذار.

فاقد العمل اختياراً

فإن قال قائل: فاقد العمل اختياراً هل هو فاقد لأصل الإيمان؟

نقول: نعم, فاقد العمل اختياراً فاقد لأصل الإيمان؛ لماذا؟ لأنه بانتفاء العمل انتفى الإيمان بالكلية, والعمل على ما تقدم الكلام عليه هو العمل الذي جاء به محمد ﷺ, الذي يكون دليلاً على إثبات صحة قوله بالإيمان بالرسالة.

وهنا موضع خلاف في مسألة كفر تارك الصلاة, وكذلك في ترك العمل بالكلية من غيره.

ولهذا نقول: إن الإنسان إذا تعامل مع مسألة الإيمان على أنها قول وعمل واعتقاد, وأن هذه الثلاثة هي الإيمان, ليست أقساماً ولا أجزاء, إذا قلنا: أقسام كحال الأرض أو كحال البيت الذي يكون من ثلاثة طوابق, أو أرض لديها أقسام, إذا نقص قسم ألا تسمى أرضاً؟ تسمى أرضاً, البيت إذا نقص شيء منه ألا يسمى بيتاً؟ نعم, لكن الإيمان هو هذه الثلاثة كلها, إذا فقد الإيمان واحداً منها انتفى الباقي, ولهذا مثلنا حتى تتضح المسألة في محمد بن عبد الله بن عبد المطلب, هل هي أجزاء؟ إذا فقدنا اسماً أصبح ثلث النبوة؟ لا. اسمين ثلثي النبوة؟ حتى نفقد الثلاثة, حتى ينتفي كله, نقول: هذه الثلاثة كلها رسول الله, إذا انتفى واحد انتفت النبوة أو لم تنتفِ عن هذا الشخص؟ انتفت النبوة, لا بد من وجود هذه الثلاثة.

وكذلك في مسألة الإيمان: قول وعمل واعتقاد, إذا لم يفهم الإنسان مثل هذا الأمر، وتوجه إلى قضية الإيمان على أنه ثلاثة أقسام, أو للإيمان ثلاثة شروط, وكأنه جعل الإيمان شيئاً, والشروط خارجة عنه, وإن وجد بعضها فيه كحال شروط الصلاة, فالإنسان ربما يصلي بلا وضوء، وتصح صلاته, إما بتيمم أو بفقد الماء والتراب وصلى عاجزاً عنها, أو ناسياً لها، وبقي على

نسيانه إلى يوم الدين, نقول: يتقبل الله عز وجل منه ذلك. وكذلك في مسألة استقبال القبلة وغير ذلك.

ولكن نقول: إن هذه الثلاثة ليست خارجة عن الإيمان, هي الإيمان, إذا نقص واحد منها انتفى الإيمان, وأما ما يقوله الإنسان نقول: هذا إذاً الرجل لا ينطق الشهادتين, ما هذه الصلاة التي يصليها؟ ألا تعدها من الإيمان؟ نقول: هذه صلاة، لكن ليست صلاة الإسلام, كحال هذا الرجل, هذا الرجل في جسد كامل، ولكنه ليس رسول الله, يشبهه وعلاماته نعم, لكنه ليس رسول الله؛ لأن انتفاء واحد منها انتفاء النبوة عنه.

الحكمة من عدم جعل الإيمان ثلاثة أجزاء

فإن قال قائل: لماذا لا نجعل الثلاثة أجزاء للإيمان؟

هذا من الألفاظ الجديدة, توجد في كلام بعض أهل العلم، ولكن لما كانت تؤدي إلى معان مخالفة لمنهج الحق ينبغي أن نتوقف عنها, ولا نقول بها أجزاء؛ لأنه إذا نقص جزء واحد منها أصبح الكل ناقصاً, ولهذا نقول: لو جاء شخص وأراد أن يصلي صلاة الظهر ثلاثاً, هذه صلاة ظهر أو ليست صلاة ظهر؟ ليست صلاة ظهر, إذاً الركعة الأولى والثانية والثالثة والرابعة هي أجزاء أو أقسام أو تتكون من أو كلها صلاة الظهر؟ كلها صلاة الظهر, رجل ترك الركعة الأولى أو الثانية أو الثالثة أو الرابعة هل هذه صلاة ظهر؟ ليست صلاة الظهر, ما هي؟ نقول: هي صلاة, مثل هذا نقول: هو تصديق، لكن ليس تصديق النبي ﷺ الذي جاء به بهذا الوصف.

ولهذا نقول: إن الصدور عن ألفاظ وعبارات لم ترد في الشريعة ولا في كلام السلف الأُول هو الذي يجعل لدى الإنسان شيئاً من تلازم المعاني الجديدة التي تخالف منهج الحق, ولهذا تقدم معنا في مسألة القرآن بعض الكلمات التي أصبحت تدون في كلام العلماء؛ كقولهم في مسألة اللفظية على ما تقدم تفصيله, وكذلك مسألة كلام الله ليس بمخلوق, ففي ابتداء هذا الأمر لما بدأت إرهاصاته كان العلماء لا يشيرون إلى هذه المسألة، ويجادلون حتى فيما يطلق عليه من ألفاظ، لماذا؟ لأن هذا سيدعو إلى أشياء كثيرة؛ أن تأتي إلى اليد, يد الله ليست مخلوقة, والبصر ليس بمخلوق, نحن مؤمنون بهذا, لكن لسنا بحاجة إلى مثل هذا الكلام.

ولكن شاع عند كثير من الناس في زمننا أنهم يأتون إلى هذه الثلاثة ويقولون: هي أجزاء, شروط, أركان, ثم أخذوا يقيسون على كثير من التقسيمات, سواء كانوا متكلمين أو فقهاء, ثم ينظرون إلى انتفى الشرط أو انتفى الركن, أو نقص واحد منها، هل يعتبر الباقي صحيحاً أو ليس بصحيح؟ ثم ينظرون ويسبرون الشريعة، ويبحثون عن دلائل، وسيجدون دلائل من المتشابهات مما يؤيد هذا, على ما تقدم الكلام عليه في كلام المتكلمين من الأشاعرة وغيرهم, حينما تكلم على مسألة القرآن, قالوا: هو معنى قائم في نفسه أوجده الله عز وجل أو كتبه جبريل, على العبارات التي يصفونها, يختلفون في هذا, فبحثوا في القرآن قالوا: إن الله عز وجل يقول: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ [الحاقة:40], هذا بعد ما قعدوا المسألة بحثوا عن دليل فوجدوا شيئاً من

المتشابهات التي تعضد هذا.

ولهذا تجد كلام السلف الأُول في القرون الأولى إذا جاءوا للإيمان يقولون: الإيمان قول وعمل واعتقاد, يعني: هذه الثلاثة هي الإيمان, ليست أقساماً, وانظروا إلى مسألة الأركان, يقول النبي ﷺ: (بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله, وإقام الصلاة, وإيتاء الزكاة, وصوم رمضان, وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً), فجعل هذه أركان لذلك البناء, وأما ما يتعلق بمسألة الإيمان فهي قول وعمل واعتقاد؛ كمسألة الصلاة إذا انتفت منها ركعة لا نسميها ظهراً, ولو جاء الإنسان بركعتين أو جاء بثلاث أو جاء بواحدة, لا نقول: هذه الصلاة ناقصة تقبل بعضها، بل نقول: هي مردودة؛ لأنه نقص واحد منها فنقصت كلها وترد على صاحبها.

مقدار العمل الذي يثبت معه الإيمان

فإن قيل: ما مقدار العمل الذي يثبت معه الإيمان؟

نقول: ينبغي أن نعلم أن العمل المراد به هنا عند قول الأئمة: الإيمان قول وعمل واعتقاد, أنه ما اختصت به شريعة محمد صلى الله عليه وسلم عن الشرائع السابقة وعن دافع الفطرة, فالشرائع السابقة دلت على أعمال حسنة, والفطرة تدل على أعمال حسنة ولو من غير تشريع؛ لأن الله خلق الإنسان على الفطرة, الصدق أليس عملاً صالحاً تؤمن به الفطر؟ أهل الكتاب, عبدة الأصنام, الملحدون وغير ذلك, ألا يؤمنون أنه عمل صالح؟ يؤمنون, هل يخلو أحد من الأرض من حب الصدق والعمل به؟ لا. بل هو موجود في الناس, ولكن من الناس من يعمل به تارة ويخالفه تارة أخرى, لكن هذا الأمر موجود في الفطرة, وكذلك السرقة, لا يمكن أن الإنسان يقول: إن السرقة مباحة, بل يكرهها الناس في سائر عقائدهم, حتى الملحدون الذين لا يؤمنون بوجد خالق, فهذه الدلالة دلالة الفطرة.

إذاً دلالة الفطرة ودلالة الشرائع السابقة ليست مقصودة في قولنا: العمل, وإنما العمل الذي اختصت به شريعة محمد صلى الله عليه وسلم.

وما الذي اختصت به شريعة محمد ﷺ؟ قد يقول قائل: الصلاة موجودة, كل الأعمال موجودة في الشرائع السابقة, الصيام موجود, ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ [البقرة:183], الحج موجود أيضاً, مناسك إبراهيم عليه السلام وغير ذلك, الزكاة أيضاً موجودة, ﴿ ؟وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ [مريم:31], ولهذا نقول: إن المراد بهذا أن تأتي العبادة على وصف محمد لا على وصف غيره, يأتي بصلاة محمد ﷺ التي جاء بها, أو يأتي بالصيام الذي جاء به محمد ﷺ, وذلك من ظهور الخيط الأبيض من الخيط الأسود إلى غروب الشمس, في الأزمنة التي جاء ودل الدليل عليها, وكذلك في المناسك التي جاءت عن رسول الله ﷺ في مسائل الحج وغير ذلك.

وجود الإيمان بوجود الصلاة

ومن العلماء من يقول: إن الإيمان أصلاً لا يثبت إلا بوجود الصلاة, قالوا: لوجود الأدلة في ذلك, وبغض النظر عن بقية الأعمال, هي إيمان يثبت به إيمان الإنسان، قالوا: ولكنه لا ينتفي إلا بالصلاة, ويستدلون لذلك بجملة من الأحاديث, منها: حديث أبي الزبير عن جابر في صحيح الإمام مسلم قال رسول الله ﷺ: (بين الرجل وبين الشرك ترك الصلاة), وكذلك حديث بريدة عن أبيه كما جاء في المسند والسنن, قال عليه الصلاة والسلام: (العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة, فمن تركها فقد كفر), وغير ذلك أيضاً كما جاء في سنن الترمذي : (ما كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون شيئاً تركه كفر إلا الصلاة), وكذلك ما جاء عند مُحَمَّد بن نصر المروزي في كتابه تعظيم فضل الصلاة عن حماد بن زيد عن أيوب بن تميمة السختياني قال: ترك الصلاة كفر لا نختلف فيه, وهذا صحيح عن الصحابة وصحيح أيضاً عن التابعين.

وكذلك ما جاء عند مُحَمَّد بن نصر وجاء أيضاً عند ابن جرير الطبري في تفسير قول الله عز وجل: ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ [الماعون:4-5], جاء من حديث مصعب بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: إذا كان تركاً كان كفراً.

وهذه من المسائل التي يحكى الإجماع في كفر تاركها, وحمل بعض العلماء الإجماع المروي عن السلف في ذلك, قال: هو إجماع صحيح، ولكنه خلاف في كونه الكفر الأكبر أو الكفر الأصغر, وأشار إلى هذا المعنى مُحَمَّد بن نصر وغيره.

ومن العلماء من يجزم بأن مراد السلف في ذلك هو الكفر الأكبر, وهو الأرجح, باعتبار بقية الأدلة, وغير هذه الإطلاقات لا يأتي تأكيدها على الكفر الأصغر، وإنما يأتي تأكيدها على الكفر الأكبر, وكذلك جملة من القرائن والدلالات في هذا الباب.

بعض الطوائف التي خالفت في مسمى الإيمان

هنا نشير إلى بعض الطوائف التي خالفت في مسألة الإيمان, وكونه قولاً وعملاً واعتقاداً.

إخراج العمل من مسمى الإيمان

فمن طوائف المرجئة من قال: إن الإيمان هو قول واعتقاد, وأخرجوا العمل من الإيمان, ومنهم من أخرج العمل من صحة الإيمان وجعله كمالاً, قالوا: لا ينتفي به بعدم الإيمان، ولكن ينتفي به الكمال, وجاء في ذلك عبارات، ومنهم من يقول: إنه شرط كمال لا شرط صحة, وبعضهم يطلق بعض العبارات التي تؤدي ببعض معانيها إلى الوجه الصحيح، ولكن قد يكون لها لوازم, وذلك كقولهم: إنه شرط صحة للإيمان, ولكن نقول: إن مثل هذه العبارات لسنا بحاجة إليها.

نقول: إن القول والعمل والاعتقاد أنها هي الإيمان, لا هذا شرط لهذا، ولا شرط لهذا, وليست هي شرطاً للإيمان باعتبار هي

الإيمان في ذاتها, حتى نخرج من كثير من اللوازم.

وقد يستدل البعض ويقول: إن الصلاة جاءت عن النبي ﷺ ومع ذلك العلماء جعلوا الركوع ركناً والقيام ركناً والسجود ركناً ونحو ذلك, نقول: إن مثل هذه المسائل هي مسائل فرعية, قد يتجوز فيها الإنسان في بعض الضوابط ونحو ذلك, ولهذا نجد اختلاف كثير من الفقهاء في أمثال هذه التقسيمات طرأت بعد هذه المصطلحات التي تؤدي كثير منها إلى معان صحيحة, ولكن عند بعضهم لها لوازم قد لا تصح, وهذا التقسيم قرب المعاني إلى الأذهان, ولكن في هذه المسألة حتى تتضح لنا نقول: إن هذه الثلاثة هي الإيمان, إذا فقدنا واحداً منها فقدنا الباقي على ما تقدم الكلام عليه من الإشارة إلى شيء من الأمثلة في هذا الباب.

إخراج العمل والاعتقاد من مسمى الإيمان

ومن الطوائف من يقولون: إن الإيمان هو قول اللسان مجرداً, سواء وجد إيمان القلب أو وجد عمل الجوارح أو لم يوجد, وهؤلاء هم الكرامية، وهذا أيضاً من شر الأقوال؛ وذلك أنهم يقولون بالباطن، ولا يمكن أن يطلع عليه الإنسان، والعبرة بالظاهر, وبعضهم يقول: حتى لو انتفى الباطن, وقدر معرفة ذلك, فالعبرة بالأخذ بالظواهر, وبعضهم يجري على ذلك الحساب يوم القيامة, يقول: عليه يجاز الإنسان ولا يجازى, ولا ينظر إلى ما في قلبه, وهذا يناقض الفطرة الصحيحة بوجوب الرجوع إلى البواطن, وكذلك ظواهر النصوص والرجوع إلى باطن الإنسان, (ألا إن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله, وإذا فسدت فسد الجسد كله), وكذلك ما جاء في الصحيح: (إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أجسامكم، ولكن ينظر إلى القلوب التي في الصدور).

والذي يقول: إن الإيمان هو المعرفة القلبية أو التصديق القلبي، والمراد بذلك اللسان هو أقرب ممن يقول: هو القول, ولو انتفى الباطن والظاهر من جهة الأعمال فإن الإيمان في ذلك صحيح, فمن يقول بوجوب الاعتقاد أقرب منه إلى الحق, مع كون هذين القولين هما من الأقوال البعيدة النائية عن الحق.

والطوائف الذين يقولون بأن الإيمان هو قول وعمل واعتقاد، ويجعلونه إيماناً, ولكن يقع الخطأ لديهم في التفصيل, هل هي شروط أو هي واجبات, أو هي أركان ونحو ذلك, بحسب عباراتهم التي يصدرون عنها, يقع لديهم شيء من اللوازم في هذا الباب.

ومنهم من ينفي العمل مع كونه شرطاً لصحة العمل, ويقابله أقوام يجعلونه شرط لصحة الإيمان ونحو هذه العبارات, وهذا يجري عليه طوائف كثيرة من مرجئة الفقهاء, وهم على طوائف أيضاً ومراتب في هذا الأمر, ومنهم من يكفر بالعمل, ومنهم من لا يكفر بالعمل ويرجع ذلك إلى الاستحلال القلبي.

ومرجئة الفقهاء هم أيضاً على فرق متضادة ومتعارضة في هذا الباب, متقدمهم يختلف عن متأخرهم, منهم من يأخذ بظواهر

منافاة ومناقضة الإيمان بالأفعال، ولا يرجع في ذلك إلى قول اللسان ولا إلى اعتقاد الإنسان في باطنه.

زيادة الإيمان ونقصانه

قال المصنف رحمه الله: [يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية. قال محمد بن علي بن الحسن بن شقيق : سألت أبا عبد الله أحمد بن حنبل رحمه الله عن الإيمان بمعنى الزيادة والنقصان، فقال: حدثنا الحسن بن موسى الأشيب حدثنا حماد بن سلمة عن أبي جعفر عن أبيه عن جده عن عمر بن حبيب قال: الإيمان يزيد وينقص, فقيل: وما زيادته وما نقصانه؟ قال: إذا ذكرنا الله فحمدناه سبحانه فتلك زيادته، وإذا غفلنا وضيعنا ونسينا فذلك نقصانه.

أخبرنا أبو الحسن بن أبي إسحاق المزكي، حدثنا أبي حدثنا أبو عمرو الحيري، حدثنا محمد بن يحيى الذهلي، ومحمد بن إدريس المكي، وأحمد بن شداد الترمذي، قالوا: حدثنا الحميدي حدثنا يحي بن سليم قال: سألت عشرة من الفقهاء عن الإيمان, فقالوا: قول وعمل, سألت هشام بن حسان فقال: قول وعمل. وسألت ابن جريج فقال: قول وعمل. وسألت سفيان الثوري فقال: قول وعمل. وسألت المثنى بن الصباح فقال: قول وعمل. وسألت محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان فقال: قول وعمل. وسألت محمد بن مسلم الطائفي فقال: قول وعمل. وسألت فضيل بن عياض , فقال: قول وعمل. وسألت نافع بن عمر الجمحي فقال: قول وعمل. وسألت سفيان بن عيينة فقال: قول وعمل.

وأخبرنا أبو عمرو الحيري، حدثنا محمد بن يحي ومحمد بن إدريس : سمعت الحميدي قال: سمعت سفيان بن عيينةيقول: الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، فقال له أخوه إبراهيم بن عيينة : يا أبا محمد ! تقول: ينقص؟ فقال: اسكت يا صبي, بلى ينقص حتى لا يبقى منه شيء.

وقال الوليد بن مسلم : سمعت الأوزاعي ومالكاً وسعيد بن عبد العزيز ينكرون على من يقول: إقرار بلا عمل. ويقولون: لا إيمان إلا بعمل، قلت: فمن كانت طاعاته وحسناته أكثر فإنه أكمل إيماناً ممن كان قليل الطاعة كثير المعصية والغفلة والإضاعة.

وسمعت الحاكم أبا عبد الله الحافظ يقول: سمعت أبا بكر محمد بن أحمد بن باكويه الحلاب يقول: سمعت أبا بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة يقول: سمعت أحمد بن سعيد الرباطي يقول: قال لي عبد الله بن طاهر : يا أحمد ! إنكم تبغضون هؤلاء القوم جهلاً، وأنا أبغضهم عن معرفة, أولاً أنهم لا يرون للسلطان طاعة, والثاني: أنه ليس للإيمان عندهم قدر، والله لا أستجيز أن أقول: إيماني كإيمان يحيى بن يحيى , ولا كإيمان أحمد بن حنبل، وهم يقولون: إيماننا كإيمان جبرائيل وميكائيل].

الذي يخرج العمل من الإيمان يلزم من ذلك أن الإيمان يكتمل بوجود المعرفة القلبية وبقول اللسان, إن نطق الشهادتين فاز, وعلى هذا يستوي مع أهل الكمال بالإيمان في هذا الباب, وهذا أيضاً لا شك أنه قول باطل.

نقول: إن الإيمان يزيد وينقص ويزول, يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية, فلا نكفر أحداً بذنب, ويزول بشيء من المكفرات أو بزوال القول أو العمل أو الاعتقاد بالكلية, فإذا زال واحد منها فإنه حينئذٍ يكون الإيمان قد زال من الإنسان.

وزيادته في ذلك بحسب حضور القلب وكذلك حضور الإحسان بالعمل, ولهذا النبي ﷺ كما جاء في حديث جبريل لما سئل عن الإحسان قال: (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه), إشارة إلى تمام العمل, (فإن لم تكن تراه فإنه يراك), وهذا يكون في الإنسان لوجود الرقابة القلبية التي أثرت على إتقان العمل في الظاهر.

والإنسان حينما يعمل عند شخص أجيراً عنده، وكان يراه, يجد من ضبط العمل والإتقان بخلاف لو كان غائباً عنه, فإذا كان الإيمان القلبي في قلب الإنسان بالتصديق والإيمان بأن الله عز وجل يرى الإنسان كاملاً بقلب الإنسان فإن هذا يعني كمال العمل الظاهر.

والناس يتباينون في هذا لقوة الإيمان القلبي والتصديق, وكذلك نقول: وجود الكمال القلبي في ذلك يعني كمال العمل بالظاهر, وهي متلازمة, ولهذا يقول النبي ﷺ: (أن تعبد الله كأنك تراه, فإن لم تكن تراه فإنه يراك).

وفي قولهم: يزيد وينقص, وكذلك في قولهم: قول وعمل, لا يعني ذلك عدم وجود الاعتقاد؛ لأنه ينقل عن الأئمة قولهم: الإيمان قول وعمل, الإيمان قول وعمل, فمن الناس من يستشكل عدم وجود الاعتقاد, نقول: إن القول والعمل داخل في هذه الثلاثة؛ لأن القلب له قول وعمل, قول القلب هو التصديق, وعمل القلب هو حب الله وحب ما يحبه الله, الإخلاص لله عز وجل في أمور الطاعة, هذه الأعمال القلبية التي تذهب وتجيء, أما التصديق فهو ثابت مستقر, وذهاب هذه الأشياء منها ما يتعلق بضعف الإنسان إما بذهول أو نحو ذلك, أو قصور في التصديق, يقول الإنسان: تصديق بالله عز وجل وبوجوده وبوحدانيته, ولكن تصديقه بذلك ضعيف؛ كضعف الأعمال الظاهرة, منهم من يأتي بأركان الإسلام، ويأتي بالسنن والرواتب ونحو ذلك كاملة, ويتطوع لله عز وجل ويقوم الليل وغير هذا, ولكن يقابله أقوام ينقص لديهم ذلك الأمر؛ كعمل القلب, فالمحبة القلبية ناقصة لديهم لما يحبه الله عز وجل, كلما يراه الله عز وجل لديه نوع من الضعف, تجده يميل إلى بعض المنافقين, أو يميل لبعض المخالفين, أو يميل قلبه إلى بعض الشهوات ونحو ذلك, لا نستطيع أن ننفي عنه الإيمان؛ كميل الإنسان إلى بعض المحرمات والأعمال الظاهرة ما لم يدل دليل على انتفاء ذلك الأمر بالكلية, وحينئذٍ نقول بكفره.

قال رحمه الله: [وسمعت أبا جعفر مُحَمَّد بن صالح بن هانئ يقول: سمعت أبا بكر مُحَمَّد بن شعيب يقول: سمعت إسحاق بن إبراهيم الحنظلي يقول: قدم ابن المبارك الري فقام إليه رجل من العباد، الظن به أنه يذهب مذهب الخوارج، فقال له: يا أبا عبد الرحمن ! ما تقول فيمن يزني ويسرق ويشرب الخمر؟ قال: لا أخرجه من الإيمان، فقال: يا أبا عبد الرحمن ! على كبر السن صرت مرجئاً؟ فقال: لا تقبلني المرجئة, المرجئة تقول: حسناتنا مقبولة، وسيئاتنا مغفورة، ولو علمت أني قبلت مني حسنة لشهدت أني في الجنة.

ثم ذكر عن أبي شوذب عن سلمة بن كهيل عن هذيل بن شرحبيل قال: قال عمر بن الخطاب ﷺ: لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض لرجح.

سمعت أبا بكر مُحَمَّد بن عبد الله بن مُحَمَّد بن زكريا الشيباني يقول: سمعت يحيى بن منصور القاضي يقول: سمعت مُحَمَّد بن إسحاق بن خزيمة يقول: سمعت الحسين بن حرب أخا أحمد بن حرب يقول: أشهد أن دين أحمد بن حرب الذي يدين الله به أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص].

وهذا يستدل به على أن الإيمان يتباين, وإلا ما كان أبو بكر عليه رضوان الله بهذه المنزلة, فإذا كان إيمان الإنسان المقصر الضعيف بهذا الكمال فما ميزة أبي بكر الصديق عليه رضوان الله؟ وما ميزة عمر بن الخطاب ؟ وأيضاً ما ميزة الأنبياء في كمال إيمانهم ويقينهم وتصديقهم إذا كان الناس يتساوون في هذا الأمر, فمن نطق بالشهادتين ووجد فيهم تصديق القلب وأصل عمل القلب, حينئذٍ يكون إيمانه كإيمان سائر الأنبياء, لا شك أن هذا من المعاني والألفاظ الخاطئة.

- **عدم التكفير بالذنوب**

قال المصنف رحمه الله: [ويعتقد أهل السنة أن المؤمن وإن أذنب ذنوباً كثيرة صغائر وكبائر, فإنه لا يكفر بها، وإن خرج عن الدنيا غير تائب منها، ومات على التوحيد والإخلاص، فإن أمره إلى الله عز وجل إن شاء عفا عنه، وأدخله الجنة يوم القيامة سالماً غانماً، غير مبتلى بالنار، ولا معاقب على ما ارتكبه واكتسبه، ثم استصحبه إلى يوم القيامة من الآثام والأوزار، وإن شاء عاقبه وعذبه مدة بعذاب النار، وإذا عذبه لم يخلده فيها، بل أعتقه وأخرجه منها إلى نعيم دار القرار].

وهذا ما تؤيده النصوص الكثيرة؛ أنه لا يكفر الإنسان, ولا تزول حسنات الإنسان إلا بالكفر, على ما تقدم الكلام عليه, فكل من أذنب ذنباً أو أسرف على نفسه بمعصية من الكبائر أو الصغائر أو الموبقات لا نحكم بكفره حتى يقع في مكفر، وتتوفر فيه الشروط، وتنتفي الموانع, فحينئذٍ يقع عليه الكفر, ويستوجب بذلك عقاب الله سبحانه وتعالى, وهو الخلود في النار, وأما إذا كان دون ذلك, وكان من أهل المعاصي والذنوب, وأسرف على نفسه في هذا ما دام يوجد معه الإيمان, وجد الاعتقاد, وجد قول اللسان, وجد العمل, فحينئذٍ نقول: إن هنالك الإيمان إذا سلم من شيء من المكفرات.

قال رحمه الله: [وكان شيخنا سهل بن مُحَمَّد رحمه الله يقول: المؤمن المذنب وإن عذب بالنار فإنه لا يلقى فيها إلقاء الكفار، ولا يبقى فيها بقاء الكفار، ولا يشقى فيها شقاء الكفار. ومعنى ذلك أن الكافر يسحب على وجهه إلى النار، ويلقى فيها منكوساً في السلاسل والأغلال والأنكال الثقال، والمؤمن المذنب إذا ابتلي في النار فإنه يدخل النار كما يدخل المجرم في الدنيا السجن على الرجل من غير إلقاء وتنكيس. ومعنى قوله: (لا يلقى في النار إلقاء الكفار) أن الكافر يحرق بدنه كله، كلما نضج جلده بدل جلداً غيره؛ ليذوق العذاب كما بينه الله في كتابه في قو له تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ [النساء:56], وأما المؤمنون فلا تلفح وجوههم النار، ولا تحرق أعضاء

السجود منهم، إذ حرم الله على النار أعضاء السجود. ومعنى قوله: (لا يبقى في النار بقاء الكفار) أن الكافر يخلد فيها ولا يخرج منها أبداً، ولا يخلد الله من مذنبي المؤمنين في النار أحداً. ومعنى قوله: (ولا يشقى بالنار شقاء الكفار) أن الكفار ييأسون فيها من رحمة الله، ولا يرجون راحة بحال، وأما المؤمنون فلا ينقطع طمعهم من رحمة الله في كل حال، وعاقبة المؤمنين كلهم الجنة؛ لأنهم خلقوا لها، وخلقت لهم فضلاً من الله ومنة].

إذاً فأوساط المؤمنين يختلفون عن الكافرين في النار بأمور: منها: نوع العذاب, أن عذاب الكفار مغلظ, وعذاب عصاة أهل الإيمان دونهم.

وكذلك: يختلفون عنهم أنهم لا يخلدون, والكفار يخلدون في النار, ومدة البقاء في علم الله عز وجل ومشيئته, بقاء أهل الإيمان الذين كتب الله عز وجل عليهم العذاب ممن وقعوا في الذنوب, ولكن نقول: إن الله عز وجل لا يدخل أحداً من أهل الإيمان النار إلا وهو من أهل الكبائر؛ لماذا؟ لأن الإنسان إذا انتفت كبائره وكان من أهل الإيمان أتى الإيمان عليها, أو أتت الحسنات على الصغائر, ولم يبقَ لديه شيء, وأما الكبائر فإن الإنسان يحاسب عليها، وهي الخطر على دين الإنسان وعاقبته إذا كان من أهل الإيمان, وأما الكافر فليس بعد الكفر ذنب.

تارك الصلاة متعمداً وأقوال أهل العلم في ذلك

قال المصنف رحمه الله: [واختلف أهل الحديث في ترك المسلم صلاة الفرض متعمداً، فكفره بذلك أحمد بن حنبلوجماعة من علماء السلف رحمهم الله، وأخرجوه به من الإسلام، للخبر الصحيح: (بين العبد والشرك ترك الصلاة، فمن ترك الصلاة فقد كفر),
وذهب الشافعي وأصحابه وجماعة من علماء السلف رحمهم الله أجمعين إلى أنه لا يكفر ما دام معتقداً لوجوبها، وإنما يستوجب القتل كما يستوجبه المرتد عن الإسلام، وتأولوا الخبر من ترك الصلاة جاحداً لها كما أخبر سبحانه عن يوسف عليه السلام أنه قال: ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ [يوسف:37], ولم يك يتلبس بكفر ففارقه، ولكن تركه جاحداً لها].

تقدم معنا الأدلة في هذا الباب, الواردة عن النبي ﷺ في مسألة كفر تارك الصلاة.

أما كلام الأئمة عليهم رحمة الله خاصة الأئمة الأربعة؛ فأما الإمام مالك رحمه الله فلا تحفظ عنه رواية في هذا الباب, لا رواية بالكفر ولا رواية بعدمه، ولم ينقل عنه أحد من أصحابه عبارة صحيحة في هذا الباب.

وأما الإمام أحمد رحمه الله فالمعروف عنه المستفيض عنه القول بكفر تارك الصلاة, وثمة بعض الروايات عن الإمام أحمد رحمه الله ينقلها البعض، ويأخذ منها عدم كفر تارك الصلاة, من ذلك رواية نقلها ابنه عنه عبد الله بن السائبلما سئل عن زيادة الإيمان ونقصانه قال: يزيد الإيمان بالطاعة، وينقص بالمعصية كترك الصلاة والزكاة, لكن نقول: إن الترك هنا ليس المراد بذلك هو الإطلاق,

قد يترك الإنسان الصلاة عن وقتها, أو يترك صلاة واحدة, والإمام أحمدرحمه الله لا يكفر بترك الصلاة الواحدة في ظاهر قوله.

وقد أخرج في كتابه المسند من حديثه قتادة عن نصر بن عاصم (أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ، فأراد أن يبايع النبي ﷺ، واشترط ألا يصلي إلا صلاتين, فبايعه النبي ﷺ على ذلك), وهذا لم يخرج من أهل الإيمان, واشترط بدخوله في الإيمان ألا يؤدي صلاتين, فاشترط الأداء، ما اشترط الإيمان بها, فيؤمن بها خمساً، ولكن أداؤه على الصلاتين, وحينئذٍ نقول: إن أدنى ما ينفي عن الإنسان كفر تارك الصلاة هو أداؤه للصلاتين فما زاد, وتركه للواحدة والاثنتين ونحوها لا يكفر بذلك, ولكن ينقص إيمانه, ولهذا نقول: إن الكلام المروي عن الإمام أحمد رحمه الله من المتشابه, ينبغي أن يحمل على المحكم.

وكذلك نقل ابن بطة عنه بعدم كفر تارك الصلاة كما ذكره ابن قدامة رحمه الله في كتابه المغني.

أما الإمام أبو حنيفة فالقول عنه بعدم كفر تارك الصلاة مشهور, وأما الإمام الشافعي فرحمه الله فله قولان في هذه المسألة, والأشهر عنه عدم التكفير.

نكتفي بهذا القدر، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

الدرس الثاني عشر

الإيمان بالقدر خيره وشره من الأمور الواجبة التي لا يصح إيمان العبد إلا بها, فعلى المسلم أن يؤمن بأن الله عز وجل قدر المقادير، وأن تقديره لا يعطل على العبد اختياره ومشيئته. وقد شهد النبي ﷺ لكثير من أصحابه أنهم من أهل الجنة, وأفضل أولئك هم العشرة المبشرون بالجنة, وأفضل العشرة هم الخلفاء الراشدون الأربعة.

- **خلق أفعال العباد**

بسم الله الرحمن الرحيم. وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:

قال المصنف رحمه الله: [ومن قول أهل السنة والجماعة في أكساب العباد أنها مخلوقة لله تعالى، لا يمترون فيه، ولا يعدون من أهل الهدى ودين الحق من ينكر هذا القول وينفيه.

ويشهدون أن الله تعالى يهدي من يشاء لدينه, ويضل من يشاء عنه، لا حجة لمن أضله الله عليه، ولا عذر له لديه، قال الله عز وجل: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنعام:149], وقال: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي ﴾ [السجدة:13], الآية, وقال: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ﴾ [الأعراف:179], الآية, سبحانه خلق الخلق بلا حاجة إليهم، فجعلهم فرقتين: فريقاً للنعيم فضلاً، وفريقاً للجحيم عدلاً، وجعل منهم غوياً ورشيداً،

وشقياً وسعيداً، وقريباً من رحمته وبعيداً، ﴿ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ [الأنبياء:23]، ﴿ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف:54], وقال عز وجل: ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ * فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف:29-30], وقال: ﴿ أُوْلَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ [الأعراف:37], قال ابن عباس : هو ما سبق لهم من السعادة والشقاوة.

أخبرنا أبو مُحَمَّد المجلدي أخبرنا أبو مُحَمَّد العباس السراج حدثنا يوسف عن موسى أخبرنا جرير عن الأعمش عن زيد بن وهب عن عبد الله بن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: (إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه ملكاً بأربع كلمات، رزقه وعمله وأجله، وشقي أو سعيد، فوالذي نفسي بيده إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، ثم يدركه ما سبق له في الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخله, وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، ثم يدركه ما سبق له من كتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها)].

عدل الله في ختم حياة الإنسان على الخير أو الشر

هذا يحتاج إلى بيان أن ما جاء في حديث عبد الله بن مسعود عليه رضوان الله في قول النبي ﷺ: (إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب), هل هذا المعنى على إطلاقه أو هو مقيد؟ باعتبار أن الإنسان يعمل بعمل أهل الجنة حتى إذا بقي على وفاته نحو الذراع سبق عليه الكتاب فعمل بعمل أهل النار. هو مقيد فيما يبدو للناس, يعني: أنه نفاق, وهذا جاء في الصحيح من حديث سهل عليه رضوان الله أن النبي ﷺ قال: (يعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس)؛ لأن الله أعدل من أن يقوم الإنسان بطاعته سبحانه وتعالى سنين طويلة، حتى إذا بقي من وفاته ساعة أو ساعتان عمل بعمل أهل النار، ثم مات على هذا.

وكذلك في مسألة أهل النار, قال: (يعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس), يظنون أنه من أهل النار، وله خبيئة من عمل وخبيئة من عذر, فسبق عليه الكتاب فكانت خاتمته حسنة.

ولهذا نقول: إن الله سبحانه وتعالى أعدل من أن يجعل عمل الإنسان لسنين طويلة هباء منثوراً، فيضرب عليه الأمر، فيكتب له بساعة السوء، ولهذا نقول: إن الله عز وجل يعلم باطن الإنسان وظاهره, وإذا أظهر شراً أو أظهر خيراً يعلم بإيمانه ودافعه إلى ذلك, فالعبرة بالخواتيم, كما جاء عن النبي ﷺ أنه قال: (إنما الأعمال بالخواتيم), يعني: ما وجد من عمل الإنسان ظاهراً وباطناً فيما يعلمه الله يختم عليه الإنسان, ولهذا الشخص الذي يخالف أمر الله عز وجل بالزنا والسرقة وغير ذلك من الموبقات أن الغالب أن يختم له بسوء إذا كان على هذا الأمر زمناً طويلاً, فلا تكون ميتته ميتة حسنة, فيموت ساجداً أو نحو هذا,

كذلك من كان طائعاً لله, صواماً, قواماً, لسنين طويلة, لا يختم الله عز وجل له بآخر ساعة من عمره أن يموت على شرب الخمر, أو يموت على السرقة أو على الزنا أو نحو ذلك, والله عز وجل عدل في هذا الأمر.

وأما ما يتعلق بجانب العمل السيئ سواء كان كفراً أو كان ذنباً يفعله الإنسان؛ نقول: قد يستمر الإنسان على ذلك دهوراً، ويختم الله عز وجل للإنسان بعمل الخير, كما جاء أن أحد الصحابة أسلم في المعركة, وكان قبل ذلك كافراً, ثم قتل ولم يعمل خيراً قط إلا ما مات عليه من الجهاد والشهادتين وما لحقها من عمل يسير, نقول في مثل هذا: هذا أغلب ظهوراً من الثاني؛ أن يكون الإنسان طائعاً لله عز وجل مدى الدهر, ثم يجعل الله عز وجل ميتته ميتة سوء في آخر ساعة من عمره, أما الثاني لأن الله عز وجل رحمته سبقت غضبه جل وعلا يختم لعباده الذين كانوا على سوء على عمل صالح في آخر حياته أكثر من الأول وأظهر؛ لأن رحمة الله عز وجل ولطفه تسبق غضبه سبحانه وتعالى.

والغالب في الأمرين أن الله عز وجل يجعل أمر الإنسان على ما كان عليه قبل ذلك, ولكن يظهر ميتته وخاتمته على ما كان عليه من عمل الباطن وعمل الظاهر, والله عز وجل لا ينظر إلى العمل الظاهر مجرداً, بل إذا صح الظاهر جزي الإنسان على عمله الظاهر بالإحسان, وإذا فسد باطنه ولو عمل وأحسن بالظاهر, فإن عمله الظاهر لن يكون إلا فساداً ووبالاً عليه بسوء باطنه؛ لأنه فعل ذلك نفاقاً.

الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره

قال المصنف رحمه الله: [ويشهد أهل السنة ويعتقدون أن الخير والشر والنفع والضر بقضاء الله وقدره، لا مرد لها، ولا محيص ولا محيد عنها، ولا يصيب المرء إلا ما كتبه له ربه، ولو جهد الخلق أن ينفعوا المرء بما لم يكتبه الله له لم يقدروا عليه، ولو جهدوا أن يضروه بما لم يقضه الله لم يقدروا, على ما ورد به الخبر عن عبد الله بن عباس عن النبي ﷺ قال: (قال الله عز وجل: ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ [يونس:107], الآية)].

الإيمان بقضاء الله عز وجل وقدره واجب؛ كما في قول النبي ﷺ لما سأله جبريل عن الإيمان قال: (الإيمان أن تؤمن بالله, وملائكته, وكتبه, ورسله, وبالبعث بعد الموت, وبالقدر خيره وشره).

نسبة الخير والشر لله

والقدر يكون خيراً وشراً, كله إلى الله سبحانه وتعالى, ولكن الإنسان لا ينسب الشر منفرداً إلى الخالق سبحانه وتعالى, ولهذا نقول: إن الشر لا ينسب لله سبحانه وتعالى إلا على سبيل قرنه مع الخير, كذلك يكون على سبيل الإضمار إضمار الفاعل, ولهذا تأدب الجن مع الله سبحانه وتعالى فقالوا: ﴿ وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾

[الجن:10], أضمروا الفاعل عند ذكر الشر تأدباً مع الله, وأما بالنسبة للخير فأظهروا الفاعل, ﴿ وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ ﴾ [الجن:10], وفي الخير ﴿ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [الجن:10], أراد الله عز وجل بهم خيراً.

والله سبحانه وتعالى لا يقدر لعبده المؤمن شراً إلا إن اختار الإنسان أن يجعل ذلك الأمر شراً باختياره, ولهذا يقول النبي صلى الله عليه وسلم كما جاء في المسند من حديث صهيب قال: (عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير), يعني: حتى لو كان في ظاهره شر, (إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له, وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له), وإذا لم يصبر هو الذي اختار أن يسيطر الأمر على الشر, وأما تقدير الله عز وجل فقدره الله وأمره بأن يجعل الشر بظاهره باطناً خيراً وظاهراً له بصبره عليه.

منزلة الإيمان بالقدر

والإيمان بقدر الله سبحانه وتعالى هو من الأمور الواجبة التي لا يصح إيمان العبد إلا بها, ولهذا نقول: إن من لم يؤمن بالقدر لم يكن مؤمناً بالله سبحانه وتعالى؛ لأن الله عز وجل سبق علمه عمل الخلق، وقدر سبحانه وتعالى على الناس المقادير الخير والشر, وقدر على الناس كونهم فريقين, فريق في النعيم وفريق في الجحيم, وقدر الله عز وجل لكل أحد عملاً, وقدر الله عز وجل لغير الناس من المخلوقات في الجمادات والبهائم؛ قدر الله سبحانه وتعالى مجراها وسيرها, وما تزيد فيه وما تنقص وأعراضها وأماكنها، وما من شيء إلا ويعلمه الله عز وجل، وعنده سبحانه وتعالى في كتاب.

اختلاف الطوائف في مسألة القدر

ولما ظهرت مسألة نفي القدر، وهذا في زمن أواخر الصحابة عليهم رضوان الله، كما جاء في مسلم من حديث عبد الله بن بريدة لما قال: (أتينا عبد الله بن عمر عليه رضوان الله تعالى وهو في مسجد النبي ﷺ قال: أنا وصاحبي، أحدنا عن يمينه، والآخر عن شماله, فقلنا: إنه ظهر قبلك أقوام يقولون: لا قدر، وأن الأمر أنُف, قال: فأخبرهم أني بريء منهم وأنهم برآء مني, وأن الله لا يتقبل من أحد عملاً حتى يؤمن بالقدر).

ومسألة القدر من المسائل الشائكة على كثير من الأفهام, والواجب على المؤمن التسليم.

وقد ظهرت الطوائف لما قاموا بالإيغال في أمثال هذه المعاني، ووجدوا لوازم كثيرة يرون أنها لوازم لا تجري على بقية معاني النصوص, فمنهم من قال بنفي القدر, ومنهم من قال بالجبر، ومؤدى الطائفتين في ذلك في ظاهر أمرهم أنهم يريدون تنزيه الخالق سبحانه وتعالى, ولكن الله جل وعلا قد جعل أحكام الدين للناس وبينها، وأمر عباده التسليم بذلك.

ومسألة القدر وإجراء الكون ومعرفة الغيب وما يأتي بعد ذلك من تقدير الأشياء والخلق هذا من الأمور المشكلة حتى عند كثير من الطوائف التي لا تؤمن بالنبوات سواء آمنت بالنبوات أو غيرها, فتجد أن البابليين يقولون بما يتعلق من تقدير مقادير المخلوقات يؤمنون بتأثير الكواكب, فيجعلون لكل كوكب تصريفاً في جانب من جوانب الكون, فيؤمنون بأن هذا يصرف

ذلك الأمر، وهذا يصرف ذلك الأمر, فيكون بينها نوع من التداخل والتنازع والتصرف في هذا الكون, ولهذا يريدون من ذلك حلاً لما يجدونه من إشكال في معرفة القدر وتقديره.

وأما ما يتعلق بالفرس وأضرابهم الذين يقولون بتعدد الإلهة؛ إله للشر وإله للخير, فيجعلون مقادير الخير لإله الخير, وما يتعلق بمقادير الشر لإله الشر, وهي النور والظلمة, وغير ذلك من الأقوال المعروفة عنهم.

وأما بالنسبة لفلاسفة الهند فإنهم يجعلون إله القدر إلهاً خاصاً منفكاً عن معبوده, هو الذي يقدر المقادير ويقوم بتصريفها.

وكذلك ما يتعلق باليونان وفلاسفتهم في هذا الباب, منهم من يحاول التنزيه, يؤمن بوجود الخالق، ولكن يتحيرون في مسألة تقدير الشر على أناس يرتضون أمره، ويسلم أقواماً لا يرتضون أمره، فيجعلون الخالق خارج تدبير الكون, وعلى هذا يجري أفلاطون و سقراط و أرسطو , يجعلون أن الخالق موجود، ولكن أوجد الكون وأوجد قانون السببية الحتمية، ثم بعد ذلك الناس يجرون في هذه المعادلة، والخالق بعيد عنها, ويقولون: إن الله عز وجل أعدل من أن يقدر بعباده أمثال هذه الحوادث, قالوا: فالله عز وجل خلق الكون، ثم تركه على معادلة يجري عليها الناس.

وجرى بعد ذلك تعظيم العقل والحذق في كثير من الأمور وعدم التسليم بتدخل الخالق, ولهذا ضعف عند الفلاسفة التعلق بالخالق سبحانه وتعالى, وهؤلاء منهم من يؤمن بخالق يختلف عن الخالق الآخر من جهة حقيقته وماهيته ونحو ذلك.

واجب المسلم نحو مسألة القدر

وهذه المسألة هي مسألة القدر وحكمة الله عز وجل ودقائق الغيب هذه من المعاني التي يجب على الإنسان أن يسلم بها, وبحث كثير من دقائقها المسكوت عنها في الشريعة هو الواجب, ولهذا يقول ابن تيمية رحمه الله: هذه المسألة مضلة الأفهام ومزلة الأقدام، ويقول عليه رحمة الله: ما من أحد من الناس إلا وفي قلبه حسكة من هذه المسألة, وهي مسألة القدر.

وقبل ذلك أيضاً أبو حنيفة عليه رحمة الله يقول: هذه مسألة مقفلة، وضاع مفتاحها, يعني: البحث في هذا يحتاج إلى علم الغيب, وهي قدره, والبحث عن مثل هذه الأمور المغيبة هو خارج إدراك الإنسان, ونظر الإنسان فيها يزيده تحيراً؛ كشمس الظهيرة إذا نظر الإنسان كلما ازداد نظره ازداد تحيراً؛ لماذا؟ لأن آلة إدراكهم العقلية وحاستهم العقلية كحاستهم البصرية إذا نظر لشمس الظهيرة زادته ألماً وتحيراً, وكذلك إذا نظر عقله إلى شمس الحقيقة زاد تحيراً وعجزاً, وهذا لضعفه.

فواجبه في ذلك أن يسلم الأمر لله سبحانه وتعالى, والذي يؤمن أن الله عز وجل قدر المقادير على خلقه سبحانه وتعالى خيراً وشراً, ولكن الله جل وعلا لا يقدر لعباده إلا الخير, وجعل لهم مشيئة، وهداهم الله عز وجل السبيل, منهم من يريد الخير، ومنهم من يريد الشر.

ولهذا نقول: إن الإيمان بالقدر, وأن الله عز وجل قدر مقادير الخلائق, وأن الله سبحانه وتعالى يعلم ما كان, ويعلم ما يكون, ويعلم ما سيكون, ويعلم ما لم يكن لو كان كيف يكون, حتى ما يسمى بعلم المستحيل, لو قدر الله عز وجل وجوده, ولهذا نقول فيما تكلم عليها المتكلمون بمسألة السببية أو قانون الحتمية ونحو ذلك, وإيغال المعتزلة في هذا الباب, وخلاف المعتزلة مع الأشاعرة في هذه المسألة وفي مسألة الكسب وخلافهم مع أهل السنة لعله يأتي الكلام عليها بإذن الله تعالى.

عدم إضافة ما يتوهم منه النقص بالنسبة لله

قال المصنف رحمه الله: [ومن مذهب أهل السنة وطريقتهم مع قولهم بأن الخير والشر من الله وبقضائه، أنه لا يضاف إلى الله ما يتوهم منه نقص على الانفراد، فيقال: يا خالق القردة والخنازير والخنافس والجعلان، وإن كان لا مخلوق إلا والرب خالقه، وفي ذلك ورد قول رسول الله ﷺ في دعاء الاستفتاح: (تباركت وتعاليت). ومعناه والله أعلم: والشر ليس مما يضاف إليك إفراداً وقصداً، حتى يقال لك في المناداة: يا خالق الشر! ويا مقدر الشر! وإن كان هو الخالق والمقدر لهما جميعاً، لذلك أضاف الخضر عليه السلام إرادة العيب إلى نفسه، فقال فيما أخبر الله عنه في قوله: ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ [الكهف:79], فلما ذكر الخير والبر والرحمة أضاف إرادتها إلى الله عز وجل، فقال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ [الكهف:82], ولذلك قال مخبراً عن إبراهيم عليه السلام أنه قال: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء:80], فأضاف المرض إلى نفسه، والشفاء إلى ربه، وإن كان الجميع منه].

وهذا على ما تقدم؛ أن ما يتضمن لفظ نقص نثبته بالإجمال, وأما ما يتضمن نسبته لله عز وجل مدحاً لا حرج في إثباته بالتفصيل؛ كقولنا: خالق السمع, والبصر, ومصور الإنسان, ومدور الكواكب والأفلاك, ومجري السحاب والرياح, والفلك التي تجري في البحر, وغير ذلك من الأمور التي يستعظمها الإنسان, والدخول في مسائل التفصيل هذا لا حرج فيه.

أما ذكر ما يوجد في الكون من مخلوقات الله عز وجل التي يستقبحها الإنسان نسبتها على سبيل التفصيل، وإن كانت صحيحة المعنى إلا أنها لا تجوز؛ لأنها تتضمن نقصاً على سبيل الانفراد, وإنما نثبتها؛ خلق الله عز وجل المخلوقات, وإذا جاء من ينفيها, من خلق العذرة؟ نقول: الله, إذا جاء من ينفيها أو يسأل عنها نثبتها بهذا الأمر، ونثبت الجميع لله سبحانه وتعالى خلقه.

الكلام حول الإرادة والمشيئة

قال المصنف رحمه الله: [ومن مذهب أهل السنة والجماعة أن الله عز وجل مريد لجميع أعمال العباد خيرها وشرها، ولم يؤمن

أحد إلا بمشيئته, ولم يكفر أحد إلا بمشيئته، ولو شاء لجعل الناس أمة واحدة, ولو شاء ألا يعصى ما خلق إبليس, فكفر الكافرين وإيمان المؤمنين بقضائه سبحانه وتعالى وقدره وتقديره وإرادته ومشيئته، أراد كل ذلك وشاءه وقضاه، ويرضى الإيمان والطاعة، ويسخط الكفر والمعصية، قال الله عز وجل: ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾ [الزمر:7]].

أقوال الأمم والطوائف في مسألة إرادة العبد ومشيئته

والطوائف في هذا الباب في مسائل القضاء والقدر وغير ذلك, وعلى ما تقدم الإشارة إليه أن كثيراً من الطوائف قبل الإسلام كانت في ضلال في هذا الأمر, وجلهم يؤمن بوجود التقدير, لكن منهم من يجري على طريقة الجبر؛ أن الله عز وجل جبر العباد على شيء, وأنهم لا مشيئة لهم ولا اختيار.

فالمشركون في الجاهلية من كفار قريش وغيرهم يثبتون القدر ولكن على الجبر, يقولون: إن العباد يجبرون على هذا, والله عز وجل يقول في كتابه العظيم: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ [الأعراف:28], فالمشركون من كفار قريش على هذه العقيدة, حتى جاء الإسلام فأثبت القدر وأثبت للعبد المشيئة.

والمتكلمون الأوائل من الفلاسفة من اليونان والرومان وغيرهم يبتون أن الله عز وجل هو الخالق, ولكن لا يجعلون له تصرفاً في الكون, ثم جاء تبعاً لذلك تعظيم العقل, وأشهر هذه المدرسة أرسطو في هذا, ثم جرى على ذلك تلامذته, وتبعه أيضاً بعض الفلاسفة المنتسبين للإسلام الذين يسمون بالمشائين, وأرسطو حينما كان يدرس فلسفته كان يجري معه تلامذته, يسيرون معه ذهاباً ومجيئاً, يعني: يعلم التلاميذ وهو في مسيره, فكان التلاميذ يسمون بالمشائين, يعني: يمشون معه ويأخذون منه العلم, فمن تبع أرسطو في مسألة القضاء والقدر سموا أيضاً بالمشائين, ولو كانوا من فلاسفة الإسلام؛ كابن سينا و الفارابي و الكندي و ابن رشد وغيرهم الذين جروا على مثل هذه الفلسفة, الذين قالوا: إن الله عز وجل خلق الخلق وأوجد قانون السببية, هي معادلات الحوادث التي تكون, قالوا: فإن الإنسان إذا أراد أن يُحدث شيئاً فعل, وهذه الفعلة معادلة, لا بد أن يحدث في ذلك النتيجة, وجروا على هذا الأمر, فجعلوا الإنسان خالقاً لفعله, وهذا جرى عليه أيضاً جملة من الفلاسفة حتى المعاصرين.

ولكن نقول: إن الأدلة في كلام الله وكلام رسول الله ﷺ مع إثبات أن الله عز وجل الخالق وهو المقدر للحوادث, إلا أن الله عز وجل أثبت لعباده المشيئة, وإذا كان الإنسام مجبوراً فما الفائدة من إرسال الرسل وإنزال الكتب، إذا كان الإنسان يقدر عليه هذا الأمر؟

وأما ما يتعلق بالمعتزلة, وهم الذين يقولون: إن الله عز وجل لم يقدر على عباده المقادير, وقالوا: إن العباد يخلقون أفعالهم, وحملهم على ذلك جريهم على أصولهم في هذا، ومنها العدل, قالوا: العدل, يعني: أن الله عز وجل لا يقدر على عباده

السيئات ثم يعاقبهم عليها, ومقتضى ذلك أن ننفي القدر, ولازم ذلك أن ينفوا علم الله سبحانه وتعالى بالحوادث؛ لأن العلم الدقيق بحوادث الكون وتنقلها وأحوالها وتطوراتها يلزم من ذلك ألا يعلم إلا من قدرها.

فالعلم الكامل في ذلك يرجع إلى المقدر وهو الخالق؛ لأنه لا يعلم الشيء بتفصيله على سبيل الكمال إلا من صنعه ووضعه, فالعلم لازم للقدر, والقدر لازم للعلم, فمن نفى هذا نفى هذا, ولا يمكن أن يقدر الله عز وجل للخلق المقادير وهو لا يعلم, تعالى الله عز وجل عن ذلك, ولا يمكن أن يعلم الله عز وجل مقادير وأحوال الكائنات فيما يأتي إلى قيام الساعة، ثم لم يكن هو الذي قدرها, فأنى أتى العلم بتفصيل دقائق وتحول الأجزاء وانتقالها وتحول المادة وخلق الكون ونحو ذلك من مثل هذه الدقائق، ثم لم يكن هو الذي قدرها؟ إما أن يكون العلم مكتسباً من غيره, تعالى الله عز وجل عن ذلك, أو يكون هو الذي خلق وقدر، ويعلم ما خلق وقدر, ولهذا الله عز وجل يقول: ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ [الملك:14], لأنه هو الذي خلقها, فبخلقه لها علم سبحانه وتعالى أحوالها؛ لأنه هو سبحانه وتعالى هو الصانع لهذه الأشياء.

والأشاعرة أتباع أبي الحسن الأشعري في هذه المسألة أرادوا أن يتوسطوا بين مذهب المعتزلة وبين مذهب أهل السنة، فجاءوا بمسألة الكسب, ومسألة الكسب في هذا فيها من جهة الحقيقة جبر, وإن كانوا يحاولون أن يتلاعبوا بالألفاظ ونحو ذلك, وأن يخرجوا من قول المعتزلة أن العبد يخلق فعله, يقولون: الله عز وجل هو الخالق, لكنهم يعطلون قانون السببية، عند المتكلمين يسمى قانون السببية, أي: المعادلات, أنه يلزم من هذا أن يحدث هذا, فالإنسان إذا أراد أن يقتل أحداً ضربه بسهم أو برصاص أو نحو ذلك, فإنه يرديه قتيلاً إذا أتاه في مقتل، هم يقولون: هذا ليس سبباً لذاك, ولكن الله عز وجل أوجده كما أوجد الضرب, قالوا: أوجد الله الضرب ثم أوجد الله القتل, فإذا أراد الإنسان أن يفعل شيئاً أوجد الله عز وجل فعله، وأوجد أثره على حد سواء, قالوا: وليس للعبد في ذلك أثر.

وهذا فيه مناقضة للعقل وتعطيل لإحكام الله عز وجل في هذا الباب.

ومنهج المعتزلة في هذا الباب هو أقرب إلى الفهم واستيعاب العقل من منهج الأشاعرة, فهم يقولون مثلاً في مسألة السببية: إذا أراد الإنسان الشبع فالأصل أنه يأكل, إذا أكل فإنه حينئذٍ يشبع, وسبب الشبع الأكل, هم يقولون: إن الله أوجد الأكل وأوجد الشبع بعد وجود الأكل، ولا صلة بينهما, قالوا: وذلك أن الله قادر على أن يوجد الشبع بلا أكل, نقول في مثل هذا: ما يتعلق بالإعجاز أوجده الله عز وجل باطناً وإن لم تره ظاهراً, ولهذا عطلوا جانب السببية, وكذلك من جهة العمل, وعظموا في ذلك جانب العقل في هذا الباب.

ولهذا نقول: كل ما غلا الإنسان في جانب السببية نفى في ذلك ما يجري على خلافها بالظاهر, وإن كان يجري بالباطن, ما الذي يجري على خلافها؟ المعجزات والكرامات, ولهذا المعتزلة ينفون المعجزات, ولا يؤمنون بها؛ لماذا؟ بسبب قانون السببية لديهم, انشقاق القمر قالوا: يخالف قانون السببية؛ لأن مثل هذا تصرف كوني ومعادلة كونية لا بد أن تحدث, وينفون كذلك

الكرامات.

الأشاعرة في هذا طوائف منهم يثبتون، وطوائف منهم ينفون.

منهج أهل السنة في باب المشيئة والإرادة

أهل السنة في هذا الباب يقولون: إن الله عز وجل قدر المقادير، ويعلم ما كان، ويعلم ما سيكون ويعلم ما لم يكن لو كان كيف يكون, وأن تقدير الله عز وجل لا يعطل على العبد اختياره, وله مشيئة, وهداه الله عز وجل النجدين, عرف طريق الحق وطريق الباطل, طريق الخير وطريق الشر, وله اختيار يحاسبه الله عز وجل على اختياره.

ولهذا يقول الله عز وجل: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء:15], في هذا إشارة إلى أن بالرسول أثر على العمل, على اختيار الإنسان, ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الإنسان:30], فللإنسان مشيئة، ولكنها بعد مشيئة الله سبحانه وتعالى، وهذا هو عمل القلب.

أما ما يأتي في ذهن الإنسان من بعض الأمور التي تغيب عن ذهنه كقوله: (إن الله عز وجل يقدر على العباد, وخلق للنار خلقاً وهم في بطون أمهاتهم, وخلق للجنة خلقاً وهم في بطون أمهاتهم، ففيم يكون العمل؟), مثل هذا الأمر والتوقف عنده والتسليم بما جاء به الله سبحانه وتعالى من الإيمان بالقدر, وعدم البحث فيما وقع من ذلك؛ لماذا؟ لأن عقل الإنسان لا يدركه, ولهذا لما قال أبو حنيفة يقول: هذه مسألة مقفلة ضاع مفتاحها, ومقفلة على الأذهان، واستيعابها هو أبعد من ذلك, لحكم الله عز وجل، والموضوع صعب.

ولهذا نقول: هذه المسألة تتكئ على قدر التسليم, وهذا يدرك أنه يوجد في نفوس بعض الناس من عدم استيعاب كثير من العلل, وهنا يتبين أهل الإيمان الحق والصدق, ولهذا ابن تيمية على ما تقدم الكلام عنه يقول: ما من أحد إلا وفي قلبه حسكة من هذه المسألة.

وقد زلت في هذه المسألة الأقدام وضلت فيها الأفهام, وكفر بها بسببها أقوام كثر.

ولهذا نقول: إن كثيراً من الحكم لا يدركها الإنسان لضعف عقله؛ كما الإنسان في مسألة نظره للشمس في الظهيرة, ينظر إليها الإنسان ثم يرجع, كأن بصره حينما لسعته الشمس انقبض عنه, وما يدري الإنسان أيضاً في عقله إذا تأمل بعض القضايا كأنها ضربة شمس أدى إلى انكماشها؛ لماذا؟ لأنه ما استوعبها, ولن تستطيع أن تستوعب, وإذا أدمت النظر احترقت, ولو أردت أن تدرك كل علل الكون فما الفرق بين الخالق والمخلوق؟ ما الفرق بينك وبين الله؟ أين التسليم والطاعة؟ إذا أردت أن يعلمك الله عز وجل بما أوجده الله عز وجل بالكون كله وأن تعلم علته فما الفضل في مسألة الإيمان لك, وما الفرق حينئذٍ بين

علم الخالق والمخلوق سبحانه وتعالى؟

والعجب ممن ينفي علم الله عز وجل بالقدر أنه يدعو الله أن يقدر له الخير ويكفيه الشر, فأي شيء يقدره الله عز وجل لك في المستقبل وأنت تنفي قدر الله سبحانه وتعالى أصلاً؟ ولهذا نقول: إن الإيمان بالقضاء والقدر متلازم مع جميع أجزاء الإيمان, ومع القربات, والتعلق بالله سبحانه وتعالى.

الشهادة بالجنة والنار

قال المصنف رحمه الله: [ويعتقد ويشهد أصحاب الحديث أن عواقب العباد مبهمة، لا يدري أحد بما يختم له، ولا يحكون لواحد بعينه أنه من أهل الجنة، ولا يحكون على أحد بعينه أنه من أهل النار؛ لأن ذلك مغيب عنهم، لا يعرفون على ما يموت عليه الإنسان, ولذلك يقولون: إنا مؤمنون إن شاء الله].

وهذا على ما تقدم الكلام عليه في مسألة الإيمان؛ هو قول وعمل واعتقاد, قد يذهب واحد منها ولا يذهب الإيمان لعذر قائم فيه, وهذا العذر يعلمه الله عز وجل, وقد يوجد واحد منها، ولا يقبله الله عز جل من العبد لانتفاء الباطن، ولهذا لا يشهد لأحد بالجنة ولا بالنار بعينه إلا من شهد له الله عز وجل ورسوله ﷺ, وإنما نكل أمره إلى الله ونحسن الظن بالله سبحانه وتعالى أن يجعل عاقبته إلى خير.

وكذلك من شهادة الناس للإنسان في الخير والإحسان والفضل, فهذا أيضاً من إحسان الظن والبال, وشهادة الناس للإنسان بالشر والذم ونحو ذلك أيضاً فيها من شهادة له بالسوء, ولا يقطع في ذلك, ولكن يؤخذ من ذلك تفاؤلاً وسوء عاقبة الإنسان بحسب ما يشتهر ويظهره ويستفيض عنه.

ولكن هذا لا ينفي أن نشهد لكل كافر بالنار, ولكل مؤمن بالجنة, إما ابتداء أو انتهاء بعد ما يقدره الله عز وجل عليه من حساب وعقاب.

وأما هذه المسألة فتتكلم على قضية الأعيان, ولهذا الرجل الذي قاتل مع رسول الله ﷺ كما في الصحيح, وقال أحد الصحابة عليهم رضوان الله: (إنه رجل من أهل الجنة, فقال النبي ﷺ: بل من أهل النار), هذا وهم الصحابة! وهم في القتال, والسبب في ذلك أنه في علم الله عز وجل أنه يقتل نفسه, ولهذا نقول: لا يدري الإنسان ما يختم للإنسان عليه، وكذلك ما يبطنه الإنسان من أمور ترى خيراً، وكانت نيته لغير الله عز وجل، والله عز وجل ينظر إلى الظواهر والبواطن على حد سواء.

قال رحمه الله: [ويشهدون لمن مات على الإسلام أن عاقبته الجنة, فإن الذين سبق القضاء عليهم من الله أنهم يعذبون بالنار مدة لذنوبهم التي اكتسبوها، ولم يتوبوا منها، فإنهم يردون أخيراً إلى الجنة، ولا يبقى أحد في النار من المسلمين. فضلاً من الله

ومنة، ومن مات والعياذ بالله على الكفر فمرده إلى النار لا ينجو منها، ولا يكون لمقامه فيها منتهى].

المبشرون بالجنة

قال المصنف رحمه الله: [فأما الذين شهد لهم رسول الله ﷺ من أصحابه بأعيانهم فإن أصحاب الحديث يشهدون لهم بذلك، تصديقاً للرسول ﷺ فيما ذكره ووعده لهم، فإنه ﷺ لم يشهد لهم بها إلا بعد أن عرف ذلك، والله تعالى أطلع رسوله ﷺ على ما شاء من غيبه، وبيان ذلك في قوله تعالى: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ ﴾ [الجن:26-27], وقد بشر ﷺ عشرة من أصحابه بالجنة؛ وهم: أبو بكر و عمر و عثمان و علي و طلحة و الزبير و عبد الرحمن بن عوف و سعد و سعيد و أبو عبيدة بن الجراح , وكذلك قال لثابت بن قيس بن شماس : (إنه من أهل الجنة, قال أنس بن مالك : فلقد كان يمشي بين أظهرنا ونحن نقول: إنه من أهل الجنة)].

وشهد النبي ﷺ لكثير من الرجال والنساء من أصحابه أنهم من أهل الجنة, شهد النبي ﷺ لخديجة ولفاطمة و للحسن و الحسين و عكاشة و بلال وغيرهم من أصحابه ممن ليسوا من العشرة, ونشهد لمن شهد له رسول الله ﷺ بالجنة بعينه.

ومن شهد النبي ﷺ لجمهورهم نشهد لجمهورهم, وذلك لحال من كان مع رسول الله ﷺ من الصحابة عليهم رضوان الله نشهد لهم بالخير على سبيل الإجمال, فنقول: الصحابة في الجنة, ولا نخصص أحداً بعينه إلا من خصه رسول الله ﷺ؛ لماذا قلنا الصحابة؟ لأن الله عز وجل رضي عنهم ورضوا عنه, فمن تحققت فيه الصحبة وهذا اللفظ انحدر فيه فإنه إن شاء الله من أهل الجنة, ومن انتفى عنه ذلك الوصف فإنه حينئذٍ خارج ذلك الإطلاق.

فضل الصحابة ومنزلتهم والطعن فيهم

قال المصنف رحمه الله: [ويشهدون ويعتقدون أن أفضل أصحاب رسول الله ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي ، وأنهم الخلفاء الراشدون, الذين ذكر رسول الله ﷺ خلافتهم بقوله فيما رواه سعيد بن نبهان عن سفينة قال: (الخلافة بعدي ثلاثون سنة), وبعد انقضاء أيامهم عاد الأمر إلى الملك العضوض على ما أخبر عنه الرسول ﷺ].

أفضل الصحابة بعد النبي ﷺ

والصحابة عليهم رضوان الله الذين كانوا مع النبي ﷺ من جهة الإجمال سابقون ولاحقون, السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار أفضل ممن جاء بعد ذلك, من أنفق وجاهد قبل الفتح أفضل ممن أسلم وجاهد وأنفق بعد الفتح؛ وذلك أن اتباع

الحق في زمن ضعفه وقوة الباطل أعظم عند الله عز وجل عند قوة الحق وضعف الباطل؛ لأنه ما أقبل عليه إلا مع قوة إيمان وصبر ويقين أكثر من غيره, وكلما كان الإنسان أسبق لاتباع الحق وأقدم كان أعظم من غيره, الذي يتبع الحق في زمن الضراء يختلف عمن يتبع الحق في زمن السراء, وهذه النصوص في ذلك شاهدة في كلام الله وكلام رسول الله ﷺ.

وكذلك إذا أردنا أن ننظر إلى التفصيل نقول: أفضل أصحاب رسول الله ﷺ الذين شهدوا بدراً معه, وهم البدريون, ثم يليهم الأحديون, الذين شهدوا أحداً مع رسول الله ﷺ, ثم الذين بايعوا رسول الله ﷺ, وأفضل أولئك هم العشرة المبشرون بالجنة, وأفضل العشرة هم الخلفاء الراشدون الأربعة, وأفضل الخلفاء أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي بن أبي طالب عليهم رضوان الله.

وقد جاء في حديث عبد الله بن عمر عليه رضوان الله أنه قال: (كنا نفضل في زمن رسول الله ﷺ فنقول: أبو بكر ثم عمر ثم عثمان), وجاء في بعض الروايات عند عبد الله وغيره في ذكر علي بن أبي طالب ، ولكن غير محفوظة, وفضله بذلك محفوظ.

سب الصحابة والطعن فيهم

والأمة تتفق على فضل أولئك والترضي عنهم, وأن محبتهم إيمان, وأن كرههم نفاق, وأن من وقع في أحد من أصحاب رسول الله ﷺ ممن زكاهم النبي ﷺ بعينه, أن ذلك علامة ضلال وزيغ.

ومن طعن في الصحابة عليهم رضوان الله تعالى على سبيل الإجمال ولم يستثن منهم أحداً, أو طعن بأغلبهم فقد كفر بالله سبحانه وتعالى؛ لأن هؤلاء لا يشتركون بالصفات الخَلقية ولا الخُلُقية, لا يشتركون بالحلم على حد سواء, ولا بالكرم على حد سواء, ولا بالقوة والشجاعة على حد سواء, حتى يشتركون بمدح أو ذم, وإنما يشتركون بأمر واحد وهو صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم, فإذا ذمهم أحد على حد سواء، أو ذم أكثرهم فهو فصل القدر الذي يشتركون فيه.

ولهذا نقول: إن من سب الصحابة بإجماعهم أو سب جمهورهم فقد كفر بالله عز وجل, وقد نقل الإجماع على ذلك جماعة وخلق كثير في هذا؛ قد جاء عن سفيان , وجاء عن الإمام أحمد و إسحاق بن راهويه وغيرهم من العلماء ممن حكى الإجماع في ذلك.

وأما من طعن في الواحد والاثنين من الصحابة نقول: ذلك لا يخلو من حالين:

الحال الأولى: من طعن في واحد منهم ممن تواتر النص بفضله, فطعن في ذلك الفضل المتواتر؛ وذلك كحال أبي بكر , تواتر

واستفاض فضله, فمن طعن به فقد كفر بالله.

الحال الثانية: من طعن بواحد منهم في من لم يتواتر فضله، فطعن فيه بشيء لم يكن متواتراً عن النبي ﷺ؛ كمن يطعن في واحد من الصحابة فيصفه مثلاً بالبخل, أو يصفه بالجبن, أو غير ذلك من الأوصاف، ووصفه بالكرم والشجاعة لم يتواتر به دليل عن النبي ﷺ, فما طعن به عموماً، وإنما طعن بخصلة لم يرد فيها نص متواتر, ولكن ذلك لا يعفي الإنسان من وجوب الإمساك عنه, ونقول: إن هذا يحكم عليه بالبدعة والضلال, والغالب في حال من طعن بالصحابة أن من طعن في واحد طعن في غيره, ومن تجرأ على واحد تجرأ على غيره.

الواجب على الإنسان تجاه الصحابة

يجب على الإنسان في قضية الصحابة عليهم رضوان الله أن يترضى عنهم, وأن يذكر مناقبهم ومحامدهم, وأن يذكر فضلهم, وأن يمسك مما صح أو لم يصح من باب أولى عن المثالب الواردة عنهم؛ لماذا؟ لأنهم في طبقة يتغلبون ويفضلون غيرهم, والمفضول لا يتكلم في الفاضل, والابن حينما يرى من أبيه زلة فما هو الأدب الذي يتكلم معه؟ ألا يتكلم معه بلين ورفق؟ وإذا اشترك معه غيره في هذه الزلة، فاشترك مع أبيه أحد من الناس فإن عبارته تتباين وتختلف؛ لأن مقام البنوة عند مقام الأبوة مقام تواضع واحترام وانكسار؛ للفضل, والصحابة عليهم رضوان الله تعالى لهم فضل على هذه الأمة, فهم نقلة الوحي, نحن نتعبد الله عز وجل سبحانه وتعالى في كثير من الأحيان جاءت عنهم, فكيف نصلي وكيف نصوم وكيف نزكي إلا بنقل أولئك؟ حفظوا القرآن في صدورهم, وحفظوا السنة في صدورهم, ومن استطاع دون ذلك، ثم نقلوه لمن جاء بعدهم, فجعل الله عز وجل حفظ دينه بسببهم عليهم رضوان الله تعالى, وإذا طعنا في أولئك فإننا نطعن ضمناً بالشريعة.

ونحن لا ندعي العصمة لهم كما تقول ذلك الروافض وأهل الضلال من الرافضة وغيرهم, بل نقول: إنهم يخطئون ويذنبون, وخطؤهم وذنبهم مع وجوده أنه لا يغير من فضلهم، بل فضل أدناهم عليه رضوان الله تعالى يفوق فضل من جاء بعدهم من أفاضلهم, ولهذا سئل ابن المبارك عليه رحمة الله: أيهما أفضل عمر بن عبد العزيز أو معاوية بن أبي سفيان ؟ قال: لغبار في أنف معاوية مع رسول الله ﷺ خير من عمر بن عبد العزيز كله؛ لماذا؟ لأنه كان مع صفوة الخلق عليهم الصلاة والسلام, فوجود الواحد منهم ولو تكثيراً لسواد النبي ﷺ تكثيراً ولو لم يعمل أهيب لرسول الله ﷺ, وأقوى في تثبيت الحق والإيمان, وكذلك ردع أهل الكفر والضلال.

والفضل الذي جعله الله عز وجل في الصحابة كثير من الناس هو من الأمور المتعدية التي حفظ الله عز وجل بها الدين, وأتم بها النعمة, ومكن الله عز وجل لرسوله, وكثير من الأعمال التي تفعلها الأمة كانت لجمهور الصحابة عليهم رضوان الله تعالى في ذلك حماية لرسول الله وحماية للدين.

والنبي ﷺ أما أتم شعائر الدين بعون الله عز وجل وتسديده وجعل أولئك سبباً لإكمال الدين؟ أما ذهب رسول الله ﷺ إلى

مكة فاتحاً؟ وحج رسول الله ﷺ حجة الوداع والحج ركن من أركان الإسلام, وكان معه الصحابة, ومنهم من يطوف, وغاية العمل أنه يطوف, وكان مضطبعاً وراملاً، يهيب الكفار؟ مثل هذه الأمور التي تمكن لرسول الله ﷺ شريعته، أن يراها الإنسان هينة وهي عند الله عز وجل تثبت الدين إلى قيام الساعة, فالله عز وجل يعلم من حالهم, ويعلم أيضاً من تقصير بعضهم, أو ورود الخطأ عليهم, ومع ذلك سماهم الله عز وجل على سبيل الإجمال: ورضي عنهم سبحانه وتعالى ورضوا عنه.

وأما ما يقوله البعض من الوقيعة في الصحابة أن هذا ثابت في التاريخ, نقول: ثبوته شيء، والجرأة عليهم شيء آخر, وإقرار عصمتهم شيء, نحن لا نقول بعصمتهم, لكن نقول: لا يتجرأ عليهم أحد, ولا يخوض الإنسان في أمثالهم؛ لماذا؟ لأنه في مرتبة دنيا، إذا أراد الإنسان أن يفصل في أمر أبيه مع أمه في خصومة, خاطبهم بأدب وإن كانت القضية بينهما عظيمة؛ لماذا؟ لمنزلة أولئك عنده من جهة الفضل, ففضل الصحابة عليهم رضوان الله تعالى على الأمة أولى وأعظم.

دعوى وجود المنافقين في الصحابة

وأما من يقول: إن في الصحابة عليهم رضوان الله تعالى منافقين, نقول: إن من كان من أهل النفاق ليس له أثر في نصرة الإسلام أصلاً, ثم أيضاً أنهم نفر يسير, والنفر اليسير لا يأتي على العدد القائم من الألوف من الصحابة عليهم رضوان الله, وقد ذكر أبو زرعة أن عدد الصحابة عليهم رضوان الله الذين مات عنهم النبي ﷺ أكثر من مائة وعشرين ألفاً, وقيل: مائة وأربعة عشر ألف, وقد جاء عن النبي ﷺ كما في صحيح مسلم من حديث حذيفة بن اليمان قال: (في أصحابي اثنا عشر منافقاً, ثمانية منهم لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط), والمنافقون هم دون هذا العدد.

ولا ينبغي أن يطعن بالصحابة عليهم رضوان الله تعالى على سبيل العموم أو التغليب أو يطعن في أعيانهم؛ لوجود أفراد المنافقين, والمنافقون الذين كانوا مع رسول الله ﷺ يعرفهم النبي ﷺ بأعيانهم, وقد سماهم لحذيفة بن اليمان , وكان عمر بن الخطاب والصحابة ينظرون إلى حال حذيفة بن اليمان عليه رضوان الله بتعظيمه لأحد أو عدم تعظيمه, أو صلاته على أحد أو عدم صلاته عليه, فكانوا لا يصدقون ولا يقربون, وليس لهم أثر على الأمة.

ولهذا نقول: إنه ينبغي للمؤمن أن يعظم الصحابة عليهم رضوان الله, وأن يترضى عنهم, وألا تذكر مثالبهم ولا يذكرون إلا بخير.

وما وقع بينهم من نزاع وخصومة كحال الخصومة التي تقع بين الأخوين, لا يقضي الإنسان بينهما بشدة أو دم أو قدح أو نحو ذلك, وإنما إن خاض في ذلك ووجد نفسه مضطراً للخوض في ذلك في مسألة من المسائل يكون معهم بأدب ولين ورفق, وكذلك بخفض جناح الذل لهم عليهم رضوان الله تعالى, وهذا في كل المسائل, وما وقع بينهم أيضاً من الخصومة وقع بين أناس فاضلين لا يقضي بينهم فيمن جاء بعدهم ممن كان دون ذلك.

خلافة الخلفاء الراشدين الأربعة

إثبات خلافة أبي بكر الصديق

قال المصنف رحمه الله: [ويثبت أصحاب الحديث خلافة أبي بكر ﷺ بعد وفاة رسول الله ﷺ، باختيار الصحابة واتفاقهم عليه، وقولهم قاطبة: رضيه رسول الله ﷺ لديننا فرضيناه لدنيانا].

وقد أخذ الصحابة عليهم رضوان الله ما يتعلق بخلافة أبي بكر ما استطاعوا, حتى وصل إلى درجة القطعية, حتى قال غير واحد: إن النبي ﷺ أوصى لأبي بكر باعتبار أنه خليفته في الصلاة, يصلي بالناس، والنبي ﷺ كان إذا وكل أمراً أو ناب أحداً ناب أبو بكر , والرجل الذي جاء قال: (إن أتيت ولم تجدني فائت أبا بكر), وهذا إشارة إلى نوع من النيابة, فأخذ ذلك الصحابة عليهم رضوان الله تعالى ذلك الأمر، وقد أجمعت الأمة عليه.

قال رحمه الله: [وقولهم: قدمك رسول الله ﷺ فمن ذا الذي يؤخرك؟ وأرادوا أنه ﷺ قدمك في الصلاة بنا أيام مرضه، فصلينا وراءك بأمره، فمن ذا الذي يؤخرك بعد تقديمه إياك؟ وكان رسول الله ﷺ يتكلم في شأن أبي بكر في حال حياته بما يبين للصحابة أنه أحق الناس بالخلافة بعده، فلذلك اتفقوا عليه واجتمعوا، فانتفعوا بمكانه والله، وارتفعوا به واتفقوا, حتى قال أبو هريرة ﷺ: والله الذي لا إله إلا هو لولا أن أبا بكر استخلف لما عبد الله، ولما قيل له: مه يا أبا هريرة , قام بحجة صحة قوله، فصدقوه فيه وأقروا به].

إثبات خلافة عمر وعثمان وعلي

قال المصنف رحمه الله: [ثم خلافة عمر بن الخطاب ﷺ وأرضاه باستخلاف أبي بكر ﷺ إياه، واتفاق الصحابة عليه بعده، وإنجاز الله سبحانه بمكانه في إعلاء الإسلام، وإعظام شأنه وعده.

ثم خلافة عثمان ﷺ بإجماع أهل الشورى، وإجماع الأصحاب كافة، ورضاهم به حتى جعل الأمر إليه. ثم خلافة علي رضي الله عنه ببيعة الصحابة إياه، عرفه ورآه كل منهم ﷺ أحق الخلق، وأولاهم في ذلك الوقت بالخلافة ولم يستجيزوا عصيانه وخلافه].

مراتب الخلفاء الأربعة من حيث الفضل

وفضل هؤلاء الأربعة بفضل ترتيبهم بأمر الخلافة, وعلى هذا استقر قول أهل السنة, ويخالف في ذلك بعض الأئمة بين علي و عثمان عليه رضوان الله تعالى, وجاء هذا عن سفيان , وجاء أيضاً عن أبي حنيفة , ولهما قولان أيضاً في هذه

المسألة يوافقون ما عليه أهل السنة, ومع وجود بعض الأقوال من بعض الأئمة بالتفاضل بين علي بن أبي طالب و عثمان بن عفان إلا أنهم يقرون بالفضل للجميع, وجلالة في القدر, ويحذرون من الوقيعة فيهم، إلى أن استقر عليه الأمر, وأجمعت عليه كلمة أهل السنة بعد ذلك، وأن فضلهم بحسب ترتيبهم في أمر الخلافة.

فضل حب الخلفاء الأربعة وحرمة سبهم

قال المصنف رحمه الله: [فكان هؤلاء الأربعة الخلفاء الراشدين الذين نصر الله بهم الدين، وقهر وقسر بمكانهم الملحدين، وقوى بمكانهم الإسلام، ورفع في أيامهم للحق الأعلام، ونور بضيائهم ونورهم وبهائهم الظلام، وحقق بخلافتهم وعده السابق في قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ [النور:55], وفي قوله: ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ ﴾ [الفتح:29]الآية, فمن أحبهم وتولاهم، ودعا لهم، ورعى حقهم، وعرف فضلهم فاز في الفائزين، ومن أبغضهم وسبهم، ونسبهم إلى ما تنسبهم الروافض والخوارج لعنهم الله, فقد هلك في الهالكين, قال رسول الله ﷺ: (لا تسبوا أصحابي، فمن سبهم فعليه لعنة الله), وقال: (من أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن سبهم فعليه لعنة الله)].

لأنهم ما اجتمعوا إلا على رسول الله ﷺ, ما اجتمعوا على غيره, حباً للنبي عليه الصلاة والسلام واتباعاً له, فإذا طعن فيهم طعن بما اجتمعوا عليه ورضوه واقتدوا به وتأسوا به عليه الصلاة والسلام.

نكتفي بهذا القدر، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

الدرس الثالث عشر

يشرع الصلاة والجهاد خلف الوالي المسلم وإن ظلم، والدعاء له بالتوفيق والصلاح. وعلى المسلم أن يعظم قدر أزواج النبي ﷺ، وأن يكف لسانه عما شجر بين أصحابه رضوان الله عليهم.

بعض الحقوق المتعلقة بالولاة والأمراء

بسم الله الرحمن الرحيم. وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:

الصلاة خلف البر والفاجر

قال المصنف رحمه الله: [ويرى أصحاب الحديث الجمعة والعيدين وغيرهما من الصلاة خلف كل إمام مسلم براً كان أو فاجراً].

ما يتعلق ببعض المسائل الفرعية التي يذكرها الأئمة في مسائل الاعتقاد، ويدرجونها في ثناياها, ويخللون هذه المسائل لوجود خلاف عند بعض أهل البدع, ويشهرون أمثال هذه المسائل فتكون علماً عليهم, كما يدخل الأئمة ما يتعلق بمسألة المسح على الخفين لمخالفة الرافضة في ذلك, وكذلك ما يتعلق بالصلاة خلف الإمام البر والفاجر والقتال معه, وغير ذلك من المسائل التي لا تندرج ضمن مسائل العقائد؛ وذلك لاشتهارها, حتى يكون ثمة معرفة لما ظهر من منهج أهل الابتداع والضلال وبين أهل الإسلام, وذلك من العلامات والدلائل الفارقة بين أهل الحق وأهل الباطل ليهتدي الإنسان بذلك على ما ورائها.

جهاد الكفار مع الولاة

قال المصنف رحمه الله: [ويرون جهاد الكفرة معهم وإن كانوا جورة فجرة].

هنا يقول: (ويرون جهاد الكفرة معهم) يعني: أن الإمام إذا كان ظالماً أو فاسقاً ومهما بلغ ظلمه ما لم يقع في الكفر فإنه يقاتل معه, قال: قتال الكفرة, يعني: أنه مسلم, أما إذا كان كافراً هو في ذاته؛ فلا يجوز للإنسان أن يقاتل معه؛ لأن قتاله خلف إمام كافر قتال جاهلية, لا يجوز للإنسان أن يقاتل معه على الإطلاق, والجهاد على نوعين: جهاد دفع, وجهاد طلب.

وجهاد الدفع لا يشترط له نية, وإنما تحقق المقصد مجرداً, وأما جهاد الطلب فهو الذي تطلب له النية, وتشترط له الشروط المشهورة مما يتكلم فيه العلماء في مسائل الجهاد.

ولهذا نقول: إن الإنسان إذا دافع عن ماله أو عرضه أو دمه فإنه لا يشترط لذلك أن ينوي ذلك أنه لله حتى يكون صادقاً, بل لو أنه دفع عن عرضه مجرداً من غير استحضار نية وقتل لكان شهيداً, بخلاف قتال الطلب وجهاد الطلب, لا بد به من نية, جاء في السنن من حديث سعيد بن زيد أن رسول الله ﷺ قال: (من قتل دون ماله فهو شهيد, ومن قتل دون أهله فهو شهيد, ومن قتل دون دمه فهو شهيد), هذا جهاد الدفع, فلا يشترط له نية, وما دمت تدافع عن المال وتدافع عن الدم وتدافع عن العرض فأنت شهيد لمجرد وجود ذلك.

أما جهاد الطلب كما جاء في الصحيح: (قالوا لرسول الله ﷺ: الرجل يقاتل للمغنم, والرجل يقاتل حمية, والرجل يقاتل ليرى مكانه, أي ذلك في سبيل الله؟ قال: من قاتل لتكون الله هي العليا فهو في سبيل الله), مع أنه ذكر الرجل يقاتل للمغنم, يعني: لأجل المال, وفي ذاك قال: (من قتل دون ماله فهو شهيد), لأن الذي يقاتل لكسب المال طلباً قاتل لغير الله فميتته ميتة جاهلية.

ولهذا نقول: إن قتال الدفع لا يشترط له نية, وأما جهاد الطلب فتطلب له نية إعلاء كلمة الله.

والذي يقتل دفاعاً عن دمه وعرضه فهو شهيد, ولو لم يتحقق فيه الإخلاص أو يطرأ عليه, وقد جاء عند النسائي وغيره من حديث قابوس بن أبي المخارق عن أبيه أنه قال: (جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! الرجل يأتيني يريد أن يأخذ مالي, فقال: لا تعطه مالك, قال: فإن غلبني؟ قال: فاستنصر بمن حولك من المسلمين, قال: إن لم يكن حولي أحد؟ قال: استنصر من السلطان, قال: إن نأى السلطان عني؟ قال: قاتل دون مالك), حتى تدفع عن مالك وتقتل ثم تكون من شهداء الآخرة.

ففي مسألة الدفع يختلف, ولهذا إذا وجدت أمة تدافع عن عرضها تنصر ولو كانت فاسقة, أو لو كانت كافرة, تنصر؛ فإذا كان لديك جار نصراني أو جار فاسق أو جار يهودي أو غير ذلك, صال عليه صائل يريد أن ينتهك عرضه أو أن يستبيح ماله, فاستنصر بك وجب عليك النصر أو لم يجب عليك؟ وجب.

وهل تبحث عن نية تقول: أنت تنوي أو لا تنوي؟ لا تبحث عن النية, بل تقوم بنصره؛ لأنه مظلوم ويدفع عن ظلمه, بخلاف لو جاءك وقال: إني أريد أن أقاتل أناساً, هل تأتي وتقاتل معه؟ لا؛ لأنه قتال طلب، لا بد فيه من تحقق إعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى.

ولهذا نقول: إن إخواننا في سوريا يدافعون عن أعراضهم ودمائهم, ويدافعون عن أموالهم التي استبيحت باستباحات متنوعة بشعة, فيعانون على اختلاف أحوالهم, بخلاف لو كانوا صفاً يريدون أن يطلبوا عدواً, حينئذٍ نبحث في مسألة إعلاء كلمة الله ومن يريد تحقيقها.

الدعاء للولاة بالصلاح والتوفيق

قال المصنف رحمه الله: [ويرون الدعاء لهم بالإصلاح والتوفيق والصلاح، ولا يرون الخروج عليهم بالسيف وإن رأوا منهم العدول عن العدل إلى الجور والحيف].

وذلك أن الدعاء للحاكم بالصلاح في ذلك صلاح أقواله وأفعاله, وصلاح أقواله وأفعاله صلاح الناس, فإنه إذا قال أو فعل ائتسى واقتدى به الناس, إن صلح صلحوا في الغالب، وإن فسد فسدوا, ولهذا يدعى لهم بالصلاح والهداية، ولا يدعى لهم بمزيد فساد؛ لأن في فسادهم ضلال.

وهذا الدعاء يختلف العلماء في مواضعه, ولا يعرف الدعاء للأئمة في خطب الجمع لدى السلف, لم يكن ذلك معروفاً, وقد ذكر الشافعي رحمه الله عن عطاء في كتابه الأم أن هذا محدث, وإن شهد بعض الفقهاء أن دعاء الأئمة هذا من الأمور المشروعة, وعلى هذا في كل موضع دعاء يدعو الإنسان فيه, سواء كان ذلك في الجمع أو كان ذلك في المجالس العامة أو كان ذلك في دعاء الإنسان في سجوده ونحو ذلك.

ولكن نقول: إن مواضع الأدعية المشروعة يدعو بها الإنسان بلا إفراط ولا تفريط, فإن كثيراً من الأدعية التي يدعو بها الإنسان تخرج عن كونها دعاء وطلب الإصلاح إلى كونها مدحاً؛ تتضمن معاني المدح, فالإنسان حينئذٍ يستجلب إصلاحاً وصلاحاً, لا يستجلب مدحاً ورفعة.

القتال مع الإمام ضد الفئة الباغية

قال المصنف رحمه الله: [ويرون قتال الفئة الباغية حتى ترجع إلى طاعة الإمام العدل].

الفئة الباغية التي تبغي على إمام المسلمين نقول: إذا كان الإمام مسلماً وخرج عليه فئة فإنها تقاتل باعتبار أنها باقية, وإذا خرج خارج من المسلمين على إمام ليس من المسلمين فإنه لا يذاد عنه, نقل ابن القاسم عن الإمام مالك رحمه الله أنه قال: إذا خرج خارج على إمام صالح كعمر بن عبد العزيز يقاتل معه, وإذا خرج خارج على غيره فيترك ظالم سلطه الله على ظالم، ثم ينتقم الله منهما.

فيدعى لأئمة الإسلام مهما بلغوا ظلماً بالصلاح, ويقاتل إذا خرج عليهم خارج من الناس, باعتبار أن هؤلاء فئة قد بغوا على إمام المسلمين.

الكف عما شجر بين أصحاب رسول الله ﷺ

قال المصنف رحمه الله: [ويرون الكف عما شجر بين أصحاب رسول الله ﷺ, وتطهير الألسنة عن ذكر ما يتضمن عيباً لهم ونقصاً فيهم. ويرون الترحم على جميعهم, والموالاة لكافتهم].

هذا تقدم الإشارة إليه في منزلة الصحابة وحقوقهم على هذه الأمة وحقوقهم على هذه الأمة لحب النبي عليه الصلاة والسلام لهم، وكذلك لنصرتهم لرسول الله ﷺ، ولتمكينهم له، فدوه بالمال وفدوه بالنفس، ومن لم يكن لديه مال، ولديه قوة وقدرة وجاه، فيكفي في ذلك أنهم أمدوا النبي عليه الصلاة والسلام عدداً، فتكثير السواد حول النبي ﷺ حينما يأتيهم أمراء القبائل، أو يأتيهم رسل الملوك، أو يخرج النبي عليه الصلاة والسلام ومعه سواد عظيم، وجود هؤلاء له منزلة عند الله سبحانه وتعالى، لماذا؟ لأن النبي ﷺ يختلف عن غيره، فبوجوده يمكن الله عز وجل لهذا الدين العظيم، ولهذا هؤلاء كانوا قواعد لثبات الدين ورسوخه وتمامه، ثم بعد ذلك ذيوعه وانتشاره، يحبون وحبهم إيمان، ويبغض من يبغضهم، ويسب من سبهم، ويحذر منهم.

والسب للصحابة عليهم رضوان الله على ما تقدم تفصيله، وكذلك بيانه يترضى عنهم عند ذكرهم، ويدعى لهم، وتذكر مناقبهم بحسب الحال، إذا وجد من يطعن به بعينه من الصحابة في زمن من الأزمنة تذكر المناقب، وإذا وجدنا أحد الصحابة في زمن من الأزمنة ظهر الطعن فيه، وذكر مثالبه، نكثر من ذكر فضله ومنزلته حتى تستوي الكفة، ويظهر ما غيبه الناس من فضله، فإن ذكر المساوئ أو الأخطاء أو الزلل الذي يطرأ على الإنسان صح ذلك أو لم يصح، وإظهاره للناس يوغر صدور الناس على الذي يذكرونه، فيذكر في مقابل ذلك الفضل وجلالة القدر وعلو المنزلة، وغير ذلك؛ حتى يعرف الناس العدل والإنصاف في هذا الباب.

والأصل في ذلك أنه يذكر على سبيل الإجمال فضل الصحابة، ويتمايزون بذكر الفضل بحسب منزلتهم، الخلفاء الراشدون أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي بن أبي طالب ، ثم العشرة المبشرون بالجنة يذكرون، ويستوي في ذلك من جهة فضلهم بذكر المناقب، أعلاهم في ذلك على ما تقدم ترتيبه، إلا إذا وجدت حاجة لذكر واحد منهم أو من غيرهم أكثر الناس عليه بذكر الأخطاء أو الزلات أو الاستنقاص أو نحو ذلك، كحال معاوية عليه رضوان الله تعالى، إذا وجد في زمن لا حرج من الإكثار من ذكره وذكر مناقبه، والتأنيب في ذلك والرد على أهل الهوى، ولو غلب في زمن أو في حبه ذكر فضله أكثر من فضل غيره، لماذا؟ لأن الحاجة قائمة في ذلك، دفاعاً عنه وذباً عن عرضه.

كذلك ممن يطعن في عائشة عليها رضوان الله أم المؤمنين وغيرها من أمهات المؤمنين وأصحاب رسول الله ﷺ تنظر المناقب ولو أكثر من غيره ممن هو أفضل منه، وذلك ليظهر ما يخفي أهل الابتداء حتى لا ينطلي ذلك على عامة الناس.

تعظيم قدر أمهات المؤمنين

قال المصنف رحمه الله: [وكذلك يرون تعظيم قدر أزواجه ﷺ، والدعاء لهن ومعرفة فضلهن، والإقرار بأنهن أمهات المؤمنين].

فضل أمهات المؤمنين أخذنه من فضل رسول الله ﷺ، وما سمين بأمهات المؤمنين إلا لأن النبي أبو المؤمنين، ولهذا الله عز وجل: ﴿ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ [الأحزاب:6]، وجاء في قراءة أبي بن كعب : وهو أبوهم.

لماذا تسمى أزواج النبي عليه الصلاة والسلام بأمهات المؤمنين، ولا يسمى النبي عليه الصلاة والسلام بلقب على لأنه أبو المؤمنين، لأن أعلى الألقاب لهن هو أم المؤمنين، وأعلى الألقاب للنبي عليه الصلاة والسلام لقب النبوة أم لقب الأبوة؟ لقب النبوة، ولهذا لا يسوغ ولا يجوز أن يجعل ذلك لقباً إلى رسول الله ﷺ. وإنما يذكر على سبيل الاعتراض؛ لماذا؟ لأن ذلك يفوت اللفظ الأعظم والأشرف لرسول الله ﷺ وهو لفظ النبوة، فنقول: رسول الله، ونبي الله.

أما أمهات المؤمنين لما كان أشرف الألقاب هنا هو لقب أمهات المؤمنين، فنقول: أم المؤمنين عائشة وأم المؤمنين أم سلمة ، وأم المؤمنين حفصة وهكذا، وعلى سبيل الإجمال نقول: أمهات المؤمنين.

سبب دخول الجنة

قال المصنف رحمه الله: [ويعتقدون ويشهدون أن أحداً لا تجب له الجنة وإن كان عمله حسناً، وطريقه مرتضى إلا أن يتفضل الله عليه، فيوجبها له بمنه وفضله، إذا عمل الخير الذي عمله لم يتيسر له إلا بتيسير الله عز اسمه، فلو لم ييسره له ولو لم يهده لم يهتد له أبداً، قال الله عز وجل: ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [النور:21] في آية سواها].

يقول العلماء: إن الإنسان إذا وفقه الله عز وجل إلى طاعة عليه أن يحدث مثلها؛ شكراً لله سبحانه وتعالى على ذلك التوفيق، فأعظم النعم نعمة الإسلام ونعمة الطاعة ونعمة الدين، ولهذا الله عز وجل سماها نعمة، ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ [المائدة:3]، قال الله عز وجل: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ ﴾ [آل عمران:103]، ما هي نعمة الله؟ نعمة الله أن حوله من الكفر إلى الإسلام، من المعصية إلى الطاعة، من الشر إلى الخير، هذه نعمة الله سبحانه وتعالى على الإنسان أن يتذكرها، يتذكر حاله قبل ذلك، زمن تفريط فيحمد الله سبحانه وتعالى على ما هو عليه.

وينبغي أن يؤمن إن كل طاعة طاعة حتى يستديم الطاعة ويثبت على ذلك، ولهذا النبي ﷺ يقول: (قل آمنت بالله فاستقم)، يعني: لا يكفر الإنسان إذا ظهر منه الإيمان المجرد، بل لا بد من الاستقامة حتى لا تطرأ عليه منيته وهو في حال بعد عن مذهب

الاستقامة، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول كما جاء في الصحيح من حديث سهل : (إنما الأعمال بالخواتيم).

كتابة آجال المخلوقات

قال المصنف رحمه الله: [ويعتقدون ويشهدون أن الله عز وجل أجل لكل مخلوق أجلاً، وأن نفساً لن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً، وإذا انقضى أجل المرء فليس إلا الموت، وليس منه فوت، قال الله عز وجل: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف:34]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ [آل عمران:145]].

الله سبحانه وتعالى يقدر بالكون آجالاً، يقدر أجلاً عاماً وأجلاً خاصاً، أجلاً عاماً لعموم الكون أو الأمم أو الجماعات، أو القبائل أو الشعوب أو الدول، هذا الأجل العام.

أما الأجل الخاص فهو آجال الأفراد، آجال الأعيان، آجال فلان وفلان، وآجال المخلوق الفلاني، أو الذرة الفلانية، أو القطرة الفلانية، أو ورقة الشجر الفلانية أو نحو ذلك، فلها آجال.

وأما الآجال العامة فهي آجال الدول التي تضعف وتضعف، ثم بعد ذلك تزول، ويندرج في ذلك خلق آجال خاصة ذهبت، ثم لو بدأت هذه الأمور تضعف حتى زالت بكاملها، وأصبح ذلك بتقدير الله عز وجل لا يخرج الإنسان عنه، ولا تخرج الأمم ولا الشعوب والدول ولا القبائل عنه قيد لحظة واحدة.

قال رحمه الله: [ويشهدون أن من مات أو قتل فقد انقضى أجله، قال الله عز وجل: ﴿ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ﴾ [آل عمران:154]، وقال: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء:78]].

فهي آجال مضروبة، لا يعلم أحد مهما بلغ فضله أجله، ولا أفضل في الخلق من محمد ﷺ ومع ذلك لا يعلم الأجل، ولكن قد يعلم القرب والدنو، فلهذا رسول الله ﷺ قد شعر بدنو أجله، ولكن النفوس لا تعلم متى الآجال، ولا تعلم بأي أرض تموت، بأي بقعة من الأرض أن يقبض الله عز وجل نفس الإنسان، وهذه من الأصول التي يعتقدها أهل السنة، ويطرأ على ذلك جملة من الفروع ما يتعلق بالتطرق والاستشفاء وغير ذلك، هذه هي من الأمور المستحبة وليست مستحبة، وتفصيل العلماء في هذا، إما هذا ليس محل.

خلق الله للشياطين ووسوستهم

قال المصنف رحمه الله: [ويعتقدون أن الله سبحانه خلق الشياطين يوسوسون للآدميين، ويعتمدون استزلالهم ويترصدون لهم، قال الله عز وجل: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:121]، وأن الله يسلطهم على من يشاء، ويعصم من كيدهم ومكرهم من يشاء، قال الله عز وجل: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء:64]، ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل:99-100]].

وذلك أن الله عز وجل يقول: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:56]، فما من شيء إلا والله عز وجل خالقه، سبحانه وتعالى، ومن ذلك الجن خلقهم الله عز وجل يوسوسون لعباد الله سبحانه وتعالى، وخلقهم الله عز وجل لحكمة ليدخل في ذلك الابتلاء والامتحان، ويميز الله عز وجل أهل الصدق والإيمان، ولهذا نقول: إن أعداء الإنسان ثلاثة: عدوه الأول: نفسه الأمارة بالسوء، عدوه الثاني: شياطين الجن، عدوه الثالث: شياطين الإنس، وهؤلاء الثلاثة إذا توقع منهم الإنسان واحتاط وفق وسدد، وإذا أمن مكرهم ضل وزاغ بحسب أمنه وبحسب بعده عن الحق.

الإيمان بوجود السحر وحقيقته

قال المصنف رحمه الله: [ويشهدون أن في الدنيا سحراً وسحرة، إلا أنهم لا يضرون أحداً إلا بإذن الله عز وجل، ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة:102]].

السحر في ذاته يؤمن بوجوده وتحققه، وإنما سمي سحراً لخفائه، ولهذا يسمى السحر بالسحر لخفاء الإنسان فيه، فإذا أراد الإنسان أن يسير، أو أراد أن يستخفي عن غيره سار فيه، فسمي سحراً، وكذلك يسمى السحر وهو نحر المرأة لأنها تخفيه، ولهذا جاء في الصحيح عن عائشة عليها رضوان الله تقول: (توفي رسول الله ﷺ بين سحري ونحري)، وأريد بذلك هذا الموضع الذي يخفى، فما خفي يسمى سحراً أو سحراً، والسحر سمي بهذا من هذا الاشتقاق من جهة الأصل، وذلك لخفائه وعدم الإدراك للإنسان بحقيقته، ولكنه يرى ويلبس آثاره، يلبس آثار ذلك السحر عليه أو على غيره.

قال رحمه الله: [ومن سحر منهم واستعمل السحر، واعتقد أنه يضر أو ينفع بغير إذن الله تعالى فقد كفر].

وأهل السنة يؤمنون بالسحر ووجوده، ويؤمنون أيضاً بكون الساحر كافر باعتبار أنه لا يتحصل لأمثال هذه الأشياء إلا عبر وسائل وعتبات الكفر.

ويؤمنون بأن للسحر حقيقة، وأنه ليس تخيلات مجردة، له حقيقة، ليست تخيلات تطرأ على الإنسان، التخيلات التي تطرأ على الإنسان كحال الأحلام التي يراها الإنسان في المنام متناقضة وعجيبة، وليس لها تركيب في الكون مثلاً، فهذه شبيهة بمن يقول: إن السحر ليس له حقيقة، وإنما هو تخيلات، وعلى هذا ما يطرأ على الإنسان أن يأتيه في منامه مما يرآه، مما يصعب عليه تصديقه في الواقع أن هذا يكون من السحر، بل نقول: إن للسحر حقيقة، وله خيال.

قال رحمه الله: [وإذا وصف ما يكفر به استتيب، فإن تاب وإلا ضربت عنقه، وإذا وصف ما ليس بكفر، أو تكلم بما لا يفهم نهي عنه، فإن عاد عزر، وإن قال: السحر ليس بحرام، وأنا أعتقد إباحته وجب قتله؛ لأنه استباح ما أجمع المسلمون على تحريمه].

وقد يأتي في ذلك جملة من الأحاديث (حد الساحر ضربة بالسيف)، وهذا الحديث فيه ضعف، ولكن جاء عن عمر بن الخطاب وجاء عن حفصة ، وجاء عن ابن عمر أنهم قتلوا الساحر.

نكتفي بهذا القدر، وصلى الله وسلم على نبينا مُحَمَّد، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

الدرس الرابع عشر

هذه الأمة أمة متكاملة في شرائعها، فإلى جوار العبادات والعقائد المأمور بها، تجد أن الشريعة لم تهمل جانب الأخلاق والمعاملات بل اعتنت بها، وحثت أفرادها على ذلك، ومن ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصلة الأرحام وإفشاء السلام وإطعام الطعام، والرحمة بالفقراء والمساكين والأيتام، والاهتمام بأمور المسلمين. وجعلت الحب في الله والبغض فيه من أوثق عرى الدين.

حرمة كل مسكر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ. وصلى الله وسلم وبارك على نبينا مُحَمَّد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:

قال المصنف رحمه الله: [ويحرم أصحاب الحديث المسكر من الأشربة المتخذة من العنب أو الزبيب أو التمر أو العسل أو الذرة أو غير ذلك مما يسكر، يحرمون قليله وكثيره، وينجسونه ويوجبون به الحد].

وهذه من المسائل الفرعية على ما تقدم الإشارة إليها، أن بعض الأئمة يذكرون بعض المسائل الفرعية لوجود خلاف بعض الطوائف فيها، وهذه المسألة كمسألة الخمر وذلك لالتباسها بالنبيذ، وربما بعض الأهواء يريدون أن يصلوا إلى تحليل الخمر بواسطة استحلال النبيذ، فينظرون من استحلاله باعتبار أن الشارع أباحه باليوم واليومين، فيجعلون ذلك وسيلة لاستحلاله، فيذكر العلماء في بعض مسائل العقائد ما يتعلق بمسائل النبيذ، ويذكرون أن الله عز وجل حرم الخمر، وجعله من الكبائر، بل هو أم الخبائث، باعتبار ما يطرأ عليه يتبعه في ذلك الكبائر البقية، وقد جاء عن عبد الله بن عمرو بن العاص عليه رضوان الله قال:

(لئن أزني أحب إلي من أن أشرب الخمر، وذلك أني إن شربت الخمر تركت الصلاة، ومن ترك الصلاة فقد كفر)، يعني: أن الخمر يجر الإنسان للبقية، يجره للزنا، يجره لترك الصلاة، يجره للموبقات، ولهذا أصبح الخمر هو أم الكبائر، أو أم الخبائث؛ لأنه لا يأتي منفرداً، ولا يمكن أن يكون الإنسان يشرب الخمر، ويكون ذنبه الوحيد إلا وثمة كبائر مقترنة معه.

أما غيرها من الكبائر فقد يوجد لدى الإنسان كبيرة من الكبائر ويبتلى بها، ولا يشاركها غيرها، بخلاف شرب الخمر.

قراءة الفاتحة في الصلاة

قال المصنف رحمه الله: [ويرون المسارعة إلى أداء الصلوات، وإقامتها في أوائل الأوقات أفضل من تأخيرها إلى آخر الأوقات، ويوجبون قراءة فاتحة الكتاب خلف الإمام].

وهنا في مسألة القراءة قراءة الفاتحة والجهر بها في الصلاة الجهرية باعتبار أنها علم من أعلام المسائل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن يقرأ أيضاً المأموم خلف الإمام في الصلاة السرية، أما الجهرية فهذا من مواضع الخلاف حتى عند السكت في القراءة الجهرية يقرأ المأموم ذلك، وهي من مواضع الخلاف، والأرجح في ذلك أنه لا يقرأ؛ لعموم قول الله عز وجل: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا ﴾ [الأعراف:204]، فأمر الله عز وجل بالإنصات، وقد جاء هذا عن مجاهد بن جبر ، والمراد بذلك هو أنها نزلت في الصلاة.

قال رحمه الله: [ويأمرون بإتمام الركوع والسجود حتماً واجباً، ويعدون إتمام الركوع والسجود بالطمأنينة فيهما، والارتفاع من الركوع والانتصاب منه والطمأنينة فيه، وكذلك الارتفاع من السجود، والجلوس بين السجدتين مطمئنين فيه من أركان الصلاة التي لا تصح إلا بها].

كأن المصنف في هذه المسائل التي أوردها، كأنه من الرد على مذهب الكوفيين أهل الرأي، وذلك أن هذه المسائل اشتهر بالمخالفة فيها أهل الكوفة في مسألة النبيذ ومسألة الطمأنينة في الصلاة، ومسألة قراءة الفاتحة.

الوصية ببعض أعمال البر والخير

قال المصنف رحمه الله: [ويتواصون بقيام الليل للصلاة بعد المنام، وبصلة الأرحام وإفشاء السلام وإطعام الطعام، والرحمة على الفقراء والمساكين والأيتام، والاهتمام بأمور المسلمين، والتعفف في المأكل والمشرب والمنكح والملبس].

هذه المسائل التي يريدها المصنف رحمه الله في مسائل أعمال البر والخير من الإنفاق والصدقة وحث الناس وحب الخير لهم، واستصلاحهم ونحو ذلك، هذه أيضاً من الإسلام، ولهذا النبي ﷺ يقول كما جاء في الصحيح: (الإيمان بضع وسبعون أو ستون شعبة، أعلاها لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق)، فهو يبين أن هذه أيضاً من شعب الإيمان، فتزيد من إيمان

الإنسان إذا زادت، وتنقص من إيمان الإنسان إذا نقصت، وإيمان الإنسان حسب المكاثرة بأمور الطاعات يكثر ويقوى في ذلك إيمانه.

وكذلك فيه إشارة إلى أن الدين ليس هو مسائل مجردة علمية، بل هو عمل أيضاً، فأشار إلى مسائل الصلاة وإقامتها، وكذلك ما يتعلق بأمور الطاعات ونحو ذلك، أنه ينبغي للإنسان ألا يهملها، ورسول الله ﷺ كان في مكة يدعو الناس إلى التوحيد، وفي دعوته إلى التوحيد يحث الناس على العفاف والصدق، وأداء الأمانة، وإكرام الضيف، والإحسان إلى الجار، وغير ذلك، ولما سئل أبو سفيان عن رسول الله ﷺ قيل له: (إلى ماذا يدعوكم؟ قال: يدعونا إلى العفاف، وأداء الأمانة، والصدق).

فهذه الأمور التي ينبغي للإنسان أنه يخرج نفسه منها، سواءً كان مصلحاً عاماً أو داعية إلى الله عز وجل أو غير ذلك أن يجعل دعوته ليست هي مسائل علمية مجردة في أحكام الصلاة والخلاف في ذلك هذه أمور مهمة جداً، لكن لا يهمل الجوانب القلبية من التعاملات من جهة الدعوة إلى الصدق والأمانة وتعليم الناس وتربيتهم على الحق ونحو ذلك، أداء الأمانة، إكرام الضيف، الإحسان إلى الناس، الصبر على أذاهم وإطعام الطعام، وبذل السلام وغير ذلك، هذه أمور حسنة تدعو أيضاً إلى الفطرة الصحيحة، وكذلك تدفع دعوى أهل الباطل على الإنسان أنه له مآرب أخرى في دعوته وقوله.

ورسول الله ﷺ أفحم أهل الشرك بمكة بإغلاق منافذ دعوى الكذب عليه، فكان يدعو إلى الصدق ويطبقه، ويدعو إلى أداء الأمانة ويطبقه، وإلى إطعام الطعام ويطبقه، فلا يدعو إلى العقيدة المجردة بالدعوة إليها، وإن كانت الدعوة إليها هي أصل الرسالة، لكن ينبغي ألا يخلي دعوته أيضاً من تلك الجوانب، حتى لا يوجد عليه مدخل باتهام النفس واتهام الديانة أو المكر والخديعة بالنفس.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قال المصنف رحمه الله: [والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والبدار إلى فعل الخيرات أجمع، واتقاء سوء عاقبة الطمع، ويتوافون بالحق والصبر].

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو أصل الخيرية لهذه الأمة؛ لأنه لا يمكن أن تقوم الأمة إلا بالأمر بالمعروف، التوحيد لا يقوم إلا بالأمر به، الصلاة لا تقوم إلا بالأمر بها، الشرك لا يدفع إلا بالنهي عنه، وترك الصلاة لا يدفع إلا بالنهي عنه، وهكذا، كل ما علا العمل لا يمكن أن يستقر إلا بالأمر به والنهي عن ضده، ولهذا يقول الله جل وعلا: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران:110]، وقول الله عز وجل: ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ ﴾ [آل عمران:104].

ولهذا نقول: إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو أصل الدين، لماذا؟ لأن المعروف إذا أتاك لا بد أن يأتيك بواسطة الأمر،

الوحي جاء إلى رسول الله ﷺ، ولو لم يكن آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر لبقي الأمر لازماً عليه، ولكنه حينما يدعو الناس إلى الخير كان آمراً بالمعروف، وينهاهم عن ضده، ينهاهم عن المنكر.

ونقول: إن أبواب الخير مراتب، كذلك أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مراتب متعددة.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سهم، وسهام الإسلام عظيمة، بل جعله الله ركناً من أركان الإسلام كما جاء في حديث حذيفة بن اليمان عن رسول الله ﷺ قال: (الإيمان ثمانية أسهم، وذكر منها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر).

المحبة في الدين

قال المصنف رحمه الله: [ويتحابون في الدين، ويتباغضون فيه، ويتقون الجدال في الله والخصومات فيه].

الحب في الله والبغض في الله

ويذكرون المحبة في الدين، أي: في الله، والبغض في الله، وهذا أوثق عرى الإيمان، أي: أن الإنسان لا يغلب حظ دنياه على حظ دينه وحظ الله عز وجل.

أما ما يوجد في قلب الإنسان من الميل أو الإعجاب ببعض ما لا يرضاه الله سبحانه وتعالى قد يوجد، ولكن ليس للإنسان أن يعمل به، والله عز وجل يقول في كتابه العظيم: ﴿ وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ﴾ [البقرة:221]، والخطاب للمؤمنين، فأثبت أنه فيه إعجاب قلبي، ولكن يجب عليك ألا تعمل بهذا الإعجاب القلبي.

قد يوجد كره قلبي في نفس في ذات الإنسان لبعض الأمور والتكاليف الشاقة، وذلك في قول الله عز وجل: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ﴾ [البقرة:216]، يكره الإنسان القتل، ويكره فقد المال، ومفارقة الأهل ونحو ذلك، لكن ليس له أن يقول: أنا أكره القتال، أنا أكره هذا التشريع أو غير ذلك.

ولهذا نقول: إن ما يوجد في نفس الإنسان مما يستثقل معه التكاليف ينبغي ألا يجعل ذلك عقيدة، فهو نوع من الابتلاء والاختبار، والنبي ﷺ يقول كما جاء في الصحيح: (وإسباغ الوضوء على المكاره)، يعني: الإنسان ربما يستثقل في حال الشتاء أن يتوضأ في البرد ونحو ذلك، هناك مشقة أن يتوضأ لكل صلاة وهو على طهارة، يجد في ذلك مشقة، إذا اغتسل وهو كاره فذلك لمرضاة الله سبحانه وتعالى تجد أن هذا من أعلى الأعمال عند الله سبحانه وتعالى.

فنقول: يحب في الله ويبغض في الله، ولو كان ذلك على حساب ما يجده في نفسه، يميل إلى إعجاب بهذا وحبه، وكذلك الميل له، ولو كان كافراً يقدمه على مسلم هذا ضعف في إيمان الإنسان، وربما زوال له.

تقديم الكافر الصادق الأمين على المسلم الظالم

قد يقول قائل: لماذا لا أقدم الكافر إذا كان صادقاً أميناً عادلاً محسناً مكرماً رحيماً أقدمه على المسلم الظالم الباغي؟

نقول: هذه نظرة مادية، تقدم الإحسان إليك في الدنيا على الظلم في حق الله، وهذا يقع عند الماديين الذين يتعلقون بالمادة، ويتعلقون بالدنيا، والإنسان إذا أحسن إليه شخص، وتعلم أن هذا الشخص قد أساء إلى والدك؛ ضربه وآذاه وسرق ماله، ويسب أباك في المجالس ونحو ذلك، ولكنه معك محسن ومنصف، ويقوم بالعدل معك في البيع والشراء، ويهديك الهدايا والعطايا أتحبه أو لا تحبه؟ لا تحبه؛ لماذا؟ مع أنه ما ضرك في ذلك، لكنه ضر أباك، فإذا كان انفصال بينك وبين أبيك وعدم محبة بينك وبين أبيك وضعف محبة لأبيك ظاهرة حينئذٍ لا يؤثر ذلك الأمر، وتحب هذا الرجل لو آذى أباك.

ولهذا نقول: إن الإنسان الذي يقدم الإحسان إليه على عدم العدل مع الله لديه انفصال بينه وبين ربه سبحانه وتعالى، وعليه أن يوثق إيمانه بالله حتى تقوى لديه النظرة كحال الصلة بين الأب وبين أبيه؛ لا يحب أن يعقد معه إذا أساء عليه؛ فيرى أن الإساءة لأبيه ظلم له، وكذلك الظلم في حق الله سبحانه وتعالى وعدم العدل معه إساءة له وظلم لله، وتربطه بينه وبين الله عز وجل من المحبة لله ومحبة ما يحبه الله، ولو عدل معك وأحسن معك وأكرمك تغضبه لما فيه من عدم العدل مع الله جل وعلا، ولهذا كان الحب في الله والبغض في الله من أوثق عرى الإيمان.

وهذا يظهر لكثير من الناس الذين قد يعجبون بكافر أو بشخص من إنصافه وعدله، إتقاناً وإحساناً بعمله، لينه أو لأخلاقه، وهو ظالم في حق الله سبحانه وتعالى، فأثبت الله عز وجل أنه لا يؤاخذ الإنسان على ما يجول في قلبه من ميل وإعجاب ونحو ذلك، لكن يجب عليه ألا يعمل بذلك، ﴿ وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ﴾ [البقرة:221]، ﴿ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ [البقرة:221]، ربط المسألة بالآخرة، وليست المسألة مسألة دنيوية.

من لوازم محبة الله

قال رحمه الله: [ويجانبون أهل البدع والضلالات، ويعادون أصحاب الأهواء والجهالات، ويقتدون بالنبي ﷺ].

وهذا من لوازم المحبة، فإذا أحب الإنسان الله، وما يحبه الله أحب الطاعات، ولزم من ذلك أن يكره المعاصي، وأن يكره أهل المعاصي، ويحب الطاعات، ويحب أهل الطاعة، والمحبة تتجزأ، وأن يجتمع في الإنسان حب وكره، تحبه لما فيه من خير، وتكرهه لما فيه من شر، والإيمان يزيد، فإن زاد زادت المحبة، والمعصية تزيد، فإن زادت زاد الحب والكره وضعف في ذلك المحبة.

ولهذا كما أننا نقول: إن الإيمان يزيد كذلك الكفر يزيد، ولهذا الله عز وجل يقول: ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ﴾ [التوبة:37]، الكفر يزيد يتمايل، فيه زيادة وفيه نقصان، وإن كان كله داخل في دائرة الكفر، وصاحبه مخلد في النار، على

خلاف مسألة الشرك والكفر الأصغر، فإن صاحبه لا يخلد بذلك في النار، كذلك مسألة الإيمان فإن المؤمن في ذلك يزيد إيمانه وينقص إيمانه بحسب قربه وطاعته من الله سبحانه وتعالى، وقد يزول إيمانه بحسب وقوعه بشيء من المكفرات.

الاقتداء بالنبي والصحابة والصالحين

قال المصنف رحمه الله: [ويقتدون بالنبي ﷺ وبأصحابه الذين هم كالنجوم، ففيهم اقتدوا واهتدوا، كما كان رسول الله ﷺ يقول فيهم، ويقتدون بالسلف الصالحين من أئمة الدين وعلماء المسلمين، ويتمسكون بما كانوا به متمسكين من الدين المتين والحق المبين].

والصحابة عليهم رضوان الله على مراتب من جهة الاقتداء، ليسوا على مرتبة واحدة، أقربهم من النبي عليه الصلاة والسلام منزلة وفضلاً هم أكثرهم فقهاً؛ لأنه لازم القرب المنزلة والفضل أنه استفاد من النبي فقهاً وعلماً، ولهذا لما كان أبو بكر أكثر الصحابة ملازمة للنبي وقرباً منه أعلم الناس بما يريده النبي وما يميل إليه، ولهذا يقول النبي عليه الصلاة والسلام كما جاء في السنن من حديث العرباض : (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ)، هؤلاء الخلفاء الراشدين الأربعة، بل يكاد يكون الأمر إجماعاً؛ أنه إذا اجتمع الخلفاء الراشدون الأربعة على مسألة من المسائل أنه لا يجوز الخروج عنها، وأنه قطعاً أنه هدي النبي ﷺ، إذا اجتمعوا على هذا الأمر، وإلا إذا اختلفوا فالأمر في ذلك الشأن فالغالب أن ما يقوله أبو بكر و عمر أنه هو الأقرب إلى الحق والصواب، ويقول النبي ﷺ: (اقتدوا باللذين من بعدي أبو بكر و عمر)، ويقول أيضاً عليه الصلاة والسلام في تفضيل الصحابة وأنهم أهل أمان للأمة كما جاء في مسلم من حديث أبي موسى قال: (النجوم أمنة للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمنة لأصحابي، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون).

والعلماء الذين ظهر فيهم الاقتداء برسول الله ﷺ هم علامات، ومواضع للدلالة، وجسور يصل عليهم الإنسان إلى الحق، وليسوا هم الحق بذاته؛ لأنه لو قلنا أنهم هم الحق بذاتهم لكانوا معصومين، ولا عصمة إلا لرسول الله ﷺ، فإذا كانت ليست للصحابة فهي لمن جاء بعدهم أيضاً من باب من فيها من باب أولى، ولكن نثبت لهم الفضل المجمل، كما قال النبي ﷺ كما جاء في الصحيح من حديث عمران: (خير الناس قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم)، فأفضل القرون هي هذه القرون الثلاثة من جهة الفضل والمنزلة، فيأخذ الإنسان منهم بهديهم، ويأخذ بأحوالهم، فأقرب الأمم وتلك القرون هم أهل المدينة، أقرب للنبي عليه الصلاة والسلام، باعتبار أن الموضع للنبي عليه الصلاة والسلام وفقهاً، ونقلوا عمله، وكذلك أيضاً عايشوه وعرفوا حركات النبي وسكناته ومأكله ومشربه وعبادته، ظهوره وخفائه عليه الصلاة والسلام، ما يحب وما يكره، وغير ذلك مما لا يدركه الإنسان إذا وجده في العصور المدونة.

ثم أهل مكة، فإنهم يلونهم في معرفة هدي النبي عليه الصلاة والسلام، وذلك لأنهم بعد ذلك بالمعاشرة والقرب، ثم بعد ذلك يأتي

بلدان الإسلام ما يتعلق بالشام، والعراق، واليمن، ومصر وغيرها من بلدان الإسلام.

بغض أهل البدع

قال المصنف رحمه الله: [ويبغضون أهل البدع الذين أحدثوا في الدين ما ليس منه، ولا يحبونهم ولا يصحبونهم، ولا يسمعون كلامهم، ولا يجالسونهم، ولا يجادلونهم في الدين، ولا يناظرونهم].

تعريف البدعة وأقسامها

وهذا هو المقصود من هجر أهل البدع.

والبدع في ذلك على أنواع: بدع مغلظة، وبدع مخففة، وتقسم على بدع المكفرة، وبدع غير مكفرة، وهي تتباين، وتقسم أيضاً إلى بدع أصلية وبدع إضافية على أقسام في ذلك.

والبدعة المراد بذلك هي الإحداث في دين الله عز وجل ما ليس منه، وهي تتضمن ضمناً اتهام الدين بالنقص، بلسان الحال، وإن لم يقل الإنسان ذلك بلسانه باعتبار أن الله عز وجل أتم الدين، وهي أقرب من البدعة الأصلية من البدعة الإضافية، ويحذر الإنسان من ذلك لماذا؟ لأن في ذلك إضافة وإدخالاً في دين الله عز وجل ما ليس منه.

العلة من التحذير من القرب من أهل البدع

السلف إنما يحذرون من القرب من أهل البدع لماذا؟ حتى لا يكثر السواد.

وقد يقول: أريد أن نأخذ الحق منه، أو لديه علم أريد أن أستفيد به، إذا أتيت أنت وأتى فلان، وأتى فلان، وعشرة وعشرون ونحو ذلك، العوام لا يميزون ما يحسن هذا، وما لا يحسن، فإذا كنت تقتدي به في باب من الأبواب اقتدوا به في باب آخر، فكنت سبباً في نشئ أقواله وإشاعتها ونحو ذلك.

ولهذا نقول: إن القرب من أهل البدع وإشهارهم وإظهارهم المخالفين لكلام الله وكلام رسول الله ﷺ الذين يقررون تلك المخالفة ديناً أن ذلك مخالف لنهج الحق من هدي رسول الله ﷺ، وكذلك أصحابه ومن جاء بعدهم.

قال رحمه الله: [ويرون صون آذانهم عن سماع أباطيلهم التي إذا مرت بالآذان وقرت في القلوب ضرت، وجرت إليها الوساوس والخطرات الفاسدة ما جرت، وفيه أنزل الله عز وجل: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا ﴾ [الأنعام:68]].

وهذا أمر ملموس أن الإنسان يأتيه الحمية للدين، إذا سمع بدعة، ولكنه إذا قرب من صاحبها لان وهان معهم، لماذا؟ لأن اللين يضعف القلب، والإحسان يضعف النفس وينسبها، فحينئذٍ يغطي تلك المساوئ على حساب الحق، فكأنه قتل نفسه،

ولهذا يكون الإنسان متجرداً إذا أبعد، ومنصفاً إذا فارق، فارق الشيء نظر إليه عن بعد وأنصفه، فلا يقدم حظوظ النفس، فإذا أتيت إلى مبتدع وأكرمك وأحسن إليك، وأعطاك ووهبك، وابتسم في وجهك، ولان معك ونحو ذلك حينئذٍ تنظر إلى بدعته بخلاف من كان بعيداً، ولهذا كلما كان الإنسان بعيداً كان أفضل في تقييم البدعة والرد عليها وتقييمها.

علامات أهل البدع

قال المصنف رحمه الله: [وعلامات البدع على أهلها ظاهرة بادية، وأظهر آياتهم وعلاماتهم شدة معاداتهم لحملة أخبار النبي ﷺ، واحتقارهم لهم، وتسميتهم إياهم حشوية وجهلة وظاهرية، ومشبهة، اعتقاداً منهم في أخبار الرسول ﷺ أنها بمعزل عن العلم، وأن العلم ما يلقيه الشيطان إليهم من نتاج عقولهم الفاسدة، ووساوس صدورهم المظلمة، وهواجس قلوبهم الخالية عن الخير العاطلة، وحججهم بل شبههم الداحضة الباطلة، أولئك الذين لعنهم الله، فأصمهم وأعمى أبصارهم، قال عز وجل: ﴿ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ [الحج:18].

سمعت الحاكم أبا عبد الله الحافظ يقول: سمعت أبا علي الحسين بن علي الحافظ يقول: سمعت جعفر بن أحمد بن مناف الواسطي يقول: أحمد بن سنان القطاف يقول: ليس في الدنيا مبتدع إلا وهو يبغض أهل الحديث، فإذا ابتدع الرجل نزعت حلاوة الحديث من قلبه].

قد جعل الله عز وجل لأهل سنة رسول الله ﷺ من المزية والمنزلة ما هو معروف ومستفيض، جعل الله عز وجل لهم من النضارة والقبول في الأرض (نضر الله من سمع مقالتي فوعاها) يعني: حفظها وضبطها وأدرك مراد رسول الله ﷺ منها بفهم مرادهم، وجمع الوارد عنه في ذلك الباب، وفهم مراد الصحابة في ذلك، وفهم أقوالهم، وتقريب الحق للناس على هذا النحو، هم أحب الناس إلى رسول الله ﷺ، وأحب الناس إلى الله؛ لأنهم أحبوا الله فأحبوا رسوله، وأحبوا رسول الله ﷺ فاتبعوا قوله وفعله وهديه واستمسكوا بذلك؛ لأنهم أبصر الناس بأقواله وأفعاله، لم ينظروا إلى الأذواق والحس والفهم والنظر والاستحسان العقلي المجرد، بل نظروا إلى الأدلة، فما استحسنه الشرع هو الحسن، وما استقبحه الشرع فهو القبيح، واتهموا أنفسهم عند ورود المخالفة، واتهموا أذواقهم وحسهم، واتهموا الرأي في دين الله سبحانه وتعالى.

قال رحمه الله: [وسمعت الحاكم يقول: سمعت أبا الحسن محمد بن أحمد الحنظلي ببغداد يقول: سمعت محمد بن إسماعيل الترمذي يقول: كنت أنا و أحمد بن الحسن الترمذي عند إمام الدين أبي عبد الله أحمد بن حنبل ، فقال له أحمد بن الحسن : يا أبا عبد الله ! ذكروا لابن أبي قتيلة بمكة أصحاب الحديث فقال: أصحاب الحديث قوم سوء، فقام أحمد بن حنبل وهو ينفض ثوبه ويقول: زنديق.. زنديق.. زنديق، حتى دخل البيت].

وذلك لأنه قال: أصحاب الحديث، فعمم في ذلك، فدل على أن الكراهة إنما هي لما يحملونه؛ لأنهم لا يشتركون في شيء إلا في الحديث، يختلفون في ألوانهم منهم الأبيض ومنهم الأحمر، ومنهم الأسود، ومنهم الكريم ومنهم اللئيم، ومنهم الضعيف،

ومنهم القوي، ومنهم الطويل، ومنهم القصير، ومنهم العربي ومنهم الأعجمي، لا يتفقون على شيء، لا يجتمعون إلا على الحديث، فحينما أطلق مثل ذلك الوصف بأنهم قوم سوء، فإنه أراد بذلك ما هم عليه من التبصر في سنة النبي عليه الصلاة والسلام.

والزندقة هي الخروج عن الحق، وأصل هذه اللفظة فارسية، كانت في كسرى ، وهم أتباع ديصان و مزدك ، وقد قتل أتباعهم كسرى ، فكانوا منبوذين حتى عند فارس، وذلك لأنهم خرجوا عن منهج فارس في اعتقاد الإلهين ونحو ذلك، لا إلى اعتقاد آله واحد، وإنما إلى ضرب من ضروب الجحود، جحود الخالق أو غير ذلك.

ويقول المتنبي في بيانه بطلان تلك العقيدة الذين يقولون بوجود خالقين في الكون، أو النور الذي يخلق الخير، والظلام الذي يخلق الشر، يقول:

وكم لظلام الليل عندك من يد تخبر أن المانوية تكذب

يعني: أن ظلام الليل في لقاء المحبوبين والعشاق وغير ذلك أن الظلام كله ملتقى العشاق في الليل، وأننا في النهار لا يلتقي في ذلك العشاق؛ لأنه يراهم الناس، فعلى هذا استدل ببطلان العقيدة.

قال رحمه الله: [وسمعت الحاكم أبا عبد الله يقول: سمعت أبا نصر أحمد بن سهل الفقيه ببخارى يقول: سمعت أبا نصر بن سلام الفقيه يقول: ليس شيء أثقل على أهل الإلحاد ولا أبغض إليهم من سماع الحديث وروايته بإسناده.

وسمعت الحاكم يقول: سمعت الشيخ أبا بكر أحمد بن إسحاق بن أيوب الفقيه وهو يناظر رجلاً، فقال الشيخ أبو بكر : حدثنا فلان، فقال له الرجل: دعنا من حدثنا! إلى متى حدثنا؟ فقال الشيخ له: قم يا كافر، فلا يحل لك أن تدخل داري بعد هذا أبداً، ثم التفت إلينا وقال: ما قلت لأحد ما تدخل داري إلا هذا].

وما صد أحد عن السنة وكره أهلها إلا وآل أمره إلى زندقة، وهذا أمر ظاهر، ومن سبر أحوال الناس فإنهم وإن ابتدءوا بشيء من الأعمال المخالفة إلا أنهم يبتدءون بالاعتراض بالشبر ثم ينتهون بالكفر والعياذ بالله.

قال رحمه الله: [وسمعت الأستاذ أبا منصور محمد بن عبد الله بن حماد العالم الزاهد يقول: سمعت أبا القاسم جعفر بن أحمد المقري الرازي يقول: قرأ علي عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي وأنا أسمع: سمعت أبي يقول: عني به الإمام في بلده أباه أبا حاتم محمد بن إدريس الحنظلي الرازي يقول: علامة أهل البدع الوقيعة في أهل الأثر، وعلامة الزنادقة تسميتهم أهل الأثر حشوية، يريدون بذلك إبطال الأثر، وعلامة القدرية تسميتهم أهل السنة مجبرة، وعلامة الجهمية تسميتهم أهل السنة مشبهة، وعلامة الرافضة تسميتهم أهل الأثر نابتة وناصبة].

القدرية هم مجوس هذه الأمة، ويسمون بالمجوس؛ لأنهم فيهم شبه بعقيدة المجوس الذين يؤمنون بوجود خالقين، والقدرية يقولون: إن الأمر أنف، يعني: مستأنف، لا يوجد قدر، والله لم يقدر شيئاً، وأن الإنسان هو الذي يوجد هذه الأشياء والأفعال، وعلى هذا يلزم من ذلك أن المخلوق يخلق، والخالق يخلق أيضاً، فإذا كان الإنسان يخلق أفعالاً فردت عن المخلوق، فهذا إيمان بوجود خالقين كحال المجوس الذين يؤمنون بوجود خالقين: الظلام الذي يخلق الشر، والنور الذي يخلق الخير.

قال رحمه الله: [قلت: وكل ذلك عصبية، ولا يلحق أهل السنة إلا اسم واحد وهو أصحاب الحديث، قلت: أنا رأيت أهل البدع في هذه الأسماء التي لقبوا].

فإذا لحق النبي ﷺ من أوصاف الذم بالسحر، والكذب، والشعر، والكهانة، وغير ذلك، ألا يلحق أتباع النبي عليه الصلاة والسلام من مثل ذلك أو ما دونه؟ نعم، ولهذا لحق النبي عليه الصلاة والسلام تلك الألفاظ الشنيعة؛ حتى يعلم الإنسان أن ما لحقه من أذى وأوصاف هي دون ذلك، ولا ينبغي له أن ينظر الكرامة، وأن يطلب الرضا أو السلامة، ولم تتحقق لرسول الله ﷺ.

فالله عز وجل أنزل على نبيه عليه الصلاة والسلام من الشدائد واللأواء، وثبته الله عز وجل حتى يعلم أتباعه في ذلك صبروا، وأنه ليسوا بأفضل على الله، فإذا قدر الله على رسول الله ﷺ وهو سيد ولد آدم عليه الصلاة والسلام، وجاء في فضله ومناقبه قدر لا يحصى من ذلك.

ولهذا نقول: إن الإنسان إذا أصيب بمصيبة، أو نزل به في سبيل الحق نازلة أو عير أو أصيب، أو لقب بشيء من ألقاب السوء فليتذكر ما كان عليه رسول الله ﷺ؛ لأن سلامة الدنيا ليست هي الكرامة، وإنما سلامة الدين والآخرة هي الكرامة، والله عز وجل حينما عاهد عباده على اتباع الحق ما ضمن لهم سلامة الدنيا، ولكن ضمن لهم سلامة الآخرة، والله عز وجل يقدر على نبيه من الأذى والشدائد وهو يرى ويسمع، ويقدر له من الشدة وضيق النفس.

والنبي ﷺ أشد ما جاءه هل هو الضيق البدني أو الضيق النفسي؟ الضيق النفسي، وقد جاء في الصحيح من حديث عائشة عليها رضوان الله، قالت: (قلت: يا رسول الله! هل أتى عليك مثل أحد). و عائشة عليها رضوان الله صغيرة، ولم تدرك كامل الإدراك ما أدركته في المدينة من قتال النبي عليه الصلاة والسلام، وخاصة غزوة أحد التي شج فيها رسول الله ﷺ، وكسرت رباعيته، فذكرت ذلك، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: (لقد وجدت من قومك يا عائشة ما وجدت، وإن أشد ما وجدت حينما عرضت نفسي على ابن عبد ياليل) وذلك في الطائف من أهل ثقيف، قال النبي عليه الصلاة والسلام: (فطردوني، فخرجت مهموماً على وجهي، فلم أفق إلا وأنا بقرن الثعالب)، وقرن الثعالب يبعد عن الطائف ستة وأربعين كيلو، والإنسان يخرج من بيته مهموماً لكنه يفيق بعد أمتار، إما لهم أو خلاف، أو مشكلة نفسية مالية أو نحو ذلك، لكن يفيق في نهاية الطريق، أو إذا وصل إلى موضع معين، ولكن ستة وأربعين كيلو! يقول النبي عليه الصلاة والسلام: (ولم أفق

إلا وأنا بقرن الثعالب).

الذي أخرجه من الطائف وهو يرى أنه بهذا الضيق لماذا لم يبادره بالتسكين، وتركه يتألم ستة وأربعين كيلو وهو يراه ويسمع، لماذا؟ لأن سلامة الدنيا ليست مطلباً، المطلوب هو سلامة الآخرة.

يقول النبي عليه الصلاة والسلام: (لم أفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فنظرت فإذا بياض فإذا هو جبريل، فيقول: إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك)، بعد ستة وأربعين كيلو. وهذه المرحلة والفترة الذي ربما الإنسان ينظر إليها بمنظار عاطفي، فالأم والأب حينما يرى ابنه حزين وهو يريد أن يخرج من المنزل وذهب يريد أن يتداركه حتى لا يتألم لربع ساعة أو نصف ساعة، يريد أن يرضيه؛ حتى لا يستمر معه الألم النفسي، هذا من ضعف البشر، لكن الله عز وجل يرى ويسمع، ويعلم ما في نفس النبي عليه الصلاة والسلام، فتركه على هذا الأمر كله ستة وأربعين كيلو.

فقال: (قد سمع الله عز وجل قول قومك لك، وإن الله بعث إليك ملك الجبال، ويستأذنك من أن يطبق عليهم الأخشبين)، هل النبي عليه الصلاة والسلام أشبع نزوته ورغبته النفسية بذاته؟ بحيث يظهر انتصاره أم أراد الحق؟ قال: (لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك معه شيئاً).

ولهذا نقول: الداعية إلى الله المصلح المتبع للحق لا يبحث عن انتصارات ذاتية، وإنما يريد من ذلك إحقاق الحق، ولهذا يوسف عليه السلام بقي في السجن بضع سنين وخرج، وما طلب تصفية الحسابات والأمور ونحو ذلك؛ لماذا؟ لأن الأمة انشغلت بمراقبة ذلك، وما جاء ذكر السجن على لسانه إلا بالحمد، ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ﴾ [يوسف:100]، وذلك بأنه رأى حاجة الأمة في ذلك، ولما رأى حاجة الناس واضطراب حال الناس من جهة الاقتصاد، ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف:55]، جعله على ذلك، قدم، فحفظ الذين ظلموا، وحفظ الناس فيهم، لماذا؟ لأنه لا يستطيع أن يفسد هؤلاء عن هؤلاء إلا بفساد عام يعم الناس.

ولهذا المصلح الداعي لله عز وجل يهمه صلاح العامة لا صلاح نفسه وذاته، صلاح العامة، لا تصفية الحسابات، وكذلك إشباع نزوات النفس ونحو هذا، ومن نظر إلى هدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وجد أن أمرهم على ذلك، ويتباينون في ذلك عزماً وقوة وصبراً.

قال رحمه الله: [قلت: أنا رأيت أهل البدع في هذه الأسماء التي لقبوا بها أهل السنة سلكوا معهم مسلك المشركين مع رسول الله ﷺ، فإنهم اقتسموا القول فيه، فسماه بعضهم ساحراً وبعضهم كاهناً، وبعضهم شاعراً، وبعضهم مجنوناً، وبعضهم مفتوناً، وبعضهم مفترياً مختلفاً كذاباً، وكان النبي ﷺ من تلك المعائب بعيداً بريئاً، ولم يكن إلا رسولاً مصطفى نبياً، قال الله عز وجل: ﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء:48]، كذلك المبتدعة –خذلهم الله– اقتسموا القول في حملة أخباره، ونقلة آثاره، ورواة أحاديثه، المقتدين بسنته، فسماهم بعضهم حشوية، وبعضهم مشبهة،

وبعضهم نابتة، وبعضهم ناصبة، وبعضهم جبرية، وأصحاب الحديث عصابة من هذه المعايب البرية نقية زكية تقية، وليسوا إلا أهل السنة المضية والسيرة المرضية والسبل السوية، والحجج البالغة القوية، قد وفقهم الله ﷻ لاتباع كتابه ووحيه وخطابه، والاقتداء برسوله ﷺ في أخباره التي أمر فيها أمته بالمعروف من القول والعمل، وزجرهم فيها عن المنكر منها، وأعانهم على التمسك بسيرته والاهتداء بملازمة سننه، وشرح صدورهم لمحبته، ومحبة أئمة شريعته، وعلماء أمته، ومن أحب قوماً فهو منهم يوم القيامة بحكم رسول الله ﷺ: (المرء مع من أحب)].

من علامات أهل السنة

قال المصنف رحمه الله: [وإحدى علامات أهل السنة حبهم لأئمة السنة وعلمائها، وأنصارها وأوليائها، وبغضهم لأئمة البدع، الذين يدعون إلى النار، ويدلون أصحابهم على دار البوار، وقد زين الله سبحانه قلوب أهل السنة ونورها بحب علماء السنة فضلاً منه ﷻ ومنّة.

أخبرنا الحاكم أبو عبد الله الحافظ أسكنه الله وإيانا الجنة، حدثنا مُحَمَّد بن إبراهيم بن الفضل المزكي، حدثنا أحمد بن سلمة، قرأ علينا أبو رجاء قتيبة بن سعيد كتاب الإيمان له، فكان في آخره: فإذا رأيت الرجل يحب سفيان الثوري و مالك بن أنس و الأوزاعي و شعبة و ابن المبارك و أبا الأحوص و شريكاً و وكيعاً و يحيى بن سعيد و عبد الرحمن بن مهدي ، فاعلم أنه صاحب سنة].

وهذه من العلامات والأمارات التي يعرف بها أتباع الحق عن غيرهم، إذا كرهوا مجموعة من الحق فهم على باطل؛ ولأنهم ما كرهوا إلا ما اشتركوا فيه، ولكن إذا كان ثمة خصومة بين فرد وفرد، أو كل فرد بعينه مع عدم التعميم، فهذا أمر لا يكون علامة في الغالب.

قال رحمه الله: [قال أحمد بن سلمة رحمه الله: فألحقت بخطي تحته و يحيى بن يحيى و أحمد بن حنبل و إسحاق بن راهويه ، فلما انتهينا إلى هذا الموضع نظر إلينا أهل نيسابور، وقال: هؤلاء القوم يتعصبون ليحيى بن يحيى فقلنا له: يا أبا رجاء ! ما يحيى بن يحيى ؟ فقال: رجل صالح إمام المسلمين، و إسحاق بن إبراهيم إمام ، و أحمد بن حنبل أكبر مما سميتهم كلهم، وأنا ألحقت بهؤلاء الذين ذكرهم قتيبة رحمه الله أن من أحبهم فهو صاحب سنة من أئمة أهل الحديث الذين بهم يقتدون، وبهديهم يهتدون، ومن جملتهم ومتبعيهم وشيعتهم أنفسهم يعدون، وفي اتباعهم آثارهم يجدون جماعة آخرين، منهم مُحَمَّد بن إدريس الشافعي المطلبي الإمام المقدم، والسيد المعظم، العظيم الملة على أهل الإسناد والسنة، الموفق الملقن، الملهم المسدد، الذي عمل في دين الله وسنة رسوله ﷺ بين النصر لهما والذب عنهما ما لم يعمله أحد من علماء عصره ومن بعدهم، ومنهم الذين كانوا قبل الشافعي رحمه الله كسعيد بن جبير و الزهري و الشعبي و التيمي ، ومن بعدهم كالليث بن سعد و الأوزاعي و الثوري و سفيان بن عيينة الهلالي ، و حماد بن سلمة و حماد بن زيد و يونس بن عبيد و أيوب و ابن

عوف ونظرائهم، ومن بعدهم مثل يزيد بن هارونو عبد الرزاق و جرير بن عبد الحميد ، ومن بعدهم مثل محمد بن يحيى الذهلي و محمد بن إسماعيل البخاري و مسلم بن الحجاج القشيري و أبي داود السجستاني و أبي زرعة الرازي و أبي حاتم وابنه و محمد بن مسلم بن واره و محمد بن أسلم الطوسي و عثمان بن سعيد الدارمي و محمد بن إسحاق بن خزيمة الذي كان يدعى إمام الأئمة، والعمريكان إمام الأئمة في عصره ووقته، و أبي يعقوب إسحاق بن إسماعيل البستي ، وجدي من قبل أبوي أبو سعيد يحيى بن منصور الزاهد الهروي و عدي بن حمدويه الصابوني ، وولديه سيفي السنة أبي عبد الله الصابوني و أبي عبد الرحمن الصابوني وغيرهم من أئمة السنة الذين كانوا متمسكين بها، ناصرين لها، داعين إليها، دالين عليها].

وهؤلاء الأئمة مختلفون في البلدان، وفي الأعراف وفي الأجناس، وفي القبائل، في اللسان الأصلي في ذاته، ولا يجمعهم بهذا إلا هدي النبي ﷺ والاجتماع عليه، وهم من أئمة هدى وأئمة سنة وأثر، واقتداء برسول الله ﷺ، فمن كرههم قد كره ما يجتنبون فيه من سنة النبي ﷺ وحب حديثه والعمل بذلك.

قال رحمه الله: [وهذه الجمل التي أثبتها في هذا الجزء كانت معتقد جميعهم، لم يخالف فيها بعضهم، بل أجمعوا عليها كلها، واتفقوا مع ذلك على القول بقهر أهل البدع، وإذلالهم وإخزائهم وإبعادهم وإقصائهم، والتباعد منهم ومن مصاحبتهم ومعاشرتهم، والتقرب إلى الله عز وجل بمجانبتهم ومهاجرتهم.

قال الأستاذ الإمام رحمه الله: وأنا بفضل الله عز وجل متبع لآثارهم، مستضيء بأنوارهم، ناصح إخواني وأصحابي ألا يزيغوا عن منارهم، ولا يتبعوا غير أقوالهم، ولا يشتغلوا بهذه المحدثات من البدع التي اشتهرت فيما بين المسلمين، وظهرت وانتشرت، ولو جرت واحدة منها على لسان واحد في عصر أولئك الأئمة لهجروه وبدعوه ولكذبوه، وأصابوه بكل سوء ومكروه].

عدم الاغترار بكثرة أهل البدع

قال المصنف رحمه الله: [ولا يغرن إخواني حفظهم الله كثرة أهل البدع، ووفور عددهم، فإن ذلك من أمارات اقتراب الساعة].

الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام:116]، فأكثر الناس لا يعقلون، لا يعلمون، لا يؤمنون، فالكثرة ليست بحجة، وإنما يحتج بها الماديون، أو الذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، وهذه هي حجة الأمم الكافرة على أنبيائهم، حينما يحتجون بذلك أنهم يحتجون بعمل الناس والكثرة الغالبة، فهذه تقصر الحق وتؤطره وتغيبه، وتحجب العقل عن إدراك وتمييز الحق من الباطل.

قال رحمه الله: [إذ الرسول المصطفى ﷺ قال: (إن من علامات الساعة واقترابها أن يقل العلم ويكثر الجهل)، والعلم هو السنة، والجهل هو البدعة، ومن تمسك اليوم بسنة رسول الله ﷺ وعمل بها واستقام عليها، ودعا إليها كان أجره أوفر وأكثر من أجر من جرى على هذه الجملة في أوائل الإسلام والملة، إذ الرسول المصطفى ﷺ قال: (له أجر خمسين. فقيل: خمسين منهم؟

قال: بل منكم)، وإنما قال ﷺ ذلك لمن يعمل بسنته عند فساد أمته].

وهذا الحديث حسنه بعض العلماء، وليس له إسناد يصح على سبيل الانفراد في أجر الخمسين.

قال رحمه الله: [وجدت في كتاب الشيخ الإمام جدي أبي عبد الله محمد بن عدي بن حمدويه الصابوني رحمه الله: أخبرنا أبو العباس الحسن بن سفيان الثوري، أن العباس بن صبيح حدثهم، حدثنا عبد الجبار بن طاهر حدثني معمر بن راشد، سمعت ابن شهاب الزهري يقول: تعليم سنة أفضل من عبادة مائتي سنة].

لأن التعليم بذلك يعني تناسخ العمل والاقتداء، فـ(من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها)، فإذا عبد الإنسان الله عز وجل عشرين سنة فإن السنة في ذلك أدوم وأبقى، ثم يعبد بها أفراد، فأنت تعمل لوحدك لمدة مائتين سنة، ولكن إذا دللت على سنة عمل بها المئات وربما الآلاف، وعمل الواحد منهم يوماً في هذه السنة يوافي عملك منفرداً لمائتين سنة، فإذا عمل بها الجماعات والأفراد وتكاثروا في ذلك، فكيف إذا دام في هذا.

ولهذا العلماء الصالحون يحشرون مع الأنبياء لفضلهم على الناس، ونشر الحق في الناس، فيعملون بعملهم، كم من الناس يصلي لأولئك الأئمة ويسبح لهم وهم في قبورهم، وأعمالهم لم تنقطع، ولهذا تجد كثيراً من الناس يتعبد لله عز وجل العبادات ولا يعلم من دله إليها، وأظهر هذه العبادات في الإنسان ما يتعلم بأمر التوحيد، من الذي دلك على الشهادتين؟ لا يذكر الإنسان من دله على هذا، لكن الله عز وجل يجزيه بعمله.

وقراءة الفاتحة التي لا تقوم صلاة الإنسان إلا بها هل يذكر أحد منكم من علمه الفاتحة؟ الغالب أنه لا يذكر، لكن الله عز وجل يعلم، فكل صلاة تصليها أجرها لمن علمك إياها، والذي علم من علمك يأتيه أجرك وأجره وهكذا، وكم من الناس أخذوا سنن النبي عليه الصلاة والسلام من أولئك الأئمة كالبخاري و مسلم والإمام أحمد و أبي داود و الترمذي و النسائي ، فأصبح هؤلاء جمع غفير من الأمة من هذه الأمة يصلون والأجور إليهم في قبورهم، ويزكون والأجور إليهم في قبورهم، يسبحون ويتضرعون ويقومون الليل، والأجور إليهم في قبورهم، ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ [المائدة:54]، ولهذا نسب السنة أعظم من العمل بها، لماذا؟ لأن العمل بها قاصر، والنشر والدعوة إليها متعدي، والكمال في ذلك أن يعمل بها وأن يدعو إليها.

- **تعظيم أخبار النبي ﷺ**

قال المصنف رحمه الله: [أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن زكريا الشيباني، أخبرنا أبو العباس محمد بن عبد الرحمن الدولي، سمعت محمد بن حاتم المظفري يقول: كان أبو معاوية الضرير يحدث هارون الرشيد ، فحدثه بحديث أبي هريرة : (احتج آدم وموسى)، فقال عيسى بن جعفر : كيف هذا وبين آدم وموسى ما بينهما؟ قال: فوثب به هارون وقال: يحدثك عن الرسول

ﷺ وتعارضه بكيف؟ قال: فما زال يقول حتى سكت عنه.

وهكذا ينبغي للمرء أن يعظم أخبار رسول الله ﷺ، ويقابلها بالقبول والتسليم والتصديق، وينكر أشد الإنكار على من يسلك فيها غير هذا الطريق الذي سلكه هارون الرشيد رحمه الله مع من اعترض على الخبر الصحيح، الذي سمعه بكيف؟ على طريق الإنكار والاستبعاد عنه، ولم يتلقه بالقبول كما يجب أن يتلقى جميع ما يرد من الرسول ﷺ.

جعلنا الله سبحانه من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، ويتمسكون في دنياهم مدة محياهم بالكتاب والسنة، وجنبنا الأهواء المضلة والآراء المضمحلة، والأسواء المذلة، فضلاً منه ومنة. وصلى الله على سيدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلم].

وبهذا نكون قد انتهينا من شرح هذا العقيدة الطيبة المباركة، وصلى الله وسلم على نبينا مُحَمَّد، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.